المؤلف الحائز على جائزة نوبل للآداب 2014

باتريك موديانو

صبيّة طيّبون

رواية

مكتبة الرمحي أحمد ٩٨

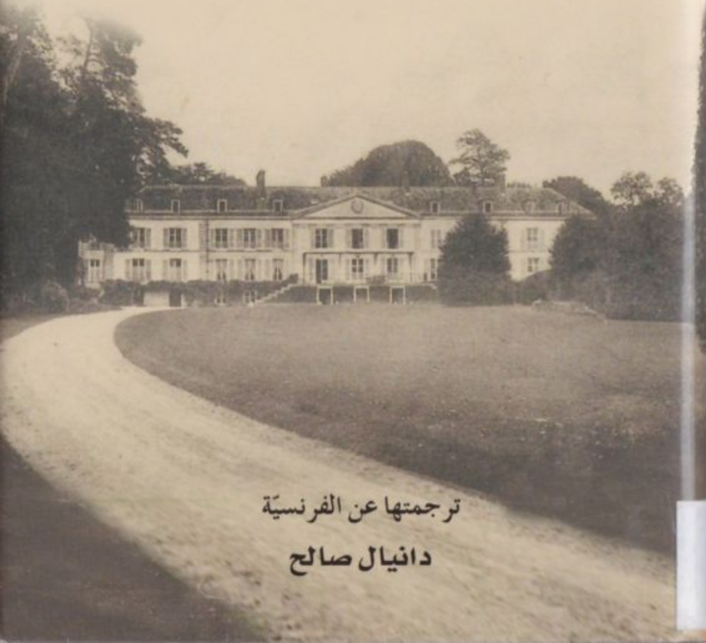

ترجمتها عن الفرنسيّة

دانيال صالح

باتريك موديانو

صبْية طيّبون

رواية

مكتبة الرمحي أحمد ٩٨

ترجمتها عن الفرنسيّة

دانيال صالح

مراجعة

كاظم جهاد

صبْية طيّبون : رواية / تأليف باتريك موديانو ؛ ترجمة دانيال صالح ؛ جهاد. ـ ط. 1. ـ أبوظبي : هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، كلمة، 2016
301 ص. ؛ 11 × 18 سم.
ترجمة كتاب: De si braves garçons
تدمك: 978-9948-13-960-7
1ـ القصص الفرنسية– القرن 20.
أ– صالح، دانيال. ب– جهاد، كاظم. ج– العنوان.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الفرنسي:

Patrick Modiano

De si braves garçons

© Editions GALLIMARD, Paris, 1982

صورة الغلاف: مدرسة لومونسيل الثانوية– أنموذج مدرسة فالفير في الرّواية.

صبْية طيّبون

مقدّمة المُراجِع

الرّواية التي بين أيدينا، الصّادرة في 1982، من أكثر روايات باتريك موديانو Patrick Modiano ارتباطاً بالموضوعات أو الحركيّات الكبرى لمشروعه الإبداعيّ، ومن أكثرها بروستيّة، نسبةً إلى مارسيل بروست ومشروعه الرّائد في محاولة استعادة الزّمن الضّائع. بهذه الرّواية وبأعمالٍ أخرى مسكونة ببحثٍ مشابهٍ فرضَ موديانو نفسه باعتباره روائيَّ فردوس الطفولة المفقود. لا الطفولة المضاعة بمعناها المطلق، بل تلك التي يرتسم ضياعها على خلفيّةِ حربٍ عالميّة وأزمة اجتماعية وسياسيّة ضاغطة، ممّا يمنح عمل الكاتب أهمّية إبداعيّة وتاريخيّة في آنٍ معاً. هنا أيضاً تتنامى مأساة الهجران أو التخلّي، المصوّرة بتنويعاتها العديدة في نصوصه الأخرى وسِيرَتَيه

مكتبة الرمحي أحمد @ktabpdf تيليجرام

الرّوائيّتين اللّتين قدّمناهما في هذه السّلسلة، «دفتر العائلة» (1977) و«سلالة» (2005). في العملين الأخيرين صوّر موديانو أثرَ هذا التخلّي عليه وعلى شقيقه الأوحد الرّاحل صغيراً، رودي، وعلى عائلته وأقربائه المباشرين وعلاقته بهم. في الكتاب الحاليّ يتّسع المنظور ليشمل جيلاً كاملاً، جيل رفاقه في أيّام الدّرس، يعود إليهم بعد عشرين عاماً، ليصورّهم في عالَم المدرسة الداخليّة (عالَم هو مكان تعلُّمٍ وعيشٍ وإقامةٍ في الأوان ذاته)، ثمّ يرينا ما آلوا إليه.

في بحث مشبوب وتعاطف أثير، يرسم هذه المسارات المعتكرة في أغلبها، ويستعيدها بتكتّم من خلال حفنة شخصيّات وبضعة نماذج دالّة من زملائه وأساتذته. زملاء من جنسيّات وأصول شتّى، بينهم الفرنسيّ وبينهم الأمريكيّ الشماليّ، والأمريكيّ الجنوبيّ، والعربيّ والإيطاليّ وسواهم، يجمعهم كلّهم كونُهم مهجورين، شبه منسيّين من قبل آباء أثرياء أو مدّعي ثراءٍ أو محتالين، مشبوهين عموماً، عهدوا بهم إلى المدرسة وغابوا عنهم. فترى هؤلاء الفتْية يسعون من خلال أنشطتهم اليومية وعلاقاتهم فيما بينهم ومع أساتذتهم إلى إنشاء عالمٍ بديل.

عالَم لا يُنسيهم لذعة الحرمان العائليّ، ولا يمحو عنهم دمغة النّكران يتعرّضون إليه بلا تبريرٍ وللا سبب. يعود إليهم الروائيّ في كتابة تتناوب فيها ذكريات أيّام الدرّس وتصوير أوضاعهم المتباينة والمتشابهة بعد عشرين عاماً، هبَّ للبحث عنها ممارِساً كتابة موضوعيّة كالعادة وفنّاً في «الرّيبورتاج» رفيعاً.

راجعاً إلى التاريخ البعيد، سمّى موديانو المبنى المعنيّ «مدرسة فالفير الثانويّة» Le collège de Valvert، كما يدعوه زملاؤه «القصر»، لأنّه بالفعل قصر متواضع أضيفت إليه عدّة بيوت لاستقبال مختلف الصّفوف. أمّا في الواقع، فالمكان هو «مدرسة لومونسيل الثانويّة» Le collège du Montcel، التي بقيت حتّى 1980 تفتح أبوابها للطلبة في مدينة جَويْ أون جوزاس Jouy-en-Josas ، غير البعيدة عن باريس، والتي وصف الكاتب في غيرِ واحدٍ من أعماله سنيَّ صِباه التي أمضاها فيها (أمضى في هذه المدرسة الثانويّة الفترة الممتدّة من أكتوبر 1956 حتّى يونيو 1960).

هنا أسّس الكاتب شعريّة باذخة للفضاء، فوصف جغرافيّته المعلنة والسّريّة، وطقوسه، بما فيها طقوس الطّرد

مكتبة الرمحي أحمد ٩٨

من المدرسة لسببٍ أو آخر، والنّظام التعليميّ والسلوكيّ الشّديد الشبه بالرّوح العسكريّة، وكلّ ما يتيحه المكان من تفاعلات وعادات ووشائج وخروق صغيرة وإيماءات عابثة أو مأساويّة وألقاب متبادلة ودعابات بها كان يحتمي هؤلاء الصّبْية الطيّبون. أغلبهم لديهم آباء، ولكنّ غياب الآباء، إلّا في زيارات متباعدة أو رسائل أكثر تباعداً، جعلهم يعيشون في ما يشبه حالةَ يُتمٍ مبكّرٍ يحتالون عليها بالصداقة واللّعب والابتكارات العفويّة وتحليقات الخيال التي تصبح هنا ضرورة قصوى ووسيلة بقاء. وبفضل ازدواج العمل الرّوائيّ وتوزّع السّرد بين ذكريات ماضي الدّراسة وحاضر البحث، سرعان ما نرى أثر هذا اليتم المبكّر على مساراتهم الراشدة التي يعمل الكاتب على تصويرها بعد مرور عشرين عاماً.

من زملائه هؤلاء، صنع الروائيّ فئة مخصوصة من البشر، جيلاً ضائعاً أعار أفراده كآبة خاصّة بأبناء فالفير. هكذا نقرأ في الفصل الرّابع على لسان السّارد: «فنحن قدامى فالفير، تعصف بنا للأسف نوبات كآبة يتعذّر تبريرها، فورات حزن يسعى كلّ منّا على طريقته

لمواجهتها. فجميعنا، على حدّ تعبير أستاذنا في الكيمياء السيّد لافور، فينا «بذرةُ مسٍّ من الجنون»».

هو تخلٍّ عائليّ واجتماعيّ كما قلنا، سرعان ما يتحوّل، بطبيعة الحال، إلى شعور بالتعرّض إلى تخلٍّ وجوديّ شامل، لا بل يمكن الكلام على ما كان القدماء يدعونه تخلّياً ربّانيّاً، ذلك الشّعور المستلَب بانعدام العناية، وبالوحدة القاهرة حتّى في قلب الجماعة، ما يدعوه المحلّلون النفسيّون غياب العَون désaide، أي الإحساس القهريّ بغياب كلّ عونٍ ومساعدة، كما في رفضِ مساعدةِ شخصٍ في حالة خطر.

هذا ما يلخّصه السّارد في عبارة بسيطة وحاسمة من الفصل الثاني: «أجل... كان هناك أشخاص عجيبون في تلك المدرسة... جميعهم يعانون اضطراباتٍ بفعلِ وضعهم العائليّ...». أمّا كون سنوات الصّبا تلك، الممضاة في هذه المدرسة، قد دمغت هؤلاء الصبْية بميسمها إلى الأبد فيلقى خيرَ تعبيرٍ عنه في تساؤله في الفصل السّادس: «لماذا يبقى البعض حتّى في شيخوختهم أسرى حقبة، سنة واحدة وحيدة من حياتهم، فيتحوّلون تدريجيّاً إلى نسخة مشوّهة ومترهّلة عمّا كانوا عليه في أوج عنفوانهم؟»

هذا الكتاب هو الأخير بين أعمال موديانو الستّة التي نقدّمها في هذه السّلسلة، مع أنّه صدر في 1982. جاء هذا الترتيب دون اختيار أو قصد، وفرضتْه ظروف العمل على هذه الكتب الستّة التي تمّ الاشتغال عليها ترجمةً ومراجعةً وتقديماً كما لو كانت كتاباً واحداً، نشيداً موحدّاً ومتعدّداً.

ومثلما في رواية السّيرة الذاتيّة «دفتر العائلة»، يتألّف الكتاب الحاليّ من فصول قصيرة مترابطة ومستقلّة في آنٍ معاً. هي أربعة عشر فصلاً قصيراً يضطلع بروايتها ساردٌ منخرطٌ في الأحداث، هو قناع المؤلِّف، خلا القسم الأكبر من الفصل الثاني وكامل الفصل الثالث عشر، يسلّم فيهما ناصية السّرد إلى زميل سابق له، إدمون كلود، يتدّخل هو بوجازة في كلامه ويعلّق عليه. هي فصول تُقرأ كقصص مترابطة أو فصول رواية. سرد تجمعه خيوط ناظمة مقتصدة وكافية تماماً: وحدة المكان الأساسيّ، الذي ينفتح فيما بعد على الحياة بكاملها، وعوالم المدرسة وأسطورتها الجامعة وما تنطوي عليه من أساطير فرديّة صغيرة. رابط فضائيّ وزمانيّ إذن، وخصوصاً رابط وجوديّ. هذا يكفي ليتيح امتداداً مهولاً للتجربة يخترق كلّ إمكانات الضياع

المتاحة لهذا الجيل المهدور.

الخسارة هي الغالبة على مصائر هذه الشخصيّات: هذا يتنكّر لاسمه، وذاك لماضيه، هذا لعائلته وذاك لقدراته، والمؤلّف-السّارد يشاطرهم هذا الإحساس التراجيديّ بالحياة، ويحوّل هذا التاريخ الغائب إلى وثيقة عن غياب التاريخ، عائداً في الزّمان صُعُداً بحثاً عنهم، كما فعل إنياس بطل «الإنياذة» في النّشيد السّادس منها، إذ هبط إلى الجحيم لمحادثة روح أبيه.

بالنتيجة يشكّل هذا العمل ما يشبه معجماً أو «كاتولوغاً» للخسارات، خسارات سنسمّي أبرزها في سطر أو سطرين كلّ مرّة، لكي لا نُفسد متعة القراءة، هادفين إلى اقتراح لا أكثر من مسْرد تحليليّ بسيط لأنماط الفقْد.

بين الأساتذة السّابقين يبرز تيري لافور، أستاذ الكيمياء الحامل وحدتَه أو وحشتَه مثل صليب، والذي يتابع بمنتهى الشغف نجاحات تلامذته السابقين في المسرح أو في مجالات أخرى، ينشد لنفسه حضوراً عبر حضورهم المتواضع، أو يحاول اجتراح أسطورته الفردية

على هامش ما يفترض أنّه صار يشكّل أساطيرهم المكتملة.

أمّا بين زملاء السّارد، فهناك أوّلاً ميشيل كارفيه، الصّبيّ المهمَل من قبل عائلته وإن لم تهجره. في استمارة المدرسة، يعرّف مهنة والده الطبيب باستغلال النفوذ، وهو تعريف صحيح أكثر منه تهمة يُطلقها ابنٌ جاحد أو منتقِم. ثمّ يعجّل إهمال ذويه له من تطوّعه جنديّاً.

وهناك الأمريكيّ ماكفاولز، الذي كان يفتقد البحر في أنحاء باريس، والذي كان بادئ ذي بدءٍ يعرب في مزاحه وبهلوانيّاته الصبيانية المجازفة عن هاجسٍ انتحاريّ وهوَس بالمباريات العنفيّة سيلقى بسببه حتفه بعد سنوات.

ومارك نيومان يخوض مغامرات عاثرة عديدة، بما فيها الانخراط في «الفرقة الأجنبيّة»، ثمّ يبحث عن اسم جديد، اسم مستعار به يبدأ حياة جديدة، فلا يجد سوى اسم مدرسة صباه هذه: فالفير.

ودوسوتو الذي أسلم إرادته وشؤون منزله كلّها لمشيئة طبيب يدّعي إشفاءه ويمعن في التحكّم به بأن يعزّز فيه إيمانه بكونه مصاباً.

وفيليب يوتلاند، «الدّانديّ» أو المتأنّق الذي ينظر

ذاهلاً إلى التجاعيد تبدأ تغزو وجهه، ولا يريد أن يفهم أنّ «العالم ليس حفلة ساهرة أبديّة».

ويصف السّارد كيف أنّهم، هو ورفاقه، حزنوا عندما أعلنت مارتين، شقيقة أحدهم، أنّها ستتزوّج، وهي كانت لهم بمثابة أمّ بديلة ومعشوقة خياليّة للجميع.

ومن الجيل السابق لجيل السّارد، يبرز ضمن تاريخ المدرسة كورت، المدعوّ جوني، اليهوديّ النمساويّ الذي يبقى بباريس رغم توسّلات جدّته له ليركب معها البحر إلى أمريكا، والذي يقرّر ذات يوم أن يغادر المترو الباريسيّ لا في محطّة باسي التي اعتاد النزول فيها، بل في أخرى تسبقها، هي محطّة التروكاديرو الشهيرة، فيسقط بين أيدي الغستابو ويُرحَّل إلى أحد معسكرات الاعتقال الجماعيّ. فترة كان يمكن فيها الانزلاق أو التّلاشي في كلّ لحظة.

ينبغي الانتباه إلى لغة موديانو وإلى إضماراته. ففي الفصل نفسه المخصّص لمأساة كورت نقرأ: «ذات مساء، وصل قبلها ببضع لحظات، فراح يفتّش عشوائيّاً في أحد الجوارير، حيث عثر على إيصال من الصندوق البلديّ للتسليف في شارع بيار شارون. هكذا علم أنّها رهنت

خاتماً وقرطين ومشْبكاً، واشتمّ لأوّل مرّة رائحة عَرق طفيفة في تلك الشقّة، شبيهة قليلاً بالرائحة في شقّة جدّته. أكانت تلك الرائحة المخدّرة المنبعثة من قطع الأثاث والسرير وجهاز تشغيل الأسطوانات والرفوف الفارغة وصورة الطيّار المزعوم المحاطة بالجلد الأحمر العقيقيّ؟». في أسطر قليلة يلخّص الكاتب مأزق معشوقة كورت، التي تتقدّم بصفتها زوجة طيّار انقطعت أخباره، والتي كان كورت يقاسمها نهاراتها المنذورة للانتظار القلِق وشظف العيش.

كما ينبغي الانتباه إلى خصوصيّة هذه الكتابة المتسلسلة وما يميّزها من استعادة مستأنفة، مع تنويعات شديدة الدّلالة، لوجوه وظواهر وأنماط ذكريات عبر مختلف الفصول، لا بل عبر عديد الروايات. يتذكّر السّارد صديقه كريستيان بورتييه، الذي تنشغل عنه أمّه بسهراتها وتُسكنه منذ أوّل صباه في شقّة منفصلة، بدعوى تعويده على استقلاله، استقلال يدّعي الفتى الصّغير الاضطلاعَ به وتحبيذَه إرضاءً للأمّ النّزقة، متخلّياً عن الطفل الذي هو فيه، معذَّباً من أجله، شاعراً بأنّ كيانه أصبح منذ ذلك

الحين مبتوراً إلى الأبد. وتجد حكاية كريستيان هذا صداها العميق في الفصل المخصّص للطّفلة التي تدعوها أمّها «الجوهرة الصغيرة»، طفلة تعيش في عزلة باذخة في قصر فارغ إلّا من بعض الخدم، في ظلّ إهمالِ أمّها لها، أمّ ذات نبالة مزعومة وموهبة في المسرح مدّعاة. يتكفّل السّارد برعايتها لفترة ثمّ يغادر مضطراً إلى الجنوب، ويراها ذات يوم في فيلم تذرع أبهاءَ قصرٍ فارغٍ، باحثةً بشغف ويأس عن شيءٍ أو شخصٍ ما، لعلّه هو السّارد نفسه. ولقد فُتِنَ موديانو بهذه الحكاية التي ابتكرها هنا فنمّاها لاحقاً في رواية عنوانها «الجوهرة الصّغيرة *La petite Bijou* (2001)، تدور حول محاولة يائسة ومخفقة تقوم بها «البطلة» للعثور على أمّها التي كانت في طفولتها مهمِلة لها أيّما إهمال.

الأمر ذاته نلاحظه في الفصل التّاسع من هذا العمل، المخصّص لذكريات السّارد عن زميله السّابق شاريل وزوجته سوزان. فصل يتحدّث عن إمكان الانجراف أو الانحراف في كلّ لحظة، عن اللّقاءات السّيّئة أو المهلكة والمصادفات الخطيرة، وهو موضوع أساسيّ في

مجمل أعمال الكاتب. أمسك موديانو بهذا الموضوع عبر خبر منشور في جريدة قديمة عن واقعة حصلت بباريس في 1933، وألهمه الخبر رواية بعنوان «أزهار خرائب» *Fleurs de ruine* (1991). ترينا الواقعة زوجين يوجدان منتحرين أو ربّما مقتولين، بعد حفلٍ جمعَهما برجلين وامرأتين. لا تعرف ما مورس عليهما في تلك اللّيلة، أيّ ضغط، أو عنف، أو غواية فاسدة أو أفعال مُهينة، ولا يحرص موديانو في روايته على تخمين ذلك، بل يكتفي بالإيحاء به وبتصوير أثره الماحق على الزّوجين. وقبلذاك كان قد استلهم الواقعة وخصّها بفصلٍ من الكتاب الحاليّ يرصد فيه سلوك زميله السّابق شاريل وزوجته، يريدان إدخال السّارد في هوسهما بالحفلات المريبة، وينتهي الأمر بشاريل إلى أن يُجرح برصاصة مسدّس في إحدى هذه الحفلات. عبر تخبّط شاريل واندفاعه إلى هذه المناسبات كما لو كانت قدراً محتوماً يرينا الكاتب غواية العدم الدّائمة لدى هذه الكائنات الهشّة، جيل ضائع يحاول عبثاً أن يعثر على أرضية صلبة في تاريخٍ عائمٍ وحقبةٍ هاربة.

في الفصل الثاني عشر، الوجيز جدّاً، يصف السّارد كيف كان هو وزميله مارك نيومان يغامران في بعض الأماسي بتسلّق سياج المدرسة ليضعا زهرة على قبر الصّناعيّ أوبركامبف المُقام قريباً منها. منذ البداية، كان المكان كلّه أصبح لهؤلاء الصّبْية المهمَلين مزاراً قدسيّاً وحاضنةً كبرى، أُمّاً حامية أو عائلة بديلة. بإيجازٍ، صار لهم بمثابة تاريخ ينكتب في ظلّ الانقذاف خارج التاريخ. والجميل أنّ الأساتذة كانوا واعين بذلك. ففي مطلع الرّواية كتب مؤّلفها وساردها، متكلّماً عن مدير المدرسة: «أعتقد أنّ السيّد جانشميت كان يريد منّا، نحن أطفال الصّدفة، أطفال اللّامكان، أن نعتاد فوائدَ الانضباط، ونناًلَ عزاءَ موطِن».

هذه الرحلة إلى الماضي ومحاولة معرفةِ ما صار إليه هذا أو ذاك من رفاق الأمس هما في التحصيل الأخير، وبالرّغم من كلّ الاكتشافات المؤسية، إيمانٌ بقوّة الفتوّة ورفضٌ للتسليم بقانون الخسران النهائيّ، أو باستحالة العثور على جذوة للماضي ربّما كانت خافية تحت الرّماد. وإنّ أرشيفيّ الذاكرة هذا وشاعر أطلالها لَيقوم هنا بصنيعِ وفاء. على

أنّ نشيده يتقدّم بلا نزعة رثائيّة ولا روحِ استعراض، بل يستعير من لغة «الريبورتاج» حيادها وموضوعيّتها، ويصوغ سلسلة بورتريهات لها قوّة الشهادة على جيلٍ بأكمله.

المُراجِع

كاظم جهاد

في ترجمة موديانو
كلمة للمترجمة

الأدب أرقى أنواع الكتابة. هو فضاء موحش وقاسٍ وحقيقيّ. الكلمات لها قدرة على التأثير فيّ تماماً كالواقع نفسه، وكأنّ جزءاً منّي لا يتجاوب إلّا مع اللغة، خصوصاً اللّغة المكتوبة، وكأنّ الكلمات خير وسيط بيني وبين الحياة. والترجمة هي بالنسبة لي هامش آمن جميل في الأدب، حيث حتّى الحزن والأسى والخيبات فيها من الحلاوة ما يجعلها حميمة وعزيزة علينا. أتخلّى كمترجمة عن ذاتي وأدخل إلى عالم الكاتب بمتعة وحبّ، أتماهى معه وأتعاطف معه، أصبح جزءاً منه، حتّى أنّني أصبح أحياناً شبيهة به قليلاً. وحين أنتهي، أخرج بصعوبة من هذا العالم. أنا مولعة بما أفعله، الترجمة الأدبيّة تعطيني الكثير. والكتّاب الذين أترجمهم يبقون في مكان من لاوعيي، في هذا العالم الموازي الذي أوجدته لنفسي.

الآن وقد عملتُ على موديانو بنفَس طويل غطّى ستّاً من رواياته، صار له مكانة خاصّة في هذه المرتبة. أشعر وكأنّني اصطبغت ببعضٍ من تجربته واكتسبت بعضاً من صمته. وإذ انتهيت للتوّ من ترجمة المجموعة، أشعر بنفسي في مكانٍ ما وحيدة.

بكلماتٍ قلتُها وأنا أشرع بترجمته، وكلمات أخرى أقولها الآن، أودّ أن أستجيب لدعوة محرّر السّلسلة فأعبّر عن أثر هذه الرحلة فيّ وعليّ.

باتريك موديانو من كتّابي المفضّلين منذ زمن، وله مكانة خاصّة جدّاً بنظري في الأدب عموماً. فهو بسيط للغاية، وكتابته تشبه حياته وشخصه إلى أقصى ما يمكن. ولا أتكلّم فقط عن المضمون، بل كذلك عن الشكل. كتابة مجرّدة من أيّ شيء، من الاستعارات، من الوصف، من الصّور، وحتّى في معظم الأحيان من النعوت. كتابة من الصمت والعزلة، مثل حياته التي عاشها في حرمان مادّي وعاطفي، مجرّدة من كلّ ما يمكن أن يكسوها ويجعل منها مكاناً دافئاً يطيب فيه العيش، وعلى الأخصّ

في طفولته وشبابه. يقول الجوهر فقط، ويقوله كما يشعر به أو كما يذكره. بوسعه أن يلاحق رائحة من رواية إلى رواية، رائحة ترتبط في ذاكرته بحادثة عاشها من غير أن يذكر ما هي، فيبحث عنها بلا كلل. شعرت بتعاطف وأُلفة غير معقولين في ترجمتي لكتابه «سلالة» (وأذكر هذا الكتاب تحديداً لأنّه أقرب إلى السيرة الذاتيّة) حيث يجمع ذكرياته المشتّتة اليتيمة مثل بقايا عيش لم يرتَقِ إلى مستوى حياة، ويصوغها على شكل جرد لوقائع، فتأتي جمله في غاية التجرّد، بدون مشاعر، حتّى حين يتكلّم عن بؤس حقيقيّ عانى منه، وكأنّها لم تكن حياته، وكأنّ هذه المرحلة المؤسسة من الحياة سُلبت منه وهو يبحث عنها. ومع تعاقب الصفحات، تصبح الجمل متقطّعة ولاهثة، وفي بعض الأحيان مجرد جمل اسميّة، على صورة مطاردته لماضٍ يعجز عن الإمساك به. يقول إنّه يريد الانتهاء من كل هذه الحقبة لينتقل إلى صفحة جديدة، لكنّ هذه الحقبة بقيت في الواقع ملازمة له، والخيط الذي يربط نتاجه بكامله هو ذلك البحث عن نفسه وعن حياته، بحث في منتهى الهدوء حتى في حزنه. وما يلفت في موديانو ولا

بدّ من نقله هنا، هو مدى صدقه ووفائه لنفسه. وهذا ما يظهر جليّاً في المقابلات معه. مقابلات تتخلّلها مساحات صمت مربِك (لمن يستجوبه) أكثر ممّا هو مرتبك، جمل يقطعها في وسطها ليعود الى داخله، وكأنّه يكتشف للتو مغزى الكلمات أو يكتشف عجزها، فيغيب عمّا يحيط به. ليست الكتابة بالنسبة لموديانو وسيلة تعبير أو إبداع بارع أو تحليق ذهنيّ، بل هي جوهرية أكثر من ذلك، هي غريزة بقاء، بعيداً عن الجماليّات والأسلوب والتجلّي اللغويّ.

وهذا الكتاب الأخير كان له نكهة خاصّة. ليس لأنّني أودّع به هذا العالم الجميل الذي عشت فيه على مدى أشهر، بل لأنّه يمثّل خلاصته. فيه يقيم الكاتب جسراً بين الماضي بألمه ووحشته وحلاوته، والحاضر أو بالأحرى حاضر يسبق الوقت الذي يتكلّم فيه الراوي (الوقت لا يكون أبداً خطّاً واضحاً مع موديانو)، غير أنّه حاضر نسجته كل هذه الأحلام والأوهام التي اصطدمت بتجربة الواقع. فنرى أشخاصاً مجبولين بطفولة لم تكتمل، يبحثون عن حاضر يمكن أن يسكّن قلقاً دفيناً أو يوجد مساحة أليفة لهم. بحث موجع، مزيج من السذاجة والفظاعة،

وأشخاص يهيمون في الحياة مثل ظلال لن تكتمل.

عالم موديانو على طرفي نقيض مع الأدب العربيّ. اللغة العربية لغة غنيّة تحبّ الصور والتكرار والجمل الغنيّة الطويلة المتداخلة، لغة إطناب وثراء وغزارة رغم أنّها قادرة على التعبير بدقّة والاختزال ببراعة. الكلام بحدّ ذاته عندنا له أهميّته الخاصّة: حتّى السياسيين، نقيّمهم ببراعتهم الخطابيّة، نقول لغة ونعني الأدب وعالم الأديب. موديانو بعيد كلّ البعد عن كلّ هذا. وهذا القدر من الاختلاف هو بنظري ما يجعل قراءته ضروريّة سواء للكاتب أو للقارئ العربي. يتخلّى عن كلّ الزخرفة والمخيلة والجمالية ليقول الجوهر فحسب، بأقلّ قدر ممكن من الكلام، وبأبسط ما يمكن من العبارات. موديانو هو السكينة، الصمت، حتّى حزنه هادئ ويأسه عذب وضياعه أليف وبؤسه خفر. ونحن بأمسّ الحاجة إلى مثل هذا الصمت الذي يضعنا أمام عري المشاعر.

أن نقرأ كاتباً وأن نترجم أعمالاً له أمران مختلفان كلّ الاختلاف، وحتّى مقاربة النص وتفاعلنا معه يكونان مختلفين إلى أقصى حدّ. الترجمة لم تعد التلذّذ بالنصّ، رغم

أنّ فيها متعة هائلة، لكنّها متعة ذهنيّة، متعة تفكيك النص وإعادة تركيبه، البحث والتنقيب إلى أن نجد الكلمة، العبارة، الجملة، الصيغة. لغة كاتب هي في نهاية المطاف أفضل وأوفى مرآة لنفسه. وولوجها في العمق يولّد إلفة ذات أبعاد مختلفة تماماً مع الكاتب مباشرة، نشعر وكأنّنا فككنا رموز عالمه، دخلنا معه بيته، فتّشنا معه في خزائن ذاكرته، سهرنا على نومه الهانئ أو المضطرب. أمر رائع فعلاً الترجمة، نمسك بيد الكاتب ونمشي، لكننا نبقى في الوقت نفسه في الظل، في ظلّه الجميل، في مساحة متواضعة. القراءة لذّة، والترجمة لذّة مختلفة تماماً. قد نستمتع بقراءة كتاب ما، غير أنّه لا يقاوم عمل الترجمة، فهي تعرّيه، تعود إلى أسسه، لتكشف كلّ ما هو خلف الكتابة، وكأنّها تنظر إليه من الجانب الآخر من المرآة، فيسقط أو يخرج من العمليّة أرقى وأسمى. وكتب موديانو عند الترجمة تكشف كم أنّ كتابته أساسيّة.

أكثر ما استوقفني في كتابته البساطة التي هي الرديف الأدبي لرقّة شخصيّته. حين تقارب الكتاب كقارئ، تعتقد أنّ البساطة أمر مفروغ منه، تأتي بديهيّاً، كالهواء

والماء. لكنّ هذا خطأ. حين بدأت العمل على ترجمتي الأولى، رأيت هذه البساطة التي سحرتني عند قراءتي له تفلت منّي، وجدتني أخاف على النصّ منّي أنا نفسي، بعض الكلمات التي كنت أكتبها كانت تنفّرني حقّاً، فأعيد صياغة جملتي، أبحث عن أسلوب لا يخدش الأذن ولا النفس ولا القلب. كتابة موديانو كلمات تبوح من غير أن تقول، جمل صافية تُسقط كلّ القشور ولا تستبقي إلّا الأساس. نقول «السهل الممتنع»، وهذه العبارة يمكن أن تنطبق على كتاب كبار مثل ريموند كارفر، لكنّها غير كافية بنظري لموديانو. أعترف بأنّني كلّما كنت أعيد قراءة نصّي، كنت أبسّط أكثر وأشذّب أكثر وأستبعد أيّ كلمات يمكن أن تخرج ولو بشكل طفيف جدّاً عن النبرة العامة الخافتة المتجانسة. كتابته مثل جدول صفحته ملساء وكأنّه معلّق في الزمن لا يجري، رغم كلّ ما يغلي في القاع. والبساطة القصوى تحتّم الالتصاق بالنصّ إلى أقصى الحدود. في النصوص الوصفيّة الغنيّة بالاستعارات والصور، تسهل المناورة، وإيجاد طرق ملتوية ومتشعّبة لنقل كلّ تلاوين الجملة وأدقّ تفاصيلها في قالب لغة الهدف. لكن حين

مكتبة الرمحي أحمد ٩٨

تقتصر الجملة على جوهر الجوهر، من غير أن يكون من الممكن حذف منها أيّ حرف، لا يعود من الممكن الحياد ولو بشكل طفيف عن النصّ بدون خيانته. وهذا جزء من المتعة الفائقة التي وجدتها في العمل على كتب موديانو، فالاختزال والبساطة يحاكيانني في الصميم. هما ما يتبقّى حين نتخلّى عن كلّ ما لسنا بحاجة إليه. كتابة حقيقيّة وعارية إلى حدّ الشعر.

دانيال صالح

قبرص

إلى رودي *Rudy*

إلى سيمون *Simone*

«... يا للصبيّ الطيّب!»

تورغينييف

«حقل بيجين»

1

كان ممرّ عريض مكسوّ بالحصى يرتقي صعوداً برفق حتّى القصر[1]. لكن ما إن تسلكه حتّى تباغتك في المرّة الأولى إلى يمينك، أمام جناح المشفى، تلك السارية البيضاء، وفي أعلاها يرفرف علمُ فرنسا. على تلك السارية، كان واحد منّا يرفع العلم كلّ صباح، بعدما يصيح السيّد جانشميت آمراً:

- تأهّب!

عندها يرتفع العلم ببطء. كان السيّد جانشميت يتّخذ هو أيضاً وضع التأهّب. ثمّ يقطع الصمت بصوته الخفيض:

---

(1) نذكّر للفائدة بأنّ «القصر» هو الاسم الذي كان التلامذة يطلقونه على مدرسة لومونسيل الثانويّة (مدرسة فالفير في الرواية) لأنّها كانت قائمة في قصر فعليّ، متواضع، أُلحقت به بيوت مجاورة لاستكمال قاعات الدّرس (كلّ الحواشي من وضع المترجمة).

- استرحْ... إلى اليسار درْ... إلى الأمام سرْ!

فنتقدّم بمشية عسكريّة في الممرّ الرئيسيّ، وصولاً إلى القصر.

أعتقد أنّ السيّد جانشميت كان يريد منّا، نحن أطفال الصّدفة، أطفال اللّامكان، أن نعتاد فوائدَ الانضباط، وننالَ عزاءَ موطِن. وفي الحادي عشر من نوفمبر، كنّا نشارك في احتفالات القرية. نتجمّع في الصفّ في باحة القصر، مرتدين جميعاً سترات كحليّة وواضعين ربطات عنق محبوكة من اللّون ذاته. يعطي «بيدرو» جانشميت -هكذا كنّا نلقّب مديرنا: بيدرو- إشارة الانطلاق. فننحدر على الممرّ بمشية عسكريّة، بيدرو مفتتحاً الموكب، يليه التلاميذ مصفوفين بالتدرّج من الأطول قامة إلى أقصرها. وفي طليعة كلّ صفّ، يسير التلاميذ الثلاثة الأطول قامة، أحدهم يحمل باقة أزهار، والثاني العلم الفرنسيّ، والثالث راية مدرستنا الزرقاء الغامقة ذات المثلّث الذهبيّ. هكذا، تناوب معظم رفاقي على مهمّة حمل العلم: إيتشيفارييتا، وشاريل، وماكفاولز، وديسوتو، ونيومان، وكارفيه، ومنصف العقبيّ، وكوركويرا،

وأرشيبالد، وفيروز، ومونتيري، وكومتزوبولوس الذي كان مزيجاً من يونانيّ وإثيوبيّ... كنّا نعبر البوّابة، ثمّ الجسر الحجريّ القديم فوق نهر بيافْر. أمام مقرّ بلديّة القرية، الذي كان في ما مضى دارة الصبّاغ أوبركامبف[1]، كان تمثاله البرونزيّ الذي اكتسى مع الوقت صبغة خضراء ينتصب على قاعدة من الرخام، يتأمّلنا من أعلاها بنظرته الجوفاء ونحن نسير بمشيتنا العسكريّة. وبعد ذلك، نصل إلى الحاجز عند السكّة الحديد. حين يكون مغلقاً ويعلو الجرس معلناً عبور قطار، كنّا نتسمّر متأهّبين في أماكننا. ثمّ يرتفع الحاجز باعثاً صريفاً، ويبادرنا بيدرو بإشارة قاطعة بذراعه، على غرار مرشد جبليّ. فنستأنف مسيرتنا. على طول شارع القرية الرئيسيّ، كان الأطفال المتجمّعون على الرصيف يصفّقون لنا وكأنّنا جنود فرقة أجنبيّة. كنّا ننضمّ إلى قدامى المقاتلين المتجمّعين في ساحة الكنيسة. وبأمرٍ قاطعٍ من بيدرو، نتّخذ من جديدٍ وقفة التأهّب. ثمّ يتقدّم كلّ من التلاميذ الحاملين باقات أزهار، ليضعها عند

(1) كريستوف فيليب أوبركامبف (1738–1815) صناعيّ ألمانيّ حصل على الجنسيّة الفرنسيّة، اشتهر بتأسيسه المصنع الملكيّ للأقمشة المعرّقة في بلدة جوي أون جوزاس حيث تدور أحداث الرواية ودراسة المؤلّف.

أسفل نصب الأموات.

*

أقيمت مدرسة فالفير على الأملاك السابقة لشخص يدعى فالفير، كان صديق الكونت دارتوا ورافقه في موجة الهجرة الجماعيّة[1] من فرنسا. انضمّ لاحقاً إلى الجيش الروسي برتبة ضابط، وقُتل في معركة أوسترليتز[2] وهو يقاتل مواطنيه بزيّ فرقة إسمعيلوفسكي[3]. لم يبقَ منه سوى اسمه، وفي عمق المنتزه، أعمدة من الرخام الزهريّ آيلة إلى الانهيار...

رُبّينا أنا ورفاقي برعاية ذلك الرجل، تحت إشرافه الكئيب الذي ربّما لا يزال بعضنا يحمل بصماته من غير أن يدري.

*

(1) موجة هجرة من فرنسا أعقبت الثورة الفرنسيّة وما رافقها من اضطرابات دامية، بدأت في العام 1789، وشملت نبلاء وأثرياء من أنصار الملكيّة.

(2) Bataille d'Austerlitz معركة جرت عام 1805 في أوسترليتز (في تشيكيا حاليّاً) وتعتبر أشهر معارك نابوليون بونابارت، وقد هزم فيها جيوش إمبراطور النمسا فرانسيس الثاني وإمبراطور روسيا الكسندر الأوّل.

(3) فرقة مشاة في الحرس الإمبراطوريّ الروسيّ.

كان بيت بيدرو في مطلع الممرّ، على مسافة منه، من الجهة المقابلة للسارية والمشفى. ذلك البيت الريفيّ الصغير المطليّ بألوان لمّاعة كان يوحي لنا ببيت «بياض الثلج والأقزام السبعة». حوله ينتشر شريط من العشب والأزهار على الطراز الإنكليزيّ، كان بيدرو نفسه يعتني به على أفضل وجه.

لم يستقبلني في بيته سوى مرّة واحدة، في مساء اليوم الذي هربت فيه. تسكّعت ساعات طويلة في حيّ الشانزيليزيه، بحثاً عن شيء ما، قبل أن أذعن وأعود إلى المدرسة. قال لي ناظر الدروس حينها إنّ بيدرو في انتظاري.

كان الأثاث المشمّع اللمّاع والبلاط والآنية الخزفيّة والنوافذ ذات المربّعات الصغيرة الملوّنة، كلّها تذكّر بالبيوت الهولنديّة. كان مصباح وحيد يضيء القاعة. وجدت بيدرو جالساً خلف مكتب من الخشب الداكن، من طراز عصر النهضة. وكان يدخّن الغليون.

– لماذا هربتَ عصر اليوم؟ هل أنّك تعيس هنا؟

فاجأني السؤال.

- لا... لست تعيساً تماماً.

- سوف أتغاضى عن الحادث. لكنّني سأحرمك من الخروج.

بقينا بضع دقائق متواجهَين في صمت، وبيدرو ينفث دخان غليونه ساهماً. ثمّ رافقني حتّى الباب.

- لا تُعِد الكرّة.

حدّق فيّ بعينين حزينتين عطوفَين.

- إن شعرت بالرغبة في أن تكلّم أحداً، فتعال إليّ. لا أريد أن تكون تعيساً.

مشيت في الممرّ في اتّجاه القصر، والتفتّ. كان بيدرو لا يزال واقفاً بلا حراك تحت سقيفة بيته الصغير. كان كلّ ما فيه يوحي عادةً بالقوّة: قسوة وجهه الجبليّ وكأنّه مصقول في الصخر، وقامته المربوعة الجسيمة، وغليونه، ولكنته الخاصّة بكانتون «فو» السويسريّ. لكن في ذلك المساء، ولأوّل مرّة، بدا لي مغتمّاً. أكان ذلك بسبب هروبي؟ أو ربّما كان قلقاً على مستقبلنا، بعدما نغادر مملكة فالفير التي كان وكيلها، مملكة محاصرة بمخاطر متزايدة في عالم يشتدّ قسوة وغموضاً، حين لا يعود يسعه، هو بيدرو، أن يفعل من

أجلنا أيّ شيء.

*

كان الممرّ الرئيسيّ يعبر في وسط البستان الشاسع المكسوّ بالعشب، حيث كنّا نقضي فرص العصر والمساء، وحيث كانت تجري مباريات الهوكي على العشب. وفي عمق ذلك البستان، من ناحية السور المحيط بالمدرسة، كان يرتفع موقع محصّن بحجم عمارة، من مخلّفات الحرب، حيث استخُدمت المدرسة مقرّاً لهيئة أركان سلاح الجوّ الألماني. وخلفه، كان درب يمتدّ بمحاذاة السور، يقود إلى منزل بيدرو والبوّابة. على مسافة ضئيلة إلى أسفل الموقع المحصّن، كان هناك بناء كان في ما مضى بيتٌ لحماية مشتل البرتقال، تمّ تحويله إلى قاعة رياضيّة.

غالباً ما أُلفيني في أحلامي أتبع الممرّ الرئيسيّ المؤدّي إلى القصر، مجتازاً إلى يميني كوخاً بنيّ اللون، كان هو حجرة الملابس حيث كنّا نرتدي بذلاتنا الرياضيّة. أصل أخيراً إلى الباحة المفروشة بالحصى أمام القصر، مبنى أبيض من طبقتين، يتقدّمه مدخل ذو أدراج محاطة بدرابزين. شُيّد

القصر في أواخر القرن التاسع عشر، على طراز قصر مالميزون[1]. أتسلّق أدراج المدخل، أدفع الباب الذي ينغلق من تلقاء نفسه من خلفي، وها أنا في الردهة ذات البلاط الأسود والأبيض المؤدّية إلى قاعتَي الطعام.

من الجناح الأيسر للقصر، ذاك الذي كنّا نسمّيه «الجناح الجديد»، إذ شيّده بيدرو في مطلع الخمسينيّات، ينحدر درب مؤدّ إلى فناء الكونفدراليّة، وهو اسم اختاره له مديرنا تكريماً لسويسرا التي كان يتحدّر منها. لا أسلك في أحلامي هذا الدرب، بل المتاهة التي كانت محظورة علينا، وتبقى حكراً على المدير والأساتذة. ممرّ ضيّق محاط بالخضرة، ومستديرات، ومعابر مظلّلة بالأشجار المعرّشة، ومقاعد حجريّة، وعطر جَنَبات الرّباط[2]. المتاهة أيضاً كانت تفضي إلى فناء الكونفدراليّة.

كان الفناء أشبه بساحة قرية، محاطاً ببيوت متنافرة تؤوي قاعات الصفوف، والمهاجع أو الغرف التي كنّا

(1) Château de Malmaison قصر يقع على ضفة نهر السين على مسافة حوالى 15 كلم غرب باريس، كان مسكن الإمبراطورة جوزيفين، ومقرّ الحكومة الفرنسيّة بين 1800 و1802، وآخر مسكن لنابوليون في فرنسا عام 1815.

(2) جنْبة الرّباط: شجيرة للتزيين.

نتقاسمها في مجموعات من خمسة تلاميذ أو ستّة. كان لكلّ من تلك البيوت اسم: «الصومعة» الشبيهة بمسكن ريفيّ فخم من مساكن منطقة تورين، و«المزهريّة الجميلة»، وهي فيلّا خشبيّة على طراز بيوت النورماندي، و«الجناح الأخضر»، و«البيت»، و«الينبوع» ومئذنته، و«المشْغل»، و«الوادي»، و«الشاليه» الذي نخاله واحداً من تلك الفنادق القديمة في سان جرفيه بجبال الألب، يروى أنّه نقله ملياردير غريب الأطوار قطعة قطعة إلى هناك، في سين إيه واز. وفي عمق الفناء، في إسطبل قديم يعلوه برج جرس صغير، أقيمت قاعة للسينما والمسرح.

كنّا نتجمّع في الفناء قرابة الظهر، قبل أن نصعد في صفّ منتظم إلى القصر لتناول الغداء، أو كلّما كان هناك نبأ هامّ يريد بيدرو أن يعلنه لنا. كان يقال لنا: «تجمُّع في الساعة كذا عند الكونفدراليّة»، وتلك الكلمات الغامضة لم يكن من الممكن أن يفهمها أحد سوانا.

أقمت في جميع بيوت ذلك الفناء، ومبناي المفضّل من بينها كان «الجناح الأخضر». لا بدّ أنّه استمدّ اسمه من اللبلاب الذي كان يلتهم واجهته. في الأيّام الماطرة، كنّا

مكتبة الرمحي أحمد

نحتمي خلال الفرص تحت شرفة «الجناح الأخضر». كانت سلالم خارجيّة درابزينها من الخشب المخرّم تقود إلى الطابقين العلويّين. الطابق الأوّل كان يحوي المكتبة. وتقاسمتُ لردحٍ من الزمن إحدى غرف الطابق الثاني مع شاريل وماكفاولز ونيومان وإدمون كلود الذي أصبح لاحقاً ممثّلاً.

في ليالي الربيع، كنّا نجلس في «الجناح الأخضر»، ندخّن أمام نافذة مشرّعة. كان يتحتّم علينا الانتظار حتّى ساعة متأخّرة، إلى أن تغفو المدرسة برمّتها. كان لدينا خيار بين نافذتين: الأولى تطلّ على فناء الكونفدراليّة حيث يقوم بيدرو أحياناً بجولة، مرتدياً مبذله الإسكتلنديّ المربّعات، وغليونه في فمه، والنافذة الثانية أضيق، تكاد تكون بحجم كوّة، تشرف على درب جبليّ يجري بمحاذاته نهر بيافر.

كان إدمون كلود ونيومان يعتزمان الحصول على حبل ننزلق عليه إلى أسفل الجدار. وقرّر ماكفاولز وشاريل أن نستقلّ عندها القطار الذي كنّا نسمع صفيره كلّ ليلة في الساعة ذاتها.

ترى إلى أين كان يتوجّه، ذلك القطار؟

2

كان بعض أساتذتنا يسكنون في فناء الكونفدراليّة، موزّعين على بيوته، وقد عيّنهم بيدرو «نقباء» لتلك المباني. كانوا مسؤولين عنها، ويفرضون الانضباط فيها بمساعدة «مؤهّلين»، هم تلاميذ يتمّ اختيارهم من الصفّين الأوّل والثاني الثانويّين[1]. كان «المؤهّلون» يقومون كلّ ليلة بجولات «تفتيش»، ليتثبّتوا ممّا إذا كانت الأسرّة موضّبة بالشكل المناسب، والخزائن مرتّبة، والأحذية ملمّعة. وبعد إطفاء الأضواء في الساعة التاسعة، كان «المؤهّلون» يحرصون على ألّا نعيد إشعال النور، وأن نلزم الصمت.

كان نقيب «الجناح الأخضر» أستاذنا للرياضة، السيّد

(1) حساب الصفوف في النظام المدرسيّ بفرنسا تنازليّ. فالسنة الأولى في الدراسة الثانوية (يدخلها التلميذ عموماً في سنّ الخامسة عشرة) تُسمّى السنة الثانية، والسنة الثانية تُسمّى الأولى، والسنة الثالثة تسمّى الختاميّة . terminale

مكتبة الرمحي أحمد @ktabpdf تيليجرام

كوفنوفيتزين الذي كنّا نلقّبه «كوفو». لم يكن تحت أمرته أيّ «مؤهَّل». فلا جولات تفتيش في غرفنا. وكان بوسعنا إطفاء الأضواء ساعة نشاء. الخطر الوحيد كان أن يلمح بيدرو أثناء جولته الليليّة نوراً عند نافذتنا. عندها كان يطلق صفّارته، وكأنّه عنصر من فرق الدفاع المدنيّ.

كان كوفو في السابق أستاذاً لكرة المضرب، وكان يقدّم لتلاميذه المفضّلين إحدى بطاقات الزيارة القديمة التي كان يحتفظ بها:

كوفنوفيتزين

أستاذ لكرة المضرب

8 فيلّا دياز مونان

باريس- الدائرة السادسة عشرة

كان ذلك الرجل الطويل القامة، بشعره الأبيض المسرّح إلى الخلف وجانب وجهه المرتسم بنقاوة، يرتدي على الدوام بنطالاً من الكتّان الأبيض، ويعيش برفقة كلب لابرادور كان يزورنا أحياناً في غرفنا. كان يعاني من الأرق ويقضي لياليه هائماً في مرج المدرسة المكسوّ بالعشب.

راقبته في بعض الليالي من النافذة، قرابة الساعة الثانية أو الثالثة صباحاً، وهو يعبر الفناء ببطء، ممسكاً كلبه بزمامه. كان بنطاله الكتّان يحدث بقعة مشعّة في الليل. كان يفلت زمام الكلب، فيهرب الكلب بعد وقت، إذ نسمع كوفو يناديه:

- شوووووووووووووورا...

كان ذلك النداء يتكرّر بلا كلل حتّى الصباح، قريباً تارةً ونائياً طوراً، وتتردّد أصداؤه مثل شكوى مزمار.

لست أدري هل أنّ النقيب كوفنوفيتزين لا يزال يتسكّع ليلاً مع كلبه شورا. التقيت من جديد بواحد فقط من معلّمينا، بعد حوالى عشر سنوات على خروجي من المدرسة: لافور، أستاذ الكيمياء. قيل لي إنّك أنت أيضاً يا إدمون صادفتَ لافور...

أجل. في ذلك المساء، لم يكن الجمهور أفضل ولا أسوأ منه في مدن الأرياف الأخرى التي كانت فرقتنا تتوقّف فيها أثناء «جولة باريه»[1]. جلبوا لي حينها أثناء الاستراحة

---

(1) Tournées Charles Baret كان شارل باريه (1863–1934) مدير مسرح ومنظّم عروض مسرحيّة فرنسيّاً. أسّس «جولات باريه» التي جابت أنحاء فرنسا لتقديم عروض، واستمرّت إلى ما بعد وفاته.

بطاقة زيارة إلى الحجرة الصغيرة التي كنت أتقاسمها مع سيلفستر بيل:

«عزيزي إدمون كلود، أستاذك السابق للكيمياء في مدرسة فالفير:

لافور

يودّ تناول العشاء معك إذا أمكن بعد العرض».

- إحدى المعجبات؟ سألني سيلفستر بيل.

لم يكن بوسعي تحويل عينيّ عن بطاقة الزيارة المصفرّة تلك، وفي وسطها اسم «لافور» مطبوعاً بحروف رماديّة.

- لا، صديق قديم للعائلة.

وعندما حان دوري لاعتلاء المسرح لبضع دقائق وخمس جُمَل، سمعت صوتاً في الصفوف الأماميّة يهتف من عمق الصمت «برافو! برافو!». عرفته على الفور: كان ذلك صوت لافور، صوت كأنّه متصاعد من القبر، كنّا في ما مضى نقلّده في الصفّ، وجعلنا نلقّبه «الميت».

خمس دقّات خفرة، ومسموعة بوضوح، على باب مقصورتنا. وكأنّها لغة مشفّرة. فتحت. كان ذلك لافور.

- هل أُزعجك؟

كان واقفاً أمامي، بشعره الأبيض القصير المنتصب فوق رأسه، متشنّجاً بخجل في بذلة كحليّة ذات سروال ضيّق طرفه أعلى من كاحليه، يكشف عن حذاءين أسودين ضخمين نعلاهما من «الكريب». كان ينتعل حذاءين مماثلين أيّام المدرسة، وهذان المداسان الثقيلان والأكبر من قدميه كانا يجعلانه يتباطأ في مشيته وكأنّه مسرنم.

كان وجهه قد ضمرَ، وباتت تعترضه تجاعيد، لكنّ بشرته بقيت على ما كانت، بيضاء كالطبشور.

- تفضّل سيّد لافور.

في تلك المقصورة الضيّقة، حيث كان يقبع حوضان من الكرتون، كان سيلفستر بيل يزيل المكياج عن وجهه، جالساً على الكرسي القشّ الوحيد، فيما كنت أكاد ألتصق بلافور الذي أغلق الباب خلفه.

- أقدّم لك أستاذي السابق في الكيمياء...

التفت سيلفستر بيل وحيّى لافور بإشارة متعجرفة برأسه. كان لا يزال، في تأنّقه، يحتفظ بخصلة الشعر على أعلى رأسه التي كان يظهر بها على المسرح، وتجعله يبدو أكثر شباباً. كان بوسعه، هو الستّينيّ، أن يدّعي أنّه في

الخامسة والثلاثين، على غرار بعض الأميركيّين الذين يبقون محنّطين في سنّ الشباب، من شدّة ما يواظبون على تلويح بشرتهم والاعتناء بنظافتهم الجسديّة واستخدام مستحضرات التجميل.

- وجدت إداءك ممتازاً سيّدي، قال له لافور.

أخرج من جيب سترته برنامج العرض وأخذ يقلّب صفحاته. صورتان عريضتان لنجمنا ومخرجنا، ثمّ في الصفحات التالية، صور أصغر حجماً لسيلفستر بيل والممثّلين الآخرين، وبينها صورتي أنا بحجم طابع بريديّ.

- سيسعدني كثيراً أن توقّعها لي، قال لافور لسيلفستر بيل، مادّاً له البرنامج المفتوح على الصفحة حيث صورته.

- بكلّ سرور. ما اسمك؟

- لافور. تيري لافور.

وفيما كان رفيقي يكتب ببطء إهداءه: «إلى السيّد تيري لافور، مع كامل المودّة، سيلفستر بيل»، وقفنا أنا ولافور منحنيين فوق كتفه.

- شكراً.

– على الرحب والسعة، قال سيلفستر بيل، نافخاً صدره.

*

لم أشأ أن أدع أستاذي القديم ينتظرني، فعدلت عن إزالة المكياج عن وجهي. خرجنا معاً من المسرح. وكان مطر رقيق ينهمر.

– حجزت في مطعم «ليه زارم دو لافيل»، قال لافور. إنّه المكان الوحيد الذي يبقى مفتوحاً بعد الساعة العاشرة.

كنّا نمشي، هو بتلك المشيته المتصلّبة ذاتها التي كان يُعرف بها أيّام المدرسة، وأنا حانياً رأسي خشية أن يسيل المكياج تحت المطر. كان صوت الامتصاص المنبعث من نعليه ومعطفه الأصفر الشاحب يتمّمان مظهره، ليبدو أشبه بشبح.

– في أيّ فندق نزلت؟ سألني.

– فندق «لارموريك».

– وستغادر غداً؟

- أجل، في حافلة الجولة.

- ليتك تبقى لوقت أطول...

راح يمشي بخطى متسارعة، مثل دمية آليّة أُديرَ مفتاحها، وخفتُ أن أفقد أثره. في تلك الحالة، سوف يكون معطفه الأصفر وأنين نعليه الكريب المنتظم مرجعيّ الوحيدين في الظلام. انبثقت أمامنا فجأة الواجهة الزجاجيّة لمطعم فسيح مقفر. كانت مراياه وألواحه الخشبيّة ومقاعده الجلديّة تتوهّج في النور المنسكب من مصابيح داخل قناديل زجاجيّة.

- حجزت طاولة لشخصين، قال لافور بصوته الماورائيّ لرجل ذي شاربين داكنين، جالس خلف منضدة الشرب.

قام الرجل بحركة استياء بذراعه، مشيراً الى الطاولات الفارغة.

- يمكنك أن ترى بنفسك أنّ بوسعك الاختيار.

قادني لافور إلى إحدى الطاولات في عمق الصالة.

- ستكون لنا جلسة هادئة هنا، قال لي.

على مسافة، كانت سحابات من الدخان وجلبة

أصوات وقهقات تنبعث من باب مزدوج مشرّع على مصراعيه. وبين الحين والآخر، يعبر خيالٌ إطار الباب، مسلّحاً بعصا بلياردو.

- أنا أيضا ألعب هذه اللعبة أحياناً، قال لي لافور بنبرة حزينة. ليس هناك الكثير من سبل الترفيه في هذه الناحية.

كان يصعب عليّ تصوّر لافور يلعب البلياردو. كيف يمكن لشخص متصلّب مثله أن ينحني؟ أفترض أنّ جسده كان ينقصم ليشكّل زاوية قائمة، باعثاً أزيز آلة رافعة، وأنّه كان يسند ذقنه على حافّة الطاولة ليحافظ على ذلك الوضع ريثما يدفع الكرة.

- أودّ فطيرة بالبصل وسمك الأنشوفة، قال. وأنت؟

- أنا أيضاً.

- إنها فعلاً لذيذة هنا.

كان شابّ في حوالى العشرين من العمر، شعره أشقر أجعد وعيناه خضراوان، يقف أمام طاولتنا في انتظار الطلبيّة، كاتفاً ذراعيه، وهو يتأمّل لافور بنظرة ساخرة.

- ستيفان، أحضر لنا فطيرتين بالبصل والأنشوفة.

- حسناً سيّد لافور.

هزّ ستيفان رأسه بوقار، وكان ثمّة صلافة في تلك الإيماءة المبالغ بها.

- إنّه فتىً لطيف، قال لافور. يريد أن يثقّف نفسه، فأجعله يطالع كتب تاريخ. لديه ميول فنيّة، مثلك... ويودّ الانطلاق في السينما...

كانت ملامح وجهه تتشنّج. بدا واضحاً أنّ تلك المسألة كانت تهمّه كثيراً.

- ربّما ينجح في دخول مجال السينما... ألا تجد أنّ له وجه ملاك؟

كان ذلك السؤال يفضح قدراً هائلاً من القلق، إلى حدّ لم أجرؤ معه على الإجابة، وحدست أمراً غامضاً وأليماً بين ذلك الفتى ولافور.

- دعنا من كلّ ذلك، إنّني سعيد حقّاً بلقائك، إدمون.

إذن ما زال يذكر اسمي!

- كم مضى من الوقت من غير أن نلتقي؟ لنرَ... ثلاثة عشر عاماً، على ما أعتقد... ثلاثة عشر عاماً مرّت... حسناً، أنت لم تتغيّر...

- أنت أيضاً، سيّد لافور.

- آه! أنا...

أطلق تنهّدة ومسّد شعره القصير المنتصب على رأسه. بدا وجهه في ضوء مصابيح النيون الذي لا يرحم، أكثر ضموراً وترهّلاً منه في المقصورة، وكانت بشرته مجدّرة ببقع من الصدأ.

- منذ أن غادرت مدرسة فالفير وتقاعدت، وأنا مقيم هنا مع شقيقتي البكر... كان بودّي دعوتك إلى منزلنا، لكنّ شقيقتي تنام باكراً وأطباعها شكسة جدّاً...

- هل لديك أخبار عن فالفير؟

- لم يعد هناك من فالفير. بيعت الأملاك لشركة عقاريّة. وهدموا جميع المباني. هذا أمر محزن، ألا تعتقد ذلك؟

تلقّيت ذلك النبأ بلامبالاة، لكن في اليوم التالي، أثار لديّ إحساساً بالفراغ، مثل الصمت والغبار فوق جدران منهارة.

- يراسلني السيّد كوفنوفيتزين بين الحين والآخر. هو

يقيم حاليّاً في سانت جنفييف ديه بوا. هل تذكره؟
- بالتأكيد. شخص في غاية الدّماثة... كوفو...
- أجل، كوفو... وأنا، أعرف أنّكم كنتم تلقّبونني «الميت»...

كان يبتسم من غير أن يظهر عليه أثر لأيّ نقمة، يبتسم ابتسامة عريضة أشبه بتكشيرة هيكل عظميّ، وبتلك الابتسامة يثبت أنّنا كنّا على حقّ بإعطائه لقب «الميت».

أحضر الشابّ ذو العينين الخضراوين الفطيرتين.
- ألا تظنّ أنّها محمّرة أكثر ممّا ينبغي، ستيفان؟
- لا، إطلاقاً، سيّد لافور.
- ستيفان، أقدّم لك صديقاً من باريس... إنّه ممثّل... مثّل هذا المساء في المسرح البلديّ... سوف أطلب منه نصائح من أجلك.

مكتبة الرمحي أحمد

- شكراً سيّد لافور.

كان لا يزال يرمقه بنظرة وقحة جعلتني أشعر بالأسى حيال لافور.
- والآن ستيفان، دعنا نتحدّث...

ربّما كان أستاذي القديم يسعى لاستثارة غيرة الشاب

واحترامه، من خلال وجود «ممثّل» بجانبه؟

- غالباً ما أفكّر في فالفير، قال لافور.

- أنا أيضاً.

كنّا نجهد لتقطيع الفطيرتين اليابستين مثل أزهار الصخور.

- إنّهما مخبوزتان أكثر ممّا ينبغي، لكنّني لا أجرؤ على قول ذلك له... إنّني... إنّني أخاف منه.

التفت إلى الطرف الآخر من الصالة، حيث كان الشابّ.

- سأقول له إنّنا عرفنا أحدنا الآخر في باريس... إيّاك أن تذكر له فالفير...

مدرسة فالفير... كم بدت لي بعيدة في ذلك المطعم المقفر، أمام فطيرتينا المتفحّمتين، في قعر تلك المدينة الريفيّة الكئيبة حيث لم يكن لدينا أنا وسيلفستر بيل مساحة كافية لإزالة المكياج عن وجهينا... أملاك مهجورة نزورها في أحلامنا: الحديقة الفسيحة المكسوّة بالعشب والموقع المحصّن، في ضوء القمر. ومتاهة الخضرة. وملاعب كرة المضرب. والغابة. وأزهار الغار الورديّ. وضريح

أوبركامبف...

- وهل تلقّيت أخباراً عن بعض التلاميذ؟ سألته.

- وردتني قبل ستّ سنوات بطاقة بريديّة من جيم إيتشيفاريبتا. هل تذكره؟... فتى أسمر... عاد إلى بلاده في الأرجنتين...

كان ذلك النبأ يغرق لافور على ما يبدو في بحر من الغمّ.

- بلاد بعيدة، الأرجنتين...

إيتشيفاريبتا. كنّا جارين في الصفّ. وخلال حصص الرياضيّات، كان يرفع منضدته بهدوء، ويعرض عليّ صور أحصنته لرياضة البولو، الواحدة تلو الأخرى.

- وأنت إدمون؟ هل قابلت من جديدٍ تلامذة قدامى؟

- أجل، ماكفاولز... دانيال ديسوتو...

- كان إلى حدّ ما من صنف إتشيفاريبتّا... كان والده يمدّه بألف فرنك نفقة جيب في الأسبوع...

- أجل... كان هناك أشخاص عجيبون في تلك المدرسة... جميعهم يعانون اضطرابات بفعل وضعهم العائليّ... أليس كذلك إدمون؟...

كنّا عدلنا عن تناول فطيرتينا، فكنت أشعر مع كلّ لقمة وكأنّني أمضغ علكة ساخنة.

- كيف علمت أنّني أمثّل في هذه المسرحيّة؟

- أتلقّى جميع برامج الجولات، وقرأت اسمك.

اسمي المسكين المدوّن عند أسفل اللافتة بأحرف ضئيلة، أصغر بمرّتين من اسم سيلفستر بيل.

كان لافور يشدّ على ذراعي، وكانت تلك القبضة، مثل ضحكته وصوته، قبضة هيكل عظميّ.

- لطالما كنت على قناعة بأنّك سوف تعمل في المجال الفنّيّ... منذ أيّام المدرسة كنت...

كانت صيحات لاعبي البلياردو بجانبنا تطغى على صوته. استرقت النظر إلى نفسي في المرآة خلفه. لا، لم تكن لي سحنة بهلوان كما كنت أخشى. بالطبع، كان المكياج يعطيني بشرة ملوّحة مثل صاحب يخت يبحر للاستجمام، وحاجباي كانا أكثر سواداً بقليل من العادة، وقوساهما مرسومين بوضوح أكبر، لكن من غير إسراف، مع أنّني كنت آخذ بنصائح سيلفستر بيل وأتبرّج على الطريقة القديمة، مستخدماً أصابع تجميل من نوع لايشنر

الصارخة الألوان، وزبدة الكاكاو لإزالة المساحيق عن وجهي.

- عذراً سيّد لافور على المكياج، لكنّني لم أشأ أن أدعك تنتظر...

غير أنّه كان هو نفسه يبدو متبرّجاً. وبشرته كانت بيضاء مثل بشرة بييرو[1].

- لا تقلق إدمون... المكياج يناسبك تماماً...

كان يتأمّلني بنظرة ملؤها الإعجاب. لن ألاقي يوماً جمهوراً شبيهاً بأستاذ الكيمياء السابق ذاك، الذي كان يعتبر أنّني كنت منذ أيّام المدرسة... ومع انقضاء العمر شيئاً فشيئاً، نُلفينا مضطرّين للأسف للإقرار بأنّنا لن نلعب الأدوار المهمّة، بل سنكتفي بالشخصيّات الصغرى، الظّلال. لا عار على الإطلاق في أن ننتمي إلى أهل الظلّ، إلى المجهولين في تلك المهنة. غالباً ما كان رفيقي في الحجرة يردّد لي ذلك، هو الذي تخصّص منذ أكثر من أربعين عاماً في إداء أدوار صغيرة، أدوار موظّف في فندق أو كبير الخدم في مطعم. كان يعبر المسرح مثل عصفة ريح، جافّاً وأنيقاً،

(1) Pierrot شخصية من شخصيّات الكوميديا ديلّارتي الايطاليّة، يتميّز بملابسه البيضاء ووجهه المطليّ بمسحوق أبيض.

منتصباً بكامل قامته ومتجبّراً مثل وقع اسمه: سيلفستر بيل. وفي ظهوره الخاطف ذاك كان يكمن على حدّ قوله سرّ شبابه الأبديّ.

- تصوّر إدمون أنّني ما زلت محتفظاً بالترانزيستور...

انحنى لافور صوبي هامساً لي تلك الجملة. استغرق الأمر بضع ثوان حتّى أفهم ما يقول، وعندها تملّكتني ذكرى تتماوج بألوان صيفيّة وتعبق بروائح الأحراش الظليلة.

كنّا آنئذ في نهاية العام الدراسيّ. وغالباً ما كنّا في ذلك العام أثرنا صخباً وجلبة أثناء صفوف أستاذ الكيمياء، وكنّا نادمين على ذلك. فقرّرنا أن نجمع مبلغاً لتقديم هديّة له، وكلّفنا صديقنا ماكفاولز بأن يجلب لنا من الولايات المتحدة التي كان يقصدها أحياناً عديدة مع جدّته، أكثر جهاز ترانزيستور تطورّاً في تلك الفترة. قدّمناه للافور في بداية صفّ الكيمياء. غمره تأثّر شديد وعرض علينا أن نغادر الصفّ ونقوم بنزهة طويلة في غابة المدرسة.

كنّا نمشي متحلّقين حول لافور، وماكفاولز يشرح له كيف يمكنه التقاط مختلف الإذاعات الفرنسيّة والأجنبيّة.

كانت قامة ماكفاولز، في الخامسة عشرة من العمر، تقارب متراً وتسعين سنتمتراً. وكان يمارس جميع الرياضات الخطيرة، وهو ما كلّفه حياته لاحقاً. لكنّه في ذلك النهار، كان يشرح للافور بحركات خرقاء بذراعيه الطويلتين النحيلتين، كيف يستخدم الترانزيستور.

عبرنا تحت أشعّة الشمس الحديقة المكسوّة بالعشب وتبعنا ممرّاً تحيط به جنبات من الغار الورديّ. مضمار هيبير. ملاعب كرة المضرب. وولجنا الحرش...

في اليوم التالي كانت ستبدأ العطلة الصيفيّة. ما زال بوسعي سماع الأنغام المتقطّعة المنبعثة من الترانزيستور، وأصواتنا، وصوت لافور يردّد إيقاع الموسيقى، مثل تنهّدات آلة كونترباس، وضحكة ماكفاولز المدوّية...

- على فكرة، إدمون، سأطلب منك توقيعاً صغيراً أنت أيضاً، طالما أنّنا معاً...

مدّ لي لافور في حركة مباغتة برنامج مسرحيّتنا الأحمر والذهبيّ. كان مقطّباً، وكنت أرى بوضوح أنّ عينيه تدمعان، وهو ما كان أمراً غريباً في وجه الهيكل العظميّ ذاك.

كانت صورتي بجانب صورة سيلفستر بيل، لكنّها صغيرة، صغيرة للغاية... ملامحي لا تكاد تظهر فيها. كتبت: «إلى السيّد لافور، في ذكرى فالفير وتلميذه السابق، إدمون كلود».

نهضنا عن الطاولة وعبرنا قاعة المطعم، يتقدّمني لافور بمشية آلية، ومعطفه مثنيّ بعناية على ذراعه المتصلّبة. كان الشابّ الذي قدّم لنا الفطيرتين متّكئاً إلى منضدة الشرب، في وقفة ملتوية برشاقة. وكان يتفرّس في وجه لافور بالنظرة ذاتها كما من قبل، وكأنّه واثق من سلطانه عليه. خفض لافور رأسه.

كان المطر يتساقط بغزارة أكثر منه قبل العشاء. ساعدته على ارتداء معطفه الأصفر. أُطفئت جميع الأضواء داخل المطعم. لم يكن أيّ منّا يحمل مظلّة، وبقينا أنا ولافور واقفين جنباً إلى جنب من دون أن نتفوّه بكلمة، تحت السقيفة المعدنيّة أمام مدخل «لي زارم دو لافيل».

*

حسناً، تصوّر أنّني ذات مساء، عشيّة عيد الميلاد، كنت أنتظر مع ابنتيّ الصغيرتين أمام مدخل سينما «لو ريكس» حيث كان يُعرض فيلم لوالت ديزني. لم يكن هناك في صفّ الانتظار سوى أطفال مع أهلهم. لفت انتباهي على مسافة بضعة صفوف أمامنا، رجل أبيض الشعر متصلّب في وقفته. كان وحيداً، مدّثراً بمعطف أصفر وشال رماديّ مغبرّ اللون. وكان يسترق النظر إلى الأطفال حوله، وكأنّه يبحث تحديداً عن طفل يكون متفرّغاً ويمكنه الدخول في حديث معه. تلاقت نظراتنا. كان ذلك لافور.

انتفض وأشاح بوجهه، مثل رجل ضبط متلبّساً بجرم. ثمّ رأيته ينسلّ خلسة خارج صفّ الانتظار. هل كان يخشى القيام بحركة مباغتة تلفت الانتباه إليه من جديد، فيتمّ الإطباق عليه؟ هل عرفني؟ كان بودّي أن أطرح عليه هذه الأسئلة، كما يمكن أن تتصوّر، لكنّ تيري لافور كان يبتعد بمشية الشبح تلك، وسرعان ما توارى بين حشود الجادّة.

3

كلّ يوم خميس، كان جينو بوردان، أستاذنا للعزف على الغيتار، يأتي إلى المدرسة مستقلّاً حافلة بوّابة سان كلو. علمت أنّه كان في تلك الفترة يسكن حيّ مونمارتر، في الرقم ٨ من شارع أودران، لكنّ ذلك لا يجديني نفعاً، لأنّه لم يعد مدرجاً في دليل الهاتف.

كان بوردان يرتدي على الدوام بذلة زرقاء ليليّة، يزيّنها بمنديل جيب وربطة عنق فاتحة اللون من الحرير. وكان يضع نظّارتين بإطار فضّيّ رقيق، ويسرّح شعره الفضيّ أيضاً إلى الخلف، مثل كوفو. قرابة الظهر في يوم الخميس، كان يعبر ممرّ القصر مسرعاً، حاملاً بيده اليسرى الحقيبة البنّيّة التي تحتوي على غيتاره. كان يتناول الغداء في مقصف المدرسة، جالساً إلى الطاولة في عمق القاعة. لم أنجح يوماً للأسف في الجلوس إلى تلك الطاولة بقربه،

لكنّني كنت أراقبه طوال الغداء. كان يُضحِك الآخرين حوله كثيراً. كنت أعرف كلّ نوادره عن ظهر قلب. كان أوّل من أدخل غيتار هاواي[1] إلى فرنسا، وكان ذلك هو الإنجاز الذي يعتزّ به.

لم يكن هناك أيّ قاعة مخصّصة لبوردان. لم يكن يُسمح له حتّى باستخدام قاعة صفوف النظريّة الموسيقيّة، في الطابق الأرضي من «الجناح الجديد». بل أُقصي إلى مقعد خشبيّ من مقاعد الردهة، أمام الأدراج الهائلة المؤدّية إلى الطابق الأوّل من القصر. هناك كان يعطي دروسه كيفما تيسّر، في مهبّ الريح وفي النور الضعيف.

لا بدّ أنّ عدد تلاميذ بوردان الضئيل هو ما كان السبب وراء قلّة الاعتبار له تلك. فلم يكن لديه لفترة طويلة سوى تلميذين: ميشال كارفيه وأنا. لكن في نهاية الدروس، وبدفع منّي ومن كارفيه، كانت مجموعة صغيرة من الأتباع الأوفياء تتحلّق حوله بعد ظهر الخميس للاستماع إلى عزفه: إدمون كلود، وشاريل، وبورتييه،

(1) غيتار هاواي هو غيتار يوضع على الساقين ويعزف عليه أفقيّاً بواسطة أداة معدنيّة تنزلق على الأوتار، بطريقة تشبه إلى حدّ ما عزف البلوز والفولك.

وديسوتو، وماكفاولز، والعقبي، ونيومان... كان التلاميذ في عطلة عصر الخميس، فيتوزّعون على العشب وبين ملاعب الرياضة. أمّا نحن، فكنّا نفضّل رفقة بوردان.

قرابة الساعة السادسة، كان يعزف لحناً بطيئاً مؤثّراً: «هاو هاي ذي مون»[1]. كان ذلك يعني أنّ وقت الفراق حان. كنّا نرافقه أنا وكارفيه إلى موقف الباص، وقد أذن لنا بيدرو استثنائيّاً باجتياز بوّابة المدرسة مع أستاذنا والمكوث لبعض الوقت في الهواء الطلق. كنّا ننتظر ثلاثتنا على الرصيف، أمام الحديقة العامّة، فيما بوردان يداعب بيد ساهمة عنق غيتاره الذي كان يسنده إلى ساقه. كان يعانقنا واحداً تلو الآخر مستودعاً بالإيطاليّة:

- إلى الخميس المقبل، يا صديقيّ العزيزين...

ثمّ يصعد في الحافلة ويجلس دوماً في الخلف، بعدما يضع غيتاره على المقعد بجانبه. وعند عبور الحافلة حاجز السكة الحديد، كان يلوّح لنا بذراعه.

أنغام غيتار هاواي التي كان بوردان يعزف عليها توحي لي بالنسمات المنسلّة على طول جادّة مقفرة ومشمسة

(1) «ما أعلى القمر!» *How high the moon* أغنية جاز تعود إلى العام 1940.

تنحدر إلى البحر. تذكّرني أيضاً بصداقتي لميشال كارفيه، جاري في الصفّ. كنّا ننسجم بصورة جيّدة. ورغم ذلك، كان كارفيه يثير عجبي. أذكر يوم وزّعوا علينا جميعاً مجموعة أسئلة، فكان يترتّب علينا تدوين تاريخ ولادتنا ومهنة أهلنا.

بدا كارفيه متردّداً لوهلة. أطرق، سارحاً بنظره عبر النافذة. في الخارج، كانت الشمس الشتائيّة تغلّف فناء الكونفدراليّة بنور عذب ضبابيّ. رفع غطاء منضدته وبحث عن شيء ما في معجم «لاروس». ثمّ عاد وأغلق المنضدة. حسم أمره أخيراً. وفي خانة «مهنة الوالدين» دوّن بخطّ جميل تأنّى به:

«استغلال النفوذ»

*

استشرت بدوري المعجم بحثاً عن معنى تلك العبارة. كان بودّي أن يعطيني ميشال كارفيه شرحاً أوفى، لكنّني كنت أخشى أن أبدو متطفّلاً.

التقيت بوالديه عدّة مرّات، أيّام العطل، في منزله على جادّة فيكتور هوغو. بديا لي في غاية الرقيّ. كان الدكتور جينيا كارفيه طويل القامة ممشوقاً، يوحي بالشباب بسبب عينيه الفاتحتي اللّون. زوجته كان شعرها أشقر نحاسيّاً، ووجهها أشبه بوجه لبوة وعيناها فاتحتي اللّون مثل عيني زوجها. وكانت تتنقّل بمشية متوانية ورياضيّة مثل مشية بعض الأميركيّات.

للوهلة الأولى، لم تكن كلمتا «استغلال النفوذ» اللتان بقيتا مدوّنتين في ذاكرتي بخطّ ميشال كارفيه الواضح والدقيق، تنطبقان على هذين الزوجين.

تسنّى لي أن أراقبهما بشكل أفضل خلال نزهة قمنا بها في غابة بولونيا. كان ذلك في عصر يوم سبت من فصل الخريف. سماء رماديّة، وجوّ يعبق برائحة العشب والتربة البليلة... كانا يسيران جنباً إلى جنب أمامنا، وكان خيالا الدكتور كيرفيه وزوجته الأنيقان يقترنان في ذهني بكلمات من قبيل حملات صيد، ومزارع طيور تَدرُج، وطواقم صيد.

عبرنا منتزه باغاتيل، ثمّ سلكنا الطريق إلى الأسفل

وصولاً إلى ملعب البولو. كان الليل يهبط. ثمّة ما أذهلني لدى والدَي ميشال: لم يكونا يوجّهان إليه الكلام، بل حتّى يبديان لامبالاة تامّة حياله. لاحظت كذلك كم كانت ملابس رفيقي تتباين مع ملابس الدكتور والسيّدة كارفيه. كان يرتدي بنطالاً من المخمل مرتوقاً، وسترة بليزر قديمة فضفاضة عليه. ولا معطف. وفي قدميه، صندلين من المطّاط. في المدرسة، أعطيته زوجين من الجوارب، لأنّ جميع جواربه كانت مثقوبة. مكتبة الرمحي أحمد

لاحقاً، في سيّارة الدكتور كارفيه الضخمة السوداء- لم يكن يعتني إطلاقاً بتلك السيّارة التي كان هيكلها ملطّخاً بالوحل-، جلسنا أنا ميشال على المقعد الخلفيّ. وكان الدكتور كارفيه يدخّن خلف المقود. وبين الحين والآخر، يتبادل مع زوجته كلاماً مقتضباً. كانا يتحدّثان عن أشخاص يعرفهم رفيقي حتماً.

- سوف نخرج هذا المساء ميشال، قالت السيّدة كارفيه. تركت لك شريحة من الجمبون في البرّاد.

- نعم أمّي.

- هل هي كافية؟

- نعم أمّي.

قالت ذلك بصوت شارد، جافّ بعض الشيء، ومن غير أن تلتفت إليه.

*

استغلال نفوذ. احتفظت بورقة زرقاء يعلوها اسم الدكتور جينيا كارفيه، «اختصاصيّ الأنف والأذن والحنجرة، 12 جادّة فيكتور هوغو، الدائرة السادسة عشرة، باسّي 38–80»، وصف لي عليها بخطّ حازم بعض الأدوية. فحصني ذات مساء، حين قال له ميشال أنّني أشعر ببعض التوعّك. أبدى لي في عيادته تلك اللامبالاة اللبقة ذاتها التي كان يظهرها لنا عادة أنا وابنه. لاحظت على رفوف المكتبة صوراً تحمل تواقيع، معظمها معروضة في أطر جلديّة. اقتربت في حركة لا تكاد تكون ملحوظة من تلك الصور حتّى أتأمّلها بشكل أفضل.

- مريضات هنّ أيضاً صديقات، قال لي الدكتور كيرفيه رافعاً كتفيه، وسيجارته تتدلّى عند طرف شفتيه.

*

استغلال نفوذ. غداة اليوم الذي ردّ فيه ميشال بتلك الطريقة العجيبة على استمارة الأسئلة، رأينا من نافذة صفّنا سيّارة الدكتور كارفيه السوداء تعبر فناء الكونفدراليّة، وتنعطف يساراً نحو الممرّ المؤدّي إلى القصر. كانت تلك أوّل مرّة يزور الدكتور كارفيه مدرستنا. قبل ذلك، لم يكن والدا ميشال حضرا مرّة لاصطحاب ابنهما أو لإعادته في أيّام التسريح من المدرسة. كان يستقلّ الحافلة مثلي حتّى بوّابة سان كلو. وبعدها يصعد في المترو.

لم يرفّ لرفيقي جفن. بل تظاهر حتّى بأنّه لا يعير أيّ اهتمام لسيّارة والده. وبعد لحظات، دخل ناظر الصفّ، مقاطعاً درس اللغة الإنكليزيّة.

– كارفيه، السيّد المدير يودّ التحدّث إليك. إنّه برفقة والدك.

نهض ميشال بقميصه الأزرق القديم وصندليه. وتبع الناظر بمشية متصلّبة، كمن يقتادونه إلى حبل المشنقة.

*

لا شكّ أنّهم عرضوا على الدكتور جينيا كارفيه استمارة الأسئلة التي ملأها ميشال. ترى ما الذي قاله الأب والابن أحدهما للآخر في مكتب مديرنا، السيّد جانشميت؟ لم أحقّق في الأمر إلّا بعد وقت، بعد وقت طويل. كنت فقدت أثر ميشال منذ زمن بعيد، ولم أكن أعرف شيئاً عن مصيره، ولا عن مصير والديه. في جادة فيكتور هوغو، لم يبق أثر للدكتور جينيا كارفيه.

استغلال نفود. استجوبت بعض الأشخاص، واستشرت صحفاً قديمة تبعث رائحة تذكّرني برائحة ذلك السبت من فصل الخريف، حين قمنا أنا وميشال بنزهة في غابة بولونيا برفقة والده ووالدته. وفي طريق العودة، أوقف الدكتور كارفيه السيّارة في نويّي، عند زاوية جادّة مدريد.

- حسناً، سوف نترككما هنا. علينا أن نلاقي أصدقاء في الحيّ.

فتح ميشال باب السيّارة بصمت.

- لا تنسَ... شريحة الجمبون في البرّاد... قالت السيّدة كارفيه بصوت متعب.

بقينا برهةً مسمّرَين بلا حراك، نتابع بنظرنا السيّارة وهي تبتعد في اتّجاه حيّ سان جيمس.

– لا أملك تذاكر مترو، قال لي ميشال. وأنت؟

– ولا أنا.

– أدعوك إن شئت لتقاسم شريحة الجمبون.

قهقه بالضحك. كان هذا القسم من الجادّة مظلماً، وكنّا نصطدم بكوم من أوراق الأشجار المتساقطة، مكدّسة في وسط الرصيف. وكلّما اقتربنا من جادّة نويّي، انقشعت الرؤية أكثر. أضواء عند النوافذ وواجهات مطاعم تتلألأ أنواراً. باتت أوراق الأشجار المتساقطة تفرش على الرصيف بساطاً كثيفاً يلتصق بكعوب الأحذية. كانت رائحتها المريرة تشبه رائحة الصحف القديمة التي نقلّب برفقٍ صفحاتها السريعة الانقصام، واحدة واحدة، عكس الزمن، محاولين العثور فيها على صفحة، على اسم، على أثر مطمور لشخص ما.

*

مقالة صغيرة على عمود واحد عند أسفل الصفحة. الزوجان كارفيه ماثلان أمام محكمة الجنح. ربّما كان ميشال على علم بالأمر. جرت المحاكمة بعد ولادته بسنتين. عثروا عند آل كارفيه على قطع أثاث ولوحات ومجوهرات مشبوهة المصدر. وحُكم على «الزوجين» بالسجن مع وقف التنفيذ، وبغرامة قدرها عشرون ألف فرنك بتهمة «إخفاء مسروقات». وذكر التقرير أنّ السيّدة كارفيه كانت ترتدي لتلك المناسبة فستاناً أزرق فيروزيّاً ضيّقاً يلتصق بجسدها وحزاماً أبيض جلديّاً، لكن عليّ أن أقرّ بأنّه لم يتمّ مرّةً استخدام عبارة «استغلال النفوذ» بشأن الدكتور وزوجته.

*

هل كان أولئك الأشخاص هم عينهم الذين عرفتهم، والذين تنزلق خيالاتهم الرقيقة الأنيقة في ذاكرتي؟

انتهى بي الأمر في حانة على جادّة مونتينيه كانت في ما مضى مقصداً لطالبي الملذّات وهواة ركوب الخيل. وكان من المحتمل أن أحصل على معلومات من أحد روّادها

السابقين، رجل خالط «الجميع» على مدى خمسين عاماً.

ما إن تلفّظت باسم السيّدة كارفيه حتّى رقّت نظرته، وكأنّ ذلك الاسم يذكّره بشبابه أو بشباب والدة رفيقي القديم.

- تعني «أندريه البغيّ»؟ سألني خافضاً صوته.

*

كنّا أنا وميشال جالسين أحدنا قبالة الآخر في المقهى على جادّة فيكتور هوغو، في مواجهة المبنى حيث يقطن والداه. لم يكن عاد إلى منزله منذ بداية عطلة عيد الفصح. كان أحد رفاقنا في الصفّ، شاريل، يؤويه عنده.

كان لا يزال يرتدي سترته القديمة الفضفاضة عليه، وبنطاله المخمل المرتَّق، وقميصاً تنقصه عدّة أزرار.

- يمكنك الانطلاق الآن، قال لي.

- هل أنت واثق من أنّك لن تبدّل رأيك؟

- لا. هيّا، إنّني بانتظارك.

نهضت وخرجت من المقهى. عبرت الشارع، وعند

الولوج تحت سقيفة الرقم 12، شعرت بقلبي يخفق بقوّة. غاب عن ذهني الطابق واستشرت القائمة المعلّقة على باب الناطور الخشبيّ.

الدكتور جينيا كارفيه. الطابق الثاني، إلى اليمين.

قرّرت عدم استخدام المصعد، وتسلّقت الأدراج، متوقّفاً في استراحات مطوّلة عند كلّ بسطة. وحين وصلت إلى ردهة الطابق عند الزوجين كارفيه، بقيت بضع دقائق بلا حراك، مستنداً إلى الدرابزين مثل ملاكم متّكئ إلى حبال الحلبة قبيل انطلاق المباراة. قرعت الجرس أخيراً.

فتحت لي السيّدة كارفيه. كانت ترتدي «تايوراً»[1] منقّشاً بالأسود والأبيض، وقميصاً أسود يبرز شقرة شعرها. لم يظهر عليها أنّها فوجئت برؤيتي.

- جئت لإحضار أغراض ميشال، قلت لها.

- آه حسناً... ادخل...

لا شكّ أنّه اتّصل بها ليبلغها بزيارتي. أم أنّها لم تكن تكترث ربّما لمصير ابنها؟ عبرنا المدخل. كانت حقيبة

---

(1) بذلة نسائيّة تتكوّن من سترة وبنطال أو من سترة وتنّورة من القماش ذاته.

غولف مرميّة أرضاً.

دفعَت باباً في أوّل الرواق.

- ها هي... من هنا... لا بدّ أنّ أغراضه في الخزانة... سوف أتركك لحظة.

ابتسمت لي ابتسامة فاتنة وتوارت. كنت أسمع صوت الدكتور كارفيه في مكان قريب. كان يتكلّم مطوّلاً من غير أن يجيبه أحد. كان يواصل على الأرجح حديثاً على الهاتف.

كانت غرفة ميشال ضيّقة إلى حدّ يتساءل من يدخلها إن لم تكن بالأساس تستخدم كحجرة لتخزين المهملات. كان فيها نافذة عريضة، غير متناسبة مع حجم ذلك الوكر. ألصقت جبيني بالزجاج الذي لم يكن يرشح منه سوى نور أشبه بغبش الغسق، رغم أنّه في الخارج، كانت الساعة الثانية من العصر، وكان النهار مشمساً. كانت تلك النافذة تطلّ على فناء ضيّق كبئر.

في تلك الشقّة الشاسعة التي جال بي ميشال عليها في غياب والديه، لماذا أُعطي تلك الغرفة الضيّقة للغاية؟ كان ميشال يدّعي أنّه اختارها بنفسه.

لا ملاءات على السرير القابل للطيّ، بل مجرّد غطاء ذي مربّعات اسكتلنديّة. كان ميشال طلب منّي جلبه له. فتحت الخزانة، ووضّبت ملابسه في حقيبة الرياضة المدرسيّة الكحليّة. بضعة جوارب قديمة، وسروال سباحة، ومحرمة، وكنزتان، وثلاثة قمصان. كانت القمصان مرتّقة مثل بنطاله المخمل، والملفت فيها أنّها كانت تحمل على طيّة ياقتها علامة مصمّم أزياء شهير. الواقع أنّها كانت قمصاناً قديمة لوالدته. كان والدا ميشال يُلبسانه ثيابهما القديمة، وسترته البليزر الفضفاضة والرثة إلى حدّ تتراءى خيوط حبكتها، كانت لوالده في السابق، وهي أيضاً من صنع خيّاط شهير في شارع ماربوف.

كنت لا أزال أسمع صوت الدكتور كارفيه الرتيب على الهاتف. وبين الحين والآخر، يقهقه ضاحكاً. فُتح الباب الموارب، وأطلّت السيّدة كارفيه.

- إذن... هل تتدبّر أمرك؟

كانت تحيطني بابتسامتها. كان المصباح المتدلّي من السقف يسكب نوره العاري على وجهها، فتطفو بقع من النمش على سطح بشرتها. أدرك الآن ما الذي كان

يؤثّر في نفسي لدى تلك المرأة: مزيج من الاستهتار والخمول، يرتبط في ذهني بالقرن الثامن عشر الفرنسي، بأقمشة الساتان، والبلّور، وتلك الصبغة المعروفة بشقرة فراغونار[1].

- هل وجدت كلّ ملابس ميشال؟

- أجل.

كانت تتأمّل الحقيبة الرياضيّة.

- كان يجدر بي أن أعطيك حقيبة سفر... هل تعتقد أنّ ميشال لم يعد ينوي العودة إلى المنزل نهائيّاً؟

- لا أعلم.

- في مطلق الأحوال، قل له إنّنا نرحّب به هنا في أيّ وقت.

حملْتُ الحقيبة الرياضيّة وعلّقتها بكتفي.

- خذ هذا.. أعطه لميشال... قليل من مصروف الجيب.

مدّت لي ورقة مائة فرنك مدعوكة.

- لطالما كان على هذا النحو، قالت لي السيّدة كارفيه

(1) Jean Honoré Fragonard (1732–1806) من كبار الرسّامين الفرنسيّين من القرن الثامن عشر.

بصوتٍ ناءٍ، وكأنّها على قناعة بأن أحداً لن يستمع إلى كلامها، وأنّها تخاطب نفسها فحسب. حين كان طفلاً، كنت أصطحبه معي إلى مطعم لو بري كاتولان، وفي كلّ مرّة كان يختبئ... أحياناً كنت أقضي ساعة كاملة للعثور عليه... مسكين صغيري ميشال...

كانت تتقدّمني في الرواق. وكان الدكتور كارفيه يتكلّم على الهاتف، مطلقاً صيحات تعجّب بلغة أجنبيّة.

خرجتُ إلى بسطة الدرج. كانت متردّدة قبل إغلاق الباب.

- إلى اللّقاء...

مدّت لي يدها.

كان يجدر بي أن أقبّل يدها، لكنّني اكتفيت بمصافحتها.

- إلى اللّقاء... جينيا مشغول في مكتبه، لكن لا تنسى أن تقول لميشال إنّ والده يرسل له قبلات حارّة... وأنا أيضاً...

انحدرت مسرعاً على الأدراج، متلهّفاً للعودة إلى الهواء الطلق، تحت الشمس.

كان ميشال ينتظرني على رصيف المقهى، كاتفاً ذراعيه. ناولته الغطاء الاسكتلنديّ المربّعات وحقيبة الرياضة التي سارع إلى الكشف على محتواها.

– نسيتَ «العودة إلى أيّام الهناء»، قال لي.

كان ذلك رسماً قصصناه في مجلّة قديمة عثرنا عليها في قعر حجرة المهملات في «الجناح الأخضر». كانت المجلّة صادرة في العام والشهر اللذين ولدنا كلانا فيهما: يوليو، العام ألف وتسعمائة وخمسة وأربعين. وكان الرسم دعاية لمشروب البورتو «أنتونا». فيه امرأة شقراء تلفّ رأسها بوشاح، تظهر جانبيّاً جالسة في مركب. وفي الأفق، بحيرة وجبال وشراع أبيض. وفوق ذلك المشهد، بأحرف كبيرة نحيفة:

العودة إلى أيّام الهناء

كان ما في تلك الكلمات وذلك الرسم من حنين وعذوبة مشمسة يثير عجبنا، أنا وميشال. وحين سألنا بوردان عن رأيه في المسألة، استخرج من غيتاره بضع نغمات ذاوية متيّمة. أمّا ميشال، فكان عازماً على كتابة رواية كاملة،

مستلهماً المرأة ذات الوشاح، والبحيرة، والجبال. سيكون عنوانها: «العودة إلى أيّام الهناء».

- كنت خبّأته في منضدة الليل، قال لي خائباً. لكن لا يهمّ...

- تريدني أن أصعد من جديد لجلبه؟

- لا، لا... لا داعيَ لذلك. إنّه مطبوع في ذهني... المهمّ أن يأتي يوم أكتب فيه الرواية...

وضع ورقة المائة فرنك على سطح الطاولة.

- تقول لك والدتك أنّك إن أردت العودة...

تظاهر بأنّه لا يسمعني. في الخارج، على الرصيف المقابل، كان الدكتور كارفيه يسير بين بقع الشمس، جارّاً حقيبة الغولف. ثمّ رأيت السيّدة كارفيه تخرج بدورها من المبنى. كانت تضع نظّارتين شمسيّتين تتباينان مع لون بشرتها. بشرة امرأة شقراء. رأيت الدكتور يفتح باب السيّارة الخلفيّ ويلقي حقيبة الغولف بحركة منهكة على المقعد. ثم رأيته يجلس خلف المقود، فيما تنسلّ السيّدة كارفيه بحركاتها المتكاسلة بجانبه. وتنطلق السيّارة ببطء.

- إنّهما ذاهبان إلى مورتفونتين، قال ميشال.

لم يكن في صوته أيّ ملامة، بل على العكس، ما يشبه الأسف.

حاولت للمرّة الأخيرة خلال رحلتنا في المترو أن أثنيه عن قراره. كان زوّر وثيقة ولادته بقلم التصحيح حتّى يزيد عمره ثلاث سنوات. أجل، كان حسم أمره. بعدها، توجّهنا في القطار إلى أتيس مونس، حيث مكتب التجنيد.

كيف وصل هذا الكتاب إليك.. من موقع الكتروني؟

هل واجهت صعوبة في التحميل وإعلانات ورسائل مزعجة ؟

بإمكانك الحصول على الكتب والروايات بروابط تحميل مباشرة وآمنة

ابحث في فيسبوك عن صفحتنا وتابعنا ..

مكتبة الرمحي أحمد

قدمنا للقارئ ما يقارب من ١٠٠ كتاب ورواية من بينها هذا الكتاب

نرجو دعم الصفحة .. حتى نستمر معكم

ونقدم لكم كل جديد

4

من بين جميع أساتذتنا، لعلّ كوفو أكثر من كان راضياً عنّا. كانت الرياضة مادّة يوليها مديرنا، السيّد جانشميت، اهتماماً كبيراً. وكنّا نخصّص لها عصر ثلاثة أيّام في الأسبوع.

غالباً ما كان بيدرو يحضر حصص كوفنوفيتزين. وكان هو وكوفو يكنّان أحدهما للآخر صداقة كبيرة. وكانا لهما الأذواق ذاتها. يُقال إنّه حين أنشأ شقيقا بيدرو الأكبران المدرسة، تكفّل الأخير فيها بوظيفة أستاذ الرياضة.

كان الهوكي على العشب رياضة المدرسة التقليديّة. وكان بيدرو يتولّى بنفسه تشكيل الفرق، ويسهر على تدريبها. لكنّه كان لدينا أيضاً حوض سباحة أقيم عند أطراف الحديقة المكسوّة بالعشب. وإن ولجنا أبعد في المنتزه، اكتشفنا مضمار سباق العدو، وميدان القفز بالزانة،

وملعب الكرة الطائرة، وملعبي كرة المضرب، وصولاً أخيراً إلى ما كان كوفو والسيّد جانشميت يطلقان عليه اسم «مضمار هيبير»، تكريماً لشخص يُدعى هيبير، ابتكر نهجاً للتربية البدنيّة كان كلاهما من أتباعه.

«مضمار هيبير» ذاك كان مصمماً طبقاً لخطط وضعها جانشميت وكوفو قبل ذلك بحوالى عشر سنوات. كان أشبه بسباق شاقّ تتخلّله سلسلة من الحواجز المتنوّعة: جدران ينبغي تسلّقها، وحبل كنّا نرتقيه رافعين أرجلنا أفقيّاً، وعوائق وأقواس يتحتّم علينا اجتيازها زحفاً على مرافقنا، وأحصنة خشبيّة للقفز والتمارين البهلوانيّة... في الربيع، كنّا نقوم في الصباح الباكر بما يدعوه كوفو «مسار هيبير»، قبل أن نتوجّه عدواً لحضور مراسم رفع العلم.

كانت تلك النشاطات اليوميّة في الهواء الطلق تؤتي ثمارها. ففريقنا للهوكي على العشب بلغ مستوى وطنيّاً للفتيان، وكان بوسع رياضيّينا في القفز بالزانة أن يتحدّوا لاعبي فريق فرنسا. كان كوفو يحصل من جانشميت على تخصيص ساعات إضافيّة للرياضة على حساب دروس أخرى. وأقول لنفسي إنّ بيدرو كان على حقّ بمنحه ذلك

الامتياز. فكانت الرياضة بالنسبة للعديد منّا ملاذاً، وسيلة تتيح لنا أن ننسى لبعض الوقت ما نواجهه من صعوبات، وعلى الأخصّ بالنسبة إلى رفيقنا روبرت ماكفاولز.

ماكفاولز ذاك كان يحظى بإعجاب كوفو. كان في سنّ الخامسة عشرة كابتن فريق الهوكي، وكان يمارس بالمهارة ذاتها التزلّج والسباحة وكرة المضرب. سكنّا أنا وبوب لسنة في الغرفة ذاتها، في «الجناح الأخضر»، وربطتنا صداقة كبيرة.

قضى في نهاية الأمر في حوالى الثلاثين من عمره، خلال مباراة بطولة في الزلّاجة الجماعيّة في سويسرا، لكن كان تسنّى لي أن ألاقيه من جديد. لا بل كنت بالصدفة شاهداً على شهر عسله. كان في حينه تزوّج للتوّ في فرساي من فتاة من تلك المدينة، ولم يدرِ الزوجان أين يذهبان في رحلة شهر العسل، فاختارا فندقاً قريباً من قصرَي تريانون[1] لقضاء شهر أغسطس فيه.

كان القيظ شديداً في ذلك الصيف، وكان ماكفاولز

(1) Les Trianons قصران ملكيّان يعرفان بقصر تريانون الأكبر وقصر تريانون الأصغر في فرساي.

وزوجته يتشمّسان، ممدّدين على العشب في منتزه الفندق. كانت آن ماري، السيّدة ماكفاولز الحديثة العهد، ترتدي ثوب سباحة أحمر قانياً، فيما يرتدي ماكفاولز سروال سباحة بنقشة جلد النمر، ذكّرني بفالفير. كنّا في تلك الأيّام معجبين بسراويل السباحة تلك على طراز طرزان، وكنّا بمعظمنا نرتدي سراويل سباحة مماثلة على حافّة حوض المدرسة، حوض غريب عجيب مليء بمياه داكنة آسنة، كنّا نصبغها بواسطة أزرق الميثيلين لتبدو شبيهة بمياه المتوسّط. وكنّا نصلح مِقفز الغطس المتداعي كيفما تيسّر.

تعرّف بوب ماكفاولز على الفتاة التي ستصبح زوجته قبل ذلك ببضعة أشهر، في منتجع للرياضات الشتويّة. كانت تعمل في مكتب الاستقبال في أحد الفنادق. كان حبّاً من النظرة الأولى. تمّ زفافهما في فرساي، حيث كان لوالد آن ماري متجراً في شارع كارنو.

كانت فتاة متوسّطة القامة، شعرها أشقر وعيناها زرقاوان كبيرتان. حسنها البارد كان يذكّرني بالنساء في بعض لوحات القرن الثامن عشر، مثل لويز دو

بولاسترون[1]. كانت آن ماري فرنسيّة أصيلة، حتّى العظم، وكان ذلك يولّد تبايناً متناغماً مع مظهر بوب ماكفاولز الفظّ بعض الشيء، بقامته الطويلة ومشيته المتثاقلة والخرقاء في آن.

كانت عائلة بوب تقتصر على جدّة أميركيّة، السيّدة ستراوس، مبتكرة مستحضرات التجميل «هارييت ستراوس». حين كنّا في فالفير، كان يغادر المدرسة لقضاء عطلتي عيد الميلاد وعيد الفصح معها في الكوت دازور[2]، وبمناسبة العطلة الصيفيّة، كانت تصطحبه إلى أميركا. أمّا في باقي السنة، فلم يكن بوب يبارح المدرسة، حتّى خلال الأيّام التي يؤذن لنا فيها بالخروج. وفي كلّ أسبوع، كان يتلقّى رسالة من جدّته، وعلى الظرف الرمليّ اللون الداكن، طبع اسمه بأحرف حمراء على الآلة الكاتبة.

في تلك الفترة، كانت مستحضرات «هارييت

---

(1) Louise de Polastron (1764–1804) كانت وصيفة لملكة فرنسا ماري أنطوانيت وعشيقة أحد أبناء الملك لويس الرابع عشر.

(2) Côte d’Azur أو ساحل اللّازورد منطقة تقع على ساحل جنوب شرق فرنسا على البحر المتوسط، فيها الكثير من المنتجعات السياحية التي تلقى إقبالاً كبيراً. ومن أبرز مدنها كان ونيس ومرسيليا وسان تروبيه.

ستراوس» تعرض في واجهات محلّات العطور، وكنت أتأمّلها بإعجاب، وأنا أفكّر في رفيقي في الصفّ. تلك المستحضرات توارت الآن، لكن في صيف شهر العسل الذي قضاه ماكفاولز، كانت أصابع أحمر الشفاه ومساحيق التجميل «هاريت ستراوس» لا تزال معروضة على الرفوف، بمحاذاة المستحضرات المنافسة من «ماكس فاكتور» و«إليزابيت آردن». وكانت تؤمّن إيرادات مريحة لبوب الذي تنازلت له جدّته يوم بلوغه الحادية والعشرين عن حصّتها كاملةً في مستحضرات «هاريت ستراوس».

كنّا إذن ممدّدين على العشب، أنا وبوب وآن ماري، في ملابس السباحة، وكان ماكفاولز يرتشف كوباً من شراب البرتقال بالقشّة.

- خسارة! قال. الأمر الوحيد الذي يفتقر إليه هذا المكان هو البحر...

الواقع أنّ واجهة الفندق البيضاء، والطاولات التي تعلوها مظلّات حمراء، والواجهات الزجاجيّة على طول الرواق وستائرها من الكتّان البرتقاليّ، كلّ ذلك كان يتّخذ في الشمس حلّة منتجع ساحليّ.

- ألا تجد يا صديقي أنّه لم يعد ينقصنا سوى البحر؟

لم أعر في حينه الكثير من الاهتمام لملاحظة ماكفاولز تلك، ولا لملامحه الساهمة، لكن انطلاقاً من ذلك العصر، بدأ «الغمّ» - لا يسعني إيجاد كلمة أخرى- يرخي بثقله علينا.

رغم ذلك، كان ماكفاولز في مزاج مرح أثناء غداء تناولناه على سطيحة الفندق. كان دعا حماه السيّد لوبون، رجل شائب الشعر ذو شاربين، فرنسيّ قحّ هو أيضاً، وجهه رقيق الملامح، وكأنّه مرسوم بريشة كلويه[1]. كان يهاب ماكفاولز، ويكلّمه مشدّداً بوضوح على كلّ لفظة يتلفّظ بها، وكأنّه يكلّم أجنبيّاً. غير أنّه اطمأنّ شيئاً فشيئا لطيبة بوب ودماثته. طرح عليه رفيقي أسئلة حول عمله، واستمع إليه باهتمام. ذلك كان تماماً روبرت ماكفاولز الذي عرفته في فالفير، فتى مزاجيّ، غير أنّه قادر على الاكتراث للآخرين والفوز بقلوبهم بفضل نظرته الودودة ومراعاته لهم. بدت آن ماري مسرورة للانسجام بين والدها وبوب.

---

(1) François Clouet (1520–1572) رسّام فرنسي من عصر النهضة.

قدّموا لنا القهوة. أشار ماكفاولز بحركة رحبة بذراعه إلى عرض السطيحة حيث كنّا جالسين وحيدين، والمنتزه المكسوّ بالعشب.

- أجد أنّ هذا المكان ينقصه شيء، قال لوالد آن ماري. احزر ما هو أبي...

ارتسمت ابتسامة خجولة على وجه لوبون.

- لست... لا أرى ما هو...

لا بدّ أنّ آن ماري كانت لا تزال تذكر كلام بوب في اليوم السابق، فقهقهت ضاحكة. حين أسترجع المجرى الذي اتّخذته الأحداث لاحقاً، يجفل قلبي لتلك الضحكة.

- بلى، هذا المكان يفتقر إلى شيء، قال ماكفاولز بصوت رزين.

- احزر أبي... أصرّت آن ماري.

كان لوبون مقطّباً.

- لا... حقّاً... لست أدري.

- ينقصه البحر، قال ماكفاولز بنبرة واجمة باغتتنا ثلاثتنا.

- فعلاً، قال لوبون. إنّه الطقس المثاليّ لنكون على شاطئ البحر...

- لكن للأسف، لا بحر في فرساي، أجاب ماكفاولز.

بدا وكأنّ إحساساً بالإحباط استولى فجأة عليه. رمقني لوبون بنظرة مستفسرة.

- بوب مولع بالبحر، تمتمت.

ظهر الإحراج على آن ماري.

- إنّنا مصمّمون في مطلق الأحوال على الذهاب إلى شاطئ البحر في نهاية الشهر، قالت.

لكنّ بوب كان في هذه الأثناء رفع رأسه، وانشرحت ملامحه في ابتسامة أشبه بابتسامة طفل.

- لا يمكننا أن نطلب المستحيل، أليس كذلك أبي؟

بعد بضعة أيّام، توقّفت سيّارة أميركيّة قديمة مكشوفة لونها أخضر عند طرف المنتزه، وسط صرير الحصى تحت دواليبها. كانت تلك سيّارة ماكفاولز، وقد جلبها له صديقان من باريس. قدّمهما لي: جيمس مورانز، فتى بعمرنا، شعره أشقر ينتصب قصيراً على رأسه، سويسريّ الجنسيّة، كان شريك بوب في بطولة الزلّاجة الجماعيّة التي

كان صديقي يشارك فيها كلّ شتاء، وإدوار عَجَم، أسمر قصير القامة في حوالى الخمسين من العمر. لم أعرف يوماً ما إذا كان لبنانيّاً أو مصريّاً، أو ربّما بكلّ بساطة من شوامّ مصر[1]، ما يفسّر لغته الفرنسيّة المتقنة واسمه المسيحيّ. كان عجم شكّل فرقة موسيقيّة على ساحل الكوت دازور. تعرّف عليه ماكفاولز في جنيف، في وقت كان فيه مساره الفنّيّ في أفول.

كان الرجلان طفيليّين يحومان حول بوب، لكنّ آن ماري، في براءتها، لم تساورها أيّ شكوك في الأمر. كانا يحيطان برفيقي باستمرار، وكأنّهما حارسان شخصيّان أو مهرّجان. في بادئ الأمر، استلطفتُ ضحكة جيمس مورانز، والندبات على وجهه، وطريقته في التربيت على كتفي، أو التأهّب والالتفاف حولي، متوثّباً على طريقة ملاكم. كما كنت أستطيب دماثة إدوار عجم. أسرّ لي بوب بأنّهما صديقاه، مستخدماً تعبيراً بالإنكليزيّة.

(1) كانت تسمية «شوامّ مصر» تُطلَق كما هو معروف على مسيحيّي سوريا ولبنان المهاجرين إلى مصر هرباً من الرقابة العثمانية. وقد أسّس بعضهم في مصر صحفاً ومجلّات وساهموا في نهضة الأدب العربيّ، ومن أبرز أعلامهم الروائيّان فرح أنطون وجرجي زيدان والشاعر خليل مطران.

كان يمكن للأمور أن تتبع مجرى مختلفاً، وللأيّام أن تتعاقب وسط خلاء البال، لولا مسألة البحر تلك. كان ماكفاولز يتكلّم عن البحر بلا توقّف.- ألم ترَ البحر؟- إنّني واثق من أنّه وقت المدّ الآن.- ترى ما لون البحر اليوم؟- ألا تشمّ رائحة بحر في الجوّ؟ وراح مورانز وعجم على الفور يزايدان في المسألة، حرصاً منهما على كسب رضا بوب. فأخذ عجم يغنّي لنا أغنية «البحر» لشارل ترينيه[1]، مرافقاً اللحن بالنقر على غيتار. أمّا مورانز، فجزم أنّ البحر يبدأ عند أسفل سطيحة الفندق، وأراد أن يستعرض لنا غطساته. كان يرتدي هو أيضاً سروال سباحة مرقّطاً مثل جلد النمر. واقفاً على الدرابزين، كان يأخذ نفساً عميقاً نافخاً صدره، ثمّ يغطس حانياً رأسه إلى الأمام صوب العشب، وفي اللحظة الأخيرة، يعود ويدفع وركيه إلى الأمام، مقوّما وقفته. كان ماكفاولز يسأله:

- هل المياه باردة؟

- لا، إنّها جيّدة هذا الصباح، يجيب مورانز وهو

(1) *La Mer* «*البحر*» واحدة من أشهر أغاني المغنّي الفرنسيّ شارل ترينيه Charles Trenet (1913–2001).

ينتفض ويملّس شعره وكأنّه خارج من غطسة. حرارة هذا البحر مثاليّة.

لو راقب أحدٌ ما يجري بشكل سطحيّ، لَظنّ الأمر مجرّد دعابة، غير أنّه كان رغم ذلك سيشعر بقدر من القلق يوم اعتبر مورانز أنّ درابزين السطيحة منخفض أكثر من أن يصلح للغطس، فقرّر أن يقفز من أعلى الرواق، عند مدخل الفندق. تلك المبادرة أثارت حماسة ماكفاولز وإدوار عجم، ولم نجرؤ أنا وآن ماري على التفوّه بكلمة.

- يمكنك الانطلاق بلا خوف، قال ماكفاولز. البحر عميق في هذا الموقع...

تسلّق مورانز المسطبة التي كان يزيد علوّها عن ثلاثة أمتار، مستعيناً بسلّم صغير. وكان عجم يدندن لحن «البحر»، من غير أن يبدي أيّ انفعال. أمّا البوّاب وأحد خدّام الفندق، فكانا يتابعان المشهد، مفتونين.

- سوف أؤدّي لكم قفزة الملاك، أعلن مورانز.

التوت ملامحه في ابتسامة تحدٍّ. كان ماكفاولز روى لي أنّ جسارته خلال مباريات بطولة الزلّاجة الجماعيّة في سان موريتز جعلته يكسب لقب «جيمس الانتحاريّ».

- هيّا، قال ماكفاولز. انحسر الموج. حوض سباحة حقيقيّ. دعنا نرى قليلاً كيف تقفز قفزة الملاك.

واقفاً مستقيماً بصلابة على درابزين الرواق، شادّاً شفتيه، أخذ مورانز نفساً عميقاً. وفي اندفاعة خاطفة، قذف نفسه في الجوّ، مشرّعاً ذراعيه. خلناه سيتحطّم أرضاً، لكنّه في أقلّ من ثانية ثنى ركبتيه لصق بطنه، وسقط على العشب الطريّ متكوّراً في وضعِ بيضة، ذلك الوضع الذي جسّده على أفضل وجه في مطلَع الستّينيّات المتزلّج فوارنيه[1]. رحنا نصفّق له. وحده ماكفاولز لم يحرّك ساكناً.

- في المرّة المقبلة، قال بجفاء، سوف تقفز من موقع أعلى، وحين يكون البحر مائجاً.

اعتباراً من ذلك اليوم، بات «جيمس الانتحاريّ» يغطس كلّ صباح. قفزة بثني الساقين تارةً من طاولة نصبها على سطيحة الفندق، أو غطسة «ركلة القمر» تارةً أخرى، أو ربّما «غطسة معكوسة». وفي كلّ مرّة، ينتهي العرض بالدعابات الاعتياديّة: «المياه لذيذة»، و«يجدر بكم أنتم أيضاً أن تسبحوا»... إلى أن أُصيب ذات يوم

(1) Jean Vuarnet متزلّج فرنسي.

وهو يغطس بكسر طفيف في ساعده. علّق ساعده ذاك بمنديل، منديل من الحرير الأبيض أهداه إيّاه ماكفاولز، وكان يقضي أيّامه في سروال السباحة بنقشة جلد النمر وذلك المنديل.

- لن يعود بوسعك أن تسبح يا صديقي المسكين، قال له ماكفاولز. هذا مؤسف في مثل هذا الحَرّ...

غير أنّ مورانز، وعلى الرغم من ساعده المربوط، لم يفقد شيئاً من حماسته. فهو كان ينوي استقدام زورق سريع وزلّاجات ماء يمكن استخدامها في قناة فرساي الكبرى. كان ماكفاولز اشترى خيمة بحر برتقاليّة اللّون، وحصل من مدير الفندق على إذن لنصبها في المنتزه. وقفنا خمستنا حول الخيمة.

- ثمّة رائحة بحر في الجوّ، قال مورانز.

- ألا تريدون أن نغتنم انحسار المدّ للقيام بنزهة؟ سأل ماكفاولز.

كان ينحني صوب آن ماري.

- سوف أجد لك أصدافاً جميلة حبيبتي...

كانت تحدّق به بنظرة قلقة. ذلك المزاح بدأ يخيفها، كان

بوسعي رؤية ذلك في عينيها. ربّما كانت تفضّل أن تختلي قليلاً ببوب في شهر عسلهما.

أخذت مشاعر أقرب إلى المرارة والسأم تسيطر على ماكفاولز. فالمزاح الطيّب أعقبته ملاحظات حانقة، من نوع:

- هل تعتقد أنّنا سننتظر ذلك البحر اللّعين طويلاً؟

كان يلتفت إلى مورانز:

- هكذا إذن لم تعد تغطس؟ هل فارقتك شجاعتك؟

عرضت على بوب أن نزور مدرستنا القديمة في فالفير، على مقربة من فرساي.

- موافق، لكن بشرط أن يكون هناك بحر.

نجحت ذات مساء في إقناعهم بالقيام بنزهة على طول القناة الكبرى. وصلنا إلى طرف القناة، حيث تمتدّ حقول. كانت أبقار ترعى العشب. كان الأفق منقشعاً، وبدا وكأنّ تلك الحقول تطلّ على البحر. لم يسعني سوى أن ألفت انتباه بوب إلى الأمر.

- أنت على حقّ، قال لي، لكنّه سراب. كلّما تقدّمتَ، تراجع البحر.

كان عجَم خلفنا يعزف على الأكورديون. أمّا مورانز، فلم يعد لديه سوى جبيرة حول معصمه. وكانت آن ماري مشغولة البال.

في تلك الليلة، أيقظني رنين الهاتف قرابة الساعة الثالثة صباحاً. كانت تلك آن ماري. قالت لي إنّ بوب جالس بلا حراك في رواق الفندق، وإنّه يرفض الإخلاد إلى السرير. أحسست من الغصّة في صوتها أنّها تبكي.

نزلنا كلانا للانضمام إليه. وجدناه جالساً في إحدى كنبات الرواق الكبير. جلسنا بجانبه.

- أرجو أن تعذراني... لكنّني ما زلت في انتظار ذلك البحر اللّعين. ليس الأمر سهلاً، كما تعلمان...

قهقه ضاحكاً، لكن كان هناك أمر مريب في تلك الضحكة. رمقتني آن ماري بنظرة يائسة. لا، لم يكن ثملاً كما كانت تظنّ. لم يكن بحاجة إلى الكحول ليكون في مثل تلك الحالة.

حدستُ أنّها كانت تبحث عن تفسير، بكلّ ما لديها من حبّ لماكفاولز وكلّ ما فيها من رقّة وعطف. ما عساني أن أقول لها؟ سوى أنّ بوب لم يكن رجلاً سيّئاً، على الإطلاق،

بل فتى مرهف الإحساس وبريء هو أيضاً، وأنّه يتوق إلى توازن، وإلّا لما اختار فتاة مثلها. فنحن قدامى فالفير، تعصف بنا للأسف نوبات كآبة يتعذّر تبريرها، فورات حزن يسعى كلّ منّا على طريقته لمواجهتها. فجميعنا، على حدّ تعبير أستاذنا في الكيمياء السيّد لافور، فينا «بذرةُ مسٍّ من الجنون».

طلع النهار. كنت أتأمّل بقع الشمس على جدار الرواق الكبير، تداعبها ظلال أغصان الأشجار المترنّحة ببطء. ثمّة ذبابة حطّت على بنطال آن ماري الأبيض، فوق الرّكبة بقليل.

مكتبة الرمحي أحمد @ktabpdf تيليجرام

5

مرّةً كلّ أسبوعين، كنّا نتجمّع يوم السبت في الساعة التاسعة مساء في فناء الكونفدراليّة، قبل أن ندخل صالة السينما الصغيرة، حيث كان بإمكاننا اختيار أماكننا، سواء في القاعة أو على الشرفة، على المقاعد الخشبيّة الداكنة اللّون التي كانت تنثني تلقائيّاً.

كان بيدرو يبحث عن شخصين جديدين لتشغيل آلة عرض الأفلام، ليحلّا في مهلة قصيرة محلّ الفريق السابق المؤلّف من يوتلاند وبوردون، التلميذين في الصفّ الثاني الثانويّ. تطوّعنا أنا ورفيقي دانيال ديسوتو، وعلّمنا التلميذان الأكبر سنّاً منّا خلال بضعة أيّام، في ساعات العصر، كيف نستخدم آلة العرض. طُرد يوتلاند من المدرسة، ثمّ غادرنا بوردون بدوره، فتولّينا أنا وديسوتو مهامّنا الجديدة بصورة نهائيّة.

كان التلاميذ يجلسون في الصالة الصغيرة ذات الجدران المطليّة باللّون المَغريّ، صالة تشبه سينما حيّ صغيرة. كانت الشاشة المثبّتة على لوحة متحرّكة، تحجب المسرح الذي كانت فرقة مسرحيّة تقدّم عرضاً عليه مرّة في كلّ فصل، وكان بيدرو يعتليه في نهاية السنة الدراسيّة لتوزيع الجوائز.

وبعد لحظة، يدخل السيّد جانشميت، يتبعه كوفنوفيتزين، جارّاً كلبه اللّابرادور من زمامه. كان هناك على الدوام مقعدان مخصّصان لهما في الصفّ الخامس من الصالة، عند الطرف. يدخل بيدرو وكوفو، فيخيّم صمت يقطعه في بعض الأحيان تصفيق خفر. كان كلب كوفو يتمدّد في وسط الصفوف، مسمّراً في وضعِ أبي الهول، رافعاً رأسه قليلاً نحو الشاشة.

كنّا أنا وديسوتو في حجرة العرض ننتظر إشارة بيدرو. يرفع ذراعه اليسرى، ثم يخفضها فجأة، وكأنّه يطرد ذبابة. عندها كان بالإمكان الشروع في الجلسة.

كنّا نعرض فيلماً وثائقيّاً أو رسوماً متحرّكة في الجزء الأوّل من الجلسة. ثمّ أُشعل الأضواءَ مجدّداً. طقطقة المقاعد. يخرج التلاميذ للحظة إلى فناء الكونفدراليّة،

فيما يبقى بيدرو وكوفو جالسين في مقعديهما، والكلب في وضعه. كان بعض الرفاق ينضمّون إلينا في حجرة العرض. وبعدها أشغّل الجرس معلناً نهاية الاستراحة. ثمّ من جديدٍ، إشارة بيدرو القاطعة.

هكذا شاهدنا «الرجل في البذلة البيضاء»[1] و«جواز سفر إلى بيمليكو»[2]، وأفلاماً أخرى نسيت أسماءها. لكن الفيلم الذي كان يتكرّر بشكل متواتر في برنامج العرض، مرّة في الفصل، كان «مفترق رماة السهام».

قصر، وكونتيسة شقراء، وطفلتها، وبيت حارس الأحراش، ورسّام متيّم بالكونتيسة، وأنغام هارمونيوم تتناهى في الليل، وعويل كلب شارد في الظلمة...

كان كلب كوفنوفيتزين اللّابرادور يجيبه بنباح كئيب، ناصباً أذنيه.

الفتاة التي كانت تلعب دور طفلة الكونتيسة كانت

---

(1) *The Man in the White Suit* أو حسب ترجمته الفرنسيّة *L'Homme au complet blanc* فيلم بريطاني من إخراج ألكسندر ماكندريك Alexander Mackendrick عام 1951.

(2) *Passport to Pimlico* أو حسب ترجمته الفرنسيّة *Passeport pour Pimlico*، فيلم بريطاني من إخراج هنري كورنيليوس Henry Cornelius عام 1949.

تدعى «الجوهرة الصغيرة»[1]، أو بالأحرى هكذا ورد اسمها في قائمة مقدّمة الفيلم. في أوّل مرّة عُرض فيها «مفترق رماة السهام» في سينما مدرستنا، حضر بيدرو وكوفنوفيتزين برفقة رجل أربعينيّ، كان بيدرو بين الحين والآخر يربّت على كتفه بمودّة. وبعد انتهاء العرض، طلب مديرنا أن يبقى الجميع في مقاعدهم. نهض وأعلن، مشيراً إلى الرجل الجالس بجانبه:

- أقدّم لكم أحد قدامى المدرسة. حضر إلى هنا هذا المساء خصّيصاً لأنّه كان يعرف إحدى ممثّلات الفيلم.

في ما بعد، حضر ذلك الرجل إلى فالفير كلّما كنّا نعرض «مفترق رماة السهام». في أيّام السبت تلك، كانت سيّارته تتوقّف أمام القصر، وكان يتناول العشاء في المقصف، جالساً إلى طاولة بيدرو.

كان متوسّط القامة، شعره كستنائيّ فاتح، ونظرته حادّة. كان يعمل في مجال الاستيراد والتصدير. سنحت لي

---

(1) La Petite Bijou أو «الجوهرة الصغيرة» لقب فتاة تدعى تيريز، جعل منها موديانو لاحقاً بطلة رواية تحمل اسمها صدرت عام 2001.

الفرصة في تلك السنة أن أجلس أنا أيضاً إلى طاولة بيدرو. كانا يتحدّثان عن الماضي وعن «القدامى».

- هل تجد أن فالفير تغيّرت؟ سأل بيدرو.

- لا، فالفير لا تزال فالفير.

كان بعض التلاميذ فُقدوا أثناء الحرب، وبينهم فتى يدعى جوني، كان بيدرو لا يزال يذكره بكثير من التأثّر.

- عُدِ الشّهرَ المقبل، قال له. سنعيد عرض «مفترق رماة السهام».

أعتقد أن بيدرو كان يكرّر الفيلم بتلك الوتيرة إرضاءً لتلميذه «القديم». قال له الرجل:

- هذا حقّاً لطف منك سيّد جانشميت، أن تتيح لي رؤية «الجوهرة الصغيرة» مرّة جديدة...

وفي نهاية العشاء، يقدّم لنا التلميذ القديم سجائر. كان التدخين ممنوعاً، لكنّ مديرنا كان يغضّ الطرف لمرّة. وذات مساء، إذ رحنا نطرح عليه أسئلة حول «الجوهرة الصغيرة» تلك، تكرّم علينا وأرضى فضولنا المحقّ وفضول بيدرو.

*

أجل، يمكنني القول إنّ حياتي لم تكن حتّى الآن سوى بحث طويل وغير مُجدٍ عن «الجوهرة الصغيرة». عرفتها عند خروجي من مدرسة فالفير، حين كنت منتسباً إلى صفّ في الفنون المسرحيّة. من بين جميع تلامذة «صفّ ماريفو» ذاك، لم ينخرط أحد في مجال الاستعراض، باستثناء السمين الذي كنّا نناديه «بوبول».

لا أذكر «صفّ ماريفو» إلّا والوقت ليل وشتاء. كنت في الثامنة عشرة، وكنت أحضر ثلاث مرّات في الأسبوع «الجلسات الجماعيّة»، حسب تعبير أستاذتنا، وهي ممثّلة من الأعضاء السابقين في فرقة «الكوميدي فرانسيز»[1]، أسّست «صفّ ماريفو»، «ردهة المسرح والسينما والاستعراض والكباريه» كما كان يعرّف به الدليل، في الطابق الأرضيّ لمبنى قريب من ساحة ليتوال[2].

على خلفيّة الشتاء والليل تلك، أستعيد «جلساتنا الجماعيّة» من الساعة الثامنة الى الساعة العاشرة والنصف مساء. عند الخروج من الصفّ، كنّا نتحادث قليلاً

(1) La Comédie-Française مسرح وطنيّ فرنسي يتميّز بكونه له فرقة ممثّلين خاصّة به.

(2) L'Etoile ساحة النجمة.

ثم نتوارى، أنا وبوبول والآخرون، في ظلمة المدينة الغارقة في التعتيم. ذات ليلة، التقيت عند زاوية الشارع بجوني، رفيق من مدرسة فالفير. كان يبحث عن عمل في استديوهات السينما. عرضت عليه أن يأتي إلى الصفّ معنا، لكنّه لم يعاود الاتّصال بي منذ ذلك الحين. يصعب عليّ أن أذكر أسماءهم ووجوههم جميعاً. وحدهما بوبول وصونيا أودوييه يبقيان ماثلين في ذاكرتي.

كانت نجمة «صفّ ماريفو». لم تشارك في «الجلسات الجماعيّة» سوى مرّتين أو ثلاث مرّات، لأنّها كانت تتبع دروساً خاصّة مع أستاذتنا، وهو ترف لم يكن في متناول أيّ منّا. فتاة شقراء، وجهها ضيّق متطاول وعيناها فاتحتان. أثارت فضولنا على الفور. بالرغم من أنّها لم تكن سوى في الثالثة والعشرين، كانت بالتأكيد تكبرنا بعشر سنوات أو خمس عشرة سنة. كانت تقول إنّها تتحدّر من عائلة أرستقراطيّة بولنديّة، ولم يكد يمضي شهر على انتسابها إلى الصفّ حتّى تحدّثوا عنها في إحدى مجلّات تلك الفترة، ما أذهلنا جميعاً. كانت، على ما قيل، ستخطو قريباً «خطواتها الأولى في المسرح».

كانت أستاذتنا تتملّص من الإجابة على الأسئلة التي كنّا نطرحها عليها حول «الخطوات الأولى» الواعدة للـ«كونتيسة»، كما كنّا نلقّبها. لكنّ بوبول الذي كان أكثر دهاء منّا وبدأ في ذلك الحين يخالط عالم الكواليس والأستديوهات والحانات الليليّة، أخبرنا أنّ «الكونتيسّة» كانت تقطن شارع ألبير الأوّل، في شقّة فخمة. كان بوبول يشتمّ أمراً مريباً في الوضع: من المؤكّد أنّ ثمّة من يعيل «الكونتيسّة». فكانت تنفق بلا حساب في دور الخياطة ومحلّات المجوهرات. وكانت، على حدّ قول بوبول، تحجز موائد لحوالى عشرة أشخاص في مطعم «لا تور دارجان»[1]، وتدعو من غير تمييز، وتوزّع الهدايا. لم يكن بوسع البعض مقاومة ذلك. أمّا بوبول، فكان بودّه لو ينضمّ إلى شلّة «الكونتيسّة».

لكنّ كلّ ذلك ما كان سيبدو اليوم جديراً بالذّكر، مجرّد إكليل من الأزهار الذاوية مرميّ فوق غطاء سلّة نفايات،

---

(1) La Tour d'Argent: مطعم فرنسيّ يقع في الدائرة الباريسية الخامسة، يُعتبر من أقدم المطاعم الأوروبية وأفخمها، ويمتاز بالإطلالة الرائعة التي يوفّرها على باريس إذ هو يشرف على نهر السّين. وهو معروف بغلاء ثمن أطباقه.

لولا «الجوهرة الصغيرة».

عرفتها يوم المسابقة السنويّة. كانت أستاذتنا أقامت خشبة مسرح في أوسع غرفة في شقّتها، وكانت هيئة تحكيم مؤلّفة من عدد من شخصيّات عالم الفنّ والاستعراض تتصدّر جمهوراً من حوالى خمسين مشاهداً.

كنت تلميذاً حديث العهد في الصفّ، أحدث من أن أشارك في ذلك الحفل، ولم أجرؤ على الحضور إلى شارع بوجون إلّا بعد انتهاء المسابقة. في «صالة المسرح»، كان بوبول وبعض الرفاق مستغرقين في حديث محتدم.

- «الكونتيسّة» هي التي فازت بالجائزة الاولى للتراجيديا، بادرني بوبول. أمّا أنا، فحصلْتُ على شهادة جدارة لمسرح الاستعراض.

هنّأته.

- اختارت مشهد موت غادة الكاميليا[1]، لكنّها لم تحفظ النصّ.

انحنى صوبي:

(1) *La Dame aux camellias* أو «غادة الكاميليا»، رواية لألكسندر دوما الابن نشرت عام 1848 واقتبست للمسرح.

- كلّ ذلك كان مدبّراً منذ البداية... مجرّد حيل وألاعيب يا صديقي.. لا بدّ أنّ «الكونتيسّة» وزّعت ظروفاً على لجنة التحكيم وعلى السيّدة وقاحة...

السيّدة وقاحة كانت أستاذتنا. وهي في ماضيها برعت في الدور ذاته.

- تخيّل أنّ هناك مصوّرين جاؤوا خصّيصاً من أجل «الكونتيسّة». وأجرِيَت معها مقابلة... نجمة حقيقيّة... لا بدّ أنّها دفعت لهم جميعاً مبالغ باهظة...

عندها لاحظت في عمق الصالة، على أحد المقاعد المخمليّة الحمراء، فتاة صغيرة غافية.

- من تكون؟ سألت بوبول.

- ابنة «الكونتيسّة»... لا يبدو عليها أنّها تعتني بها كثيراً... عهدت بها إليّ حتّى أهتمّ بها خلال العصر... لكنّ الأمر لا يناسبني أنا... عليّ أن أقدّم تجربة إداء لدور... ألا يمكنك أنت الاهتمام بها؟

- إن شئت.

- تصطحبها في نزهة قصيرة ثمّ تعيدها إلى منزل «الكونتيسّة»، الرقم 24 شارع ألبير الأوّل.

- حسناً.

- سوف أغادر. هل تستوعب الأمر؟ قد أحصل على وظيفة في كباريه.

كان منفعلاً للغاية ويتصبّب عرقاً.

- أتمنّى لك حظّاً سعيداً بوبول.

لم يبقَ في قاعة المسرح سواي وسوى تلك الفتاة الصغيرة النائمة. اقتربت منها. كانت تسند خدّها إلى ظهر المقعد، ويدها اليسرى على كتفها وذراعها مثنيّة على صدرها. كان شعرها أشقر مجعّداً، وكانت ترتدي معطفاً أزرق فاتحاً وتنتعل حذاءين بنيّين ضخمين. كانت في السادسة أو السابعة من العمر.

ربّتّ برفق على كتفها. فتحت عينيها.

عينان فاتحتان، تكادان تكونان رماديّتين، مثل عيني «الكونتيسّة».

- يجب أن نذهب في نزهة.

نهضَتْ. أمسكْتُ بيدها وخرجنا من «صفّ ماريفو».

*

وصلنا عبر جادّة هوش أمام بوّابات حديقة مونسو.

- هل تريدين أن نتنزّه هنا؟

- أجل.

كانت تهزّ رأسها بوداعة.

لمحت إلى اليسار، من جانب الجادّة، أراجيح طلاؤها متقشّر، ومزلقة قديمة وحوض رمل إسمنتيّاً.

- هل تريدين أن تلعبي؟

- أجل.

لا أحد. لا طفل واحداً. كانت السماء مثقلة بغيوم منخفضة، بيضاء كالقطن وكأنها على وشك أن تثلج. انحدرَتْ مرّتين أو ثلاث مرّات على المزلقة وطلبت منّي بصوت خجول أن أساعدها للجلوس على الأرجوحة. لم تكن تزن كثيراً. رحت أدفع الأرجوحة التي كانت تجلس عليها متصلّبة. وبين الحين والآخر، كانت تلقي نظرة إليّ.

- ما اسمكِ؟

- مارتين، لكنّ أمّي تناديني «جوهرة».

كان هناك مجرفة صغيرة متروكة في الحوض، فبدأَت بجمع كتل من الرمل. جالساً على المقعد، على مقربة منها،

مكتبة الرمحي أحمد ٩٨

لاحظت أنّ جوربيها بطول ولون مختلفين. أحدهما أخضر داكن يصل إلى ركبتها، والآخر أزرق لا يظهر منه سوى بضعة سنتيمترات من فوق حذائها البنيّ المحلول الرباط. هل أنّ «الكونتيسّة» هي التي وضعت لها ملابسها في ذلك اليوم؟

خفت أن تمرض من البرد في الرمل، وبعدما عقدْتُ رباط حذائها، أخذتها إلى الطرف الآخر من المنتزه. كان بعض الأطفال يدورون على دوّارة الأحصنة الخشبيّة. اختارت الجلوس على إحدى البجعات الخشبيّة، وانطلقت الدوّارة باعثة صريراً. وكلّما عبرت أمامي، رفعت ذراعها لتحيّيني، وعلى شفتيها ابتسامة، فيما يدها اليسرى متشبّثة بعنق البجعة.

بعد خمس دورات، قلت لها إنّ والدتها تنتظرها وإنّ علينا أن نستقلّ المترو.

- بودّي العودة مشياً.

- كما تشائين.

لم أجرؤ على رفض طلبها. لم أكن بلغت بعد سنّاً يخوّلني أن أكون والدها.

سلكنا شارع مونسو وجادّة جورج الخامس متوجّهين إلى نهر السين. كنّا في ساعة لا تزال واجهات المباني فيها ترتسم على خلفيّة السماء الأفتح لوناً منها بقليل. لحظات، ويذوب كلّ ما هنالك في الظلمة الدامسة. كان علينا أن نسرع. وكما في الساعة ذاتها من كلّ مساء، استسلمت لقلق غامض راح يجتاحني. وهي كذلك. كنت أمسك بيدها، وأحسّ بها تضغط على يدي.

حين وصلنا عند بسطة الأدراج أمام باب الشقّة، سمعت همس أحاديث وقهقهات. فتحَت الباب امرأة سمراء في حوالى الخمسين من العمر، شعرها قصير وسحنتها مربّعة تشعّ حيويّة، مثل سحنة كلب بولترييه[1]. رمقتني بنظرة مرتابة.

- مرحباً مادلين لوي، قالت الفتاة الصغيرة.

- مرحباً «جوهرة».

- إنّني أعيد... «جوهرة»، قلت.

(1) Bull-terrier صنف كلاب من أصل إنكليزيّ وليد تهجين بين البولدوغ والتيرييه، يتميّز برأسه البيضاويّ الشكل.

- تفضّل.

في الردهة، كانت باقات من الأزهار موضوعة أرضاً. وفي العمق، كنت أميّز من باب الصالون الموارب بمصراعيه، مجموعات من الأشخاص.

- لحظة... سوف أنادي صونيا، قالت لي المرأة ذات وجه البولترييه.

وقفنا أنا والفتاة ننتظر بين باقات الأزهار التي كانت تكسو أرضيّة الردهة.

- هذا المكان مليء بالأزهار... قلت.

- إنّها من أجل أمّي.

أطلّت «الكونتيسّة»، شقراء متألّقة، في «تايور» من المخمل الأسود مزيّن عند الكتفين بالكهرمان الأسود.

- هذا لطف منك أنْ تعيد «جوهرة».

- لا إطلاقاً... هذا طبيعيّ... أهنّئك... على الجائزة الأولى.

- شكراً... شكراً...

كنت أشعر بالإحراج، ووددت مغادرة تلك الشقّة على الفور.

- هل تعلمين «جوهرة»، هذا يوم عظيم لوالدتك...

كانت الفتاة تحملق بها بملء عينيها. هل كان ذلك بدافع الدهشة أم الخوف؟

- «جوهرة»، والدتك تلقّت اليوم جائزة رائعة... عليك أن تقبّلي والدتك...

وبما أنّها لم تكن تنحني صوب ابنتها، حاولت الطفلة عبثاً أن تقبّلها، منتصبة على رأسي قدميها. غير أنّ «الكونتيسّة» لم تتنبّه للأمر البتّة. بل كانت تتأمّل الباقات الموضوعة أرضاً.

- هل تدركين الأمر، «جوهرة»... كلّ تلك الأزهار... هناك كميّة منها، بحيث يستحيل عليّ وضعها في مزهريّات... عليّ العودة إلى أصدقائي... واصطحابهم إلى العشاء... سوف أعود في ساعة متأخّرة جدّاً... هل يمكنكَ الاعتناء بـ«جوهرة» هذه الليلة؟

كانت نبرة صوتها تشير إلى أنه لم يكن يساورها أيّ شكّ في ذلك.

- إن أردت، أجبت.

- سوف يعدّون لك عشاء. وبإمكانك أن تبيت هنا.

لم تترك لي وقتاً حتّى أجيب، فهي انحنت صوب «جوهرة».

- طاب مساؤك، حبيبتي «جوهرة»... عليّ أن أذهب لملاقاة أصدقائي. لا تنسي أن تبقي والدتك في فكرك...

قبّلَتها قبلة سريعة على جبينها.

- وشكراً لك مرّة جديدة سيّدي...

ابتعدَتْ بمشية رشيقة وانضمّت إلى الآخرين هناك، في الصالون. وسط جلبة الأحاديث، خُيّلَ لي سماع قهقهاتها الحادّة المتعالية.

خمدت الأصوات شيئاً فشيئاً وهم ينزلون الأدراج، وبقيت وحيداً مع «جوهرة». قادتني إلى صالة الطعام وجلسنا متقابلين إلى طاولة طويلة مربّعة، سطحها مجزّع من الرخام الزائف. كنت جالساً على كرسي حديقة تكسوه بقع من الصدأ، فيما «جوهرة» جالسة على مقعد بلا مسند ظهر تعلوه وسادة مخمليّة حمراء. ذلك كان الأثاث الوحيد

في تلك القاعة. كان النور ينسكب علينا من ثريّا جداريّة مصابيحها عارية.

أحضر لنا طبّاخ صينيّ العشاء.

- هل هو لطيف؟ سألْت.

- أجل.

- وما اسمه؟

- تيونغ.

كانت تتناول حساءها باجتهاد، وصدرها منتصب متصلّب.

لزمَت الصمت طوال العشاء.

- هل يمكنني النهوض؟

- أجل.

جرّتني حتّى غرفتها، قاعة مكسوّة بتلبيسات خشبيّة زرقاء سماويّة. أثاثها يقتصر على سرير طفل، وبين النافذتين، طاولة مستديرة عليها غطاء من الساتان وضع فوقه مصباح.

انسلّت داخل حمّام ملاصق للغرفة، وسمعتها تفرك أسنانها. عند عودتها، كانت ترتدي قميص نوم أبيض.

- هل يمكنك أن تناولني كوب ماء أرجوك؟

قالت تلك الجملة بسرعة، وكأنّها تعتذر مسبقاً عن طلبها.

- طبعاً.

جلتُ في الشقّة بحثاً عن المطبخ، مستعيناً بمصباح جيب زوّدتني به «جوهرة». تصوّرتها حاملة مصباح الجيب ذاك الأضخم من يدها، وحيدة في الليل، وسط ظلال ترعبها. كانت معظم الغرف فارغة. أشعلتُ الأضواء في طريقي، لكنّ معظم الأزرار الكهربائيّة لم تكن تعمل. كانت تلك الشقّة تبدو مهجورة. على الجدران، آثار على شكل خطوط تشير إلى لوحات كانت في ما مضى معلّقة هناك. وصلت إلى غرفة لا بدّ أنّها غرفة «الكونتيسّة»، يتصدّرها سرير شاسع، حافّتاه عند الرأس والقدمين منجّدتان بالساتان الأبيض. هاتف موضوع أرضاً، وباقات من الورد الأحمر حول السرير، وعلبة بودرة للوجه، ووشاح.

من غير أن أدري السبب، رحت أنقّب في جوارير الدرج، فعثرت على بطاقة قديمة من الورق الأسمر باسم: بلاش، أوديت، 15 رصيف بوان دو جور، بولونيه سور

سين. وعند أسفل البطاقة، صورتان، إحداهما مواجهة، والثانية جانبيّة. عرفت «الكونتيسّة»، لكنّها كانت أصغر سنّاً، ونظرتها خابية، وكأنّهما صورتان أنتروبومتريّتان.

في المطبخ، كان الصينيّ يلعب الورق على الطاولة برفقة صينيّ آخر وأصهب أبيض البشرة.

- جئت أحضر كوب ماء للطفلة.

أشار لي إلى حوض غسل الأطباق. ملأت كوباً وألقيت نظرة إليهم. كانت بطاقات من حصص الإعاشة مبعثرة على السماط المشمّع. ذلك كان رهان لعبتهم. انغلق الباب خلفي ببطء. بعث جهاز الغلق الآليّ صريراً.

من جديد، تعاقُب الغرف الفارغة تلك، غرف شهدت على الأرجح في زمن غير بعيد عمليّة انتقال على عجل. إلى أيّ مستودع للأثاث؟ فيما السرير من الساتان الأبيض والكرسيّان اللذان تتكدّس عليهما الصناديق الصغيرة وحقائب السفر، والكنبة الوحيدة لصق جدار، توحي بإقامة مؤقّتة هناك.

كانت تنتظرني في سريرها.

- هل يمكنك أن تقرأ لي بضع صفحات؟

مرّة أخرى بدت وكأنّها تعتذر، وهي تمدّ لي كتاباً بهتت ألوان غلافه مع الوقت: «أسير زندا»[1]. مطالعة غريبة لطفلة. كانت تستمع إليّ، كاتفةً ذراعيها، وعيناها مفتونتان بالقصّة.

عند الانتهاء من قراءة الفصل، طلبت منّي ألّا أطفئ الضوء، ولا ثريّا الغرفة المجاورة. كانت تخاف من الظلام. مددت رأسي من بين مصراعي الباب لأرى إن كانت نائمة. ثمّ همت عبر قاعات الشقّة، إلى أن وجدت في نهاية المطاف كنبة من الجلد أقضي فيها الليل.

*

في اليوم التالي، عرضت عليّ «الكونتيسّة» منصب مدرّس خصوصيّ. فأنشطتها الاجتماعيّة والفنيّة لم تعد

(1) *The prisoner of Zenda* أو حسب ترجمته الفرنسيّة *Le prisonnier de Zenda*، رواية لأنتوني هوب Anthony Hope صدرت عام 1894، تجري وقائعها في بلاد وهمية من البلقان تدعى روريتانيا، حيث يتمّ خطف الملك وإقناع بطل القصّة، وهو إنكليزيّ يشبهه ويتحدّر من طفل غير شرعيّ لأحد ملوك هذا البلد السابقين، بلعب دوره لإنقاذ الوضع.

تسمح لها بالاهتمام بـ«جوهرة». تخلّيت من دون الكثير من الأسف عن «صفّ ماريفو» الذي التحقتُ به بالأساس هرباً من الوحدة. وبعدما عُهد إليّ بمسؤوليّات وقُدّم لي المأكل والمبيت، شعرت بأنّني أكثر ثقة بنفسي بكثير.

كنت أرافق «جوهرة» عند سيّدة سويسريّة تدير معهد دروس خاصّة في شارع جان غوجون، «مدرسة كولم». كانت «جوهرة» على ما يبدو التلميذة الوحيدة لذلك المعهد. وكلّما كنت أذهب لاصطحابها، سواء في الصباح أو في العصر، أجدها برفقة تلك السيّدة، في عمق قاعة صفّ مظلمة وصامتة، مثل كنيسة مهجورة. أمّا باقي النهار، فنقضيه على الحشائش في شارع ألبير الأوّل، أو في حدائق التروكاديرو. ثمّ نعود إلى المنزل عبر أرصفة النهر.

أجل، كلّ ذلك يحاصره الشتاء والليل، يحيطان به مثل علبة وثيرة. لم تكن «جوهرة» تخشى الظلمة فحسب، بل كذلك الظلال التي يلقيها على الستائر مصباح غرفتها، ومن خلال فتحة الباب، ثريّا الغرفة المجاورة.

كانت ترى فيها أياديَ متوعّدة، فتتكوّر محتمية في سريرها. كنت أطمئنها إلى أن تغفو. حاولْتُ بكلّ الوسائل

تبديد هذه الظلال.

أبسط ما كان يمكن القيام به من أجل ذلك هو فتح الستائر، غير أنّ نور المصباح كان عندها سيثير ريبة الدفاع المدنيّ. فكنت بالتالي أنقّل ذلك المصباح يميناً تارةً، ويساراً تارةً أخرى، لكنّ الظلال لا تبارح مكانها.

كان وجودي يسكّنها. وبعد خمسة عشر يوماً، نسيَت الأيدي علِى الستائر، وصارت تغفو قبل أن أنتهي من قراءة فصلنا اليوميّ من «أسير زندا» لها.

تساقط الثلج بغزارة في ذلك الشتاء، وبات الحيّ حيث كنّا نسكن، وشارع ألبير الأوّل، والباحة أمام متحف الفنّ الحديث، وعلى مقربة من هناك الشوارع المتدرّجة على سفح تلّة باسّي، هذا كلّه بات أشبه بمنتجع في إنغادين[1]. ومن ناحية ساحة الكونكورد، اكتسى ملك بلجيكا على جواده بالبياض وكأنّه عبرَ للتوّ عاصفة ثلجيّة. عثرت بين أغراض بائعٍ سقْطٍ على مزلجة لـ «جوهرة»، فكنت أصطحبها لتتزلقَ بها على ممرّ ينحدر انحداراً طفيفاً في

(1) Engadine وادٍ في جبال الألب السويسريّة.

حدائق التروكاديرو. وفي المساء، كنّا نعود عبر جادّة طوكيو، فأجرّ المزلجة و«جوهرة» جالسة عليها، متصلّبة قليلاً وساهمة في أحلامها كالعادة. ثمّ أتوقّف بغتة. وندّعي أنّنا تائهان في غابة. كانت تلك الفكرة تبهجها، وتعلو الحمرة خدّيها.

قرابة الساعة السابعة مساء، كانت «الكونتيسّة» تكاد لا تجد وقتاً لتقبّل ابنتها قبل أن تختفي، قاصدةً حفلاً ليليّاً ما. كانت مادلين لوي الغامضة تجري اتّصالات هاتفيّة تستمرّ طوال ساعات العصر، من غير أن تعيرنا الكثير من الاهتمام. ترى بأيّ مسائل كانت تعنى تلك المرأة ذات سحنة الملاكم؟ كانت تتكلّم بصوت جافّ، فتحدّد مواعيد في «مكتبها»، مفصحةً عن العنوان: «مجمّع قناطر الليدو».

كان لديها على ما يظهر تأثير كبير على «الكونتيسّة» التي لم تكن تناديها باسم صونيا، بل «أوديت»، وكنت أتساءل إن لم تكن هي «مصدر المال»، مثلما كان يقول بوبول. هل كانت تسكن في شارع ألبير الأوّل؟... بدا لي مراراً أنّ

صونيا ومادلين لوي كانتا تعودان معاً عند الفجر، لكنّني أعتقد أنّ مادلين لوي كانت تنام في غالب الأحيان في «مكتبها»...

في الآونة الأخيرة، اشترت زورقاً نهريّاً كان راسياً قرب جزيرة بوتو[1]، زرناها عليه ذات يوم أحد، أنا و«جوهرة» و«الكونتيسّة». أقامت على متنه صالوناً، وزّعت فيه وسادات كبيرة على الأرض وأرائك. كانت تضع في ذلك اليوم قبّعة بحريّة وبنطالاً أبيض، فبدت مثل ضابط بحريّ شاب، سمين ونحيف. مكتبة الرمحي أحمد

قدّمت لنا الشاي. أذكر صورة صديقة لها معلّقة في إطار أحمر على أحد الفواصل من خشب التيك. كانت فنّانة قصيرة الشعر، من ذرّيّة سوركوف[2]، تتحدّث في أغنياتها عن سفن تتوقّف في موانئ، ومراكب شراعيّة شقراء، ومرافئ تحت المطر.

---

(1) L'île de Puteaux جزيرة على نهر السين في منطقة باريس الكبرى.

(2) Robert Surcouf (1773–1827) بحّار فرنسي كان مكلّفاً من قبل فرنسا بمهاجمة سفن العدوّ التجاريّة والعسكريّة، وخصوصاً في تلك الفترة السفن البريطانيّة. جنى ثروة وبات صاحب أسطول ضخم من السفن وأحد كبار الملّاكين في سان مالو بفرنسا.

أتراها اشترت ذلك الزورق النهريّ متأثّرة بها؟

عند المساء، تركتنا مادلين لوي و«الكونتيسّة» في الصالون، أنا و«جوهرة». ساعدْتُها على إنجاز أحجيّة اخترتها لها بنفسي، أجزاؤها كبيرة بحيث لا تواجه الكثير من الصعوبة لإتمامها.

كان منسوب السين مرتفعاً في ذلك الشتاء، والمياه تكاد تصل إلى مستوى الكوّات، مياه عذبة ملأت الصالون برائحتها حيث تختلط الوحول بالليلك.

كنّا كلانا نبحر في مشهد مستنقعات، كنّا في بريَير[1]. وكلّما ارتقينا النهر، صرت شيئاً فشيئاً بعمرها. عبرنا مقابل بولونيا، حيث ولدْتُ، بين الغابة ونهر السين...

وذلك الرجل في حوالى الثلاثين من العمر، الذي كنت أسمع وقع خطاه مرّتين أو ثلاث مرّات في الأسبوع، في الليل، حين أكون وحيداً مع «جوهرة»... كان يملك مفتاحاً للشقّة، ويدخل في غالب الأحيان من الباب الخلفيّ. في أوّل مرّة، عرّفني بنفسه باسم «جان بوري»،

(1) Brière منطقة مستنقعات محميّة في فرنسا، على المحيط الأطلسي.

«شقيق صونيا». لكن لماذا لم يكن يحمل اسم العائلة ذاته مثلها؟

كاشفتني مادلين لوي مرّة بنبرة مداهنة، بأنّ آل أودوييه، عائلة صونيا، كانوا نبلاء من أصل أيرلنديّ ، استقرّوا في بولندا في القرن الثامن عشر. بالمناسبة، لماذا كانت صونيا تدعى أوديت؟

جان بوري ذاك، شقيق صونيا ذو الوجه الرقيق والبشرة المجدورة، كان يبدو لي رجلاً لطيفاً. حين لم يكن يطلب من الطاهي الصينيّ أن يقدّم له العشاء بمفرده، ويحضر في وقت أبكر من العادة، كنّا نتناول العشاء معاً، أنا وهو و«جوهرة». كان يبدي للطفلة حناناً شارداً. هل كان والدها؟ كان يعتني على الدوام بملبسه، ويحرص على وضع مشبك على ربطة عنقه. يا ترى أين كان ينام في شقة شارع ألبير الأوّل؟ في غرفة صونيا، أم على كنبة ما، في زاوية من أعماق الشقّة؟

عادةً كان يغادر في وقت متأخّر، وفي يده ظرف مكتوب عليه «إلى جان» بخطّ صونيا العريض. كان يتفادى الالتقاء بمادلين لوي، ويزورنا في غيابها.

ذات ليلة، أراد البقاء ليرى الطفلة تخلد إلى النوم، فجلس عند أسفل فراشها ليستمع هو أيضاً إلى قراءة «أسير زندا» اليوميّة. ثمّ قبّلنا «جوهرة» الواحد تلو الآخر.

في القاعة الرئيسيّة الموحشة التي كنّا ندعوها «الصالون»، قدّم لنا الصينيّ قدحين من الكونياك.

- أوديت فتاة عجيبة حقّاً...

أخرج من محفظته صورة أطرافها ممزّقة، ومدّها لي.

- تلك كانت انطلاقة أوديت، قبل خمس سنوات. خلال تلك السهرة، لاحظها رجل مهمّ... صورة رائعة، أليس كذلك؟

طاولات مكسوّة بأغطية بيضاء. وحول تلك الطاولات، جمع غفير بملابس احتفاليّة. وفي العمق، فرقة موسيقيّة على منصّة. أنوار الكشّافات الحادّة تضيء ديكوراً مستوحىً من جبال الألب، فيه ثلاثة شاليهات صغيرة، وشجرة صنوبر، وجبال من الكرتون يكسوها ثلج اصطناعيّ يغطّي أيضاً سطوح الشاليهات وأغصان الصنوبر. وقبالة المحتفلين الجالسين حول طاولات العشاء في بذلات سموكن وفساتين سهرة، ثلاثون

عسكريّاً من فرقة مشاة الجبل الفرنسيّة واقفون متأهّبين في صفّين، وتحت أقدامهم زلّاجاتهم. كانت الأرض أيضاً تلتمع، وقد نُثر عليها ثلج اصطناعيّ، ولم أجرؤ أن أسأل جان بوري ذاك إن كان جنود مشاة الجبل ظلّوا واقفين في زلّاجاتهم من دون حراك حتّى نهاية السهرة، وما كان بالضبط دور أوديت في تلك الليلة. هل كانت تبيع برامج السهرة؟

- كانت سهرة احتفاليّة... «ليلة التزلّج»...

في ذهني، كان ذلك الثلج الزائف وذلك الشتاء البخس اللذان طبعا «انطلاقة» أوديت يختلطان بالواقع. يكفي أن أنحني من النافذة وأتأمّل الثلج في شارع ألبير الأوّل.

- هل تدفع لك أوديت أجراً مرضياً لقاء عملك مربّياً؟

- أجل.

بدا مطرقاً في أفكاره.

- هذا لطف منك أن تهتمّ بالطفلة بهذه الطريقة الممتازة...

حين رافقته إلى باب الشقّة، لم أتمالك نفسي وسألته إن كان وشقيقته يتحدّران حقّاً من عائلة من الأرستقراطيّة

الأيرلنديّة، هاجرت إلى بولندا في القرن الثامن عشر. بدا مستغرباً، وكأنّه لا يفهم كلامي.

- نحن؟ بولنديّان؟ أوديت هي التي قالت لك هذا؟

كان يرتدي سترته المبطّنة بالفرو.

- بولنديّان، إن شئت... لكن من بولنديّي بوّابة «بورت دوريه»[1]...

تردّدت قهقهاته في الأدراج، فيما أنا واقف مسمّراً في وسط الردهة.

عبرْتُ الشقّة المقفرة. مساحات مظلمة. وسجّادات ملفوفة. وآثار تركتها لوحات وقطع أثاث على الجدران والأرضيّة العارية، كأنّما بعد عمليّة مصادرة. والصينيّون الذين يلعبون حتماً الورق في المطبخ.

كانت غافية، وخدّها على الوسادة. طفلة نائمة، وبجانبها من يسهر عليها، ليس هذا بأمر زهيد في وسط الفراغ.

---

(1) Porte Dorée أو البوّابة الذهبيّة، إحدى بوّابات باريس، كانت تضمّ «متحف الهجرة»، وتؤوي اليوم «المدينة العالمية لتاريخ الهجرة». وطوال القرنين الفائتين، شكّلت فرنسا وباريس بخاصّة ملاذاً أساسيّاً للمهاجرين البولنديّين. يقصد المتكلّم على الأرجح أنّه ابن مهاجرين لا تربطهم ببولندا سوى علاقة بعيدة.

ما أفسد الأمر برمّته كان فكرة طلعت بها مادلين لوي، واعتبرتها صونيا ممتازة: سوف تعمل «جوهرة» في «مجال الاستعراضات». وإن تمّ التكفّل بها كما ينبغي، فسوف تكون عمّا قريب صنوة لتلك الطفلة الأميركيّة، نجمة السينما. يبدو أن صونيا تخلّت عن أيّ خطط للعمل في الفنّ، وأتساءل إن لم تكن هي ومادلين لوي حوّلتا آمالهما الخائبة إلى «جوهرة».

شرحْتُ لمديرة مدرسة كولم في شارع جان غوجون أنّ «جوهرة» ستتوقّف عن حضور الدّروس. كانت متأسّفة لخسارة تلميذتها الوحيدة، وشعرت أنا أيضاً بالأسف من أجلها ومن أجل «جوهرة».

كان يتحتّم تشكيل مجموعة ملابس لها، تحسّباً للصور التي سوف تُرسل إلى دُور الإنتاج. خيْطت لها بذلات فارسة، ومتزلّجة على الجليد على غرار صونيا هينيي[1]، وفتاة صغيرة مثاليّة. كانت والدتها ومادلين لوي تصطحبانها إلى جلسات قياس ملابس تكاد لا تنتهي، وكنت أتأمّل من

(1) Sonja Henie (1912–1969) بطلة نروجيّة في التزلّج على الجليد وإحدى نجمات هوليوود.

النافذة سيّارة صونيا المكشوفة تبتعد على ثلج شارع ألبير الأوّل، وغطاؤها الأسود مغلق. كان قلبي يُعتَصر. كانت الطفلة محشورة بين والدتها ومادلين لوي، والأخيرة تلوّح بسوط فوق الحصان، محدثةً فرقعة في الجوّ، وكأنّها مروّض حيوانات في سيرك.

أمّا أنا، فكنت مكلّفاً بمرافقتها إلى دروسها. درس بيانو. درس رقص. دروس في الإلقاء تعطيها أستاذتنا في شارع بوجون. جلسات تصوير عند مصوّر على جادّة بينا، بمختلف أزيائها. دروس فروسيّة في مدرسة لركوب الخيل في بولونيا. هناك على الأقلّ، كانت الدروس تجري في الهواء الطلق، فتعود الحيويّة إلى وجهها، صغيرة شقراء رقيقة، على حصان رماديّ أبقع يختلط لونه بالثلج والضباب الصباحيّ.

لم تكن تتفوّه بكلمة، وتبقى طيّعة في كلّ الأوقات رغم تعبها. في عصر أحد الأيّام، حين قبلت مادلين لوي وصونيا بمنحها عطلة، ذهبنا معاً إلى حدائق التروكاديرو، وهناك غفت على مزلجتها.

بعد وقت قصير، اضطررت للرحيل إلى جنوب

فرنسا. باتت باريس في ذلك الحين خطيرة، ولم أعد واثقاً حتّى من بطاقة الهويّة التي أعطاني إيّاها رفيق سابق من مدرسة فالفير باسمه. لا «جوهرة» كان اسمها «جوهرة»، ولا صونيا كانت تدعى صونيا، لكنّني أنا أيضاً لم يكن اسمي لونورمان.

طلبت منهما أن تعهدا إليّ بـ«جوهرة»، ستكون حتماً سعيدة في الجنوب. لكن عبثاً. كانت مادلين لوي، تلك السمينة القاسية، متشبّثة بفكرتها في أن تجعل منها طفلة معجزة، أعجوبة الشاشة. وصونيا... كم كانت تنقاد بسهولة، كم كانت واهية هشّة... تتعمّد الجلوس والاستماع إلى «السوناتة في ضوء القمر»، شاردة في أحلامها... لكنّني لطالما اشتبهت بأنّها خلف تلك المظاهر الرقيقة الكئيبة، تخفي صلابة ريفيّة.

غادرْتُ ذات صباح قبل أن تستيقظ الطفلة.

بعد بضعة أشهر، في نيس، رأيت صورة لها في صفحة العروض الفنيّة في مجلّة أسبوعيّة. كانت تلعب دوراً في فيلم بعنوان «مفترق رماة السهام». كانت واقفة، ترتدي قميص نوم، وتمسك بيدها مصباح جيب كهربائيّاً، وقد

هزل وجهها قليلاً. بدت وكأنّها تبحث عن أحدهم في أرجاء الشقة في شارع ألبير الأوّل.

أنا، ربّما.

لم تردني بعد ذلك أيّ أخبار عنها. تراكمت منذ ذلك الحين فصول شتاء كثيرة، حتّى أنّني لا أجرؤ على تعدادها.

بوبول من جهته تدبّر أمره. كان لديه مرونة كرة من المطّاط، ومثلها القدرة على الانطلاق من جديد. ولكن ماذا عنها هي؟ في شارع جان غوجون، لم تعد موجودة مدرسة كولم حيث كنت أذهب لاصطحابها في الصباح وعند العصر. حين أعبر على رصيف النهر، أذكر ثلج تلك الفترة على تمثالَي ملك بلجيكا ألبير الأوّل وسيمون بوليفار، المنتصبين متوازيَين على مسافة حوالى مائة متر أحدهما من الآخر. هما على الأقلّ لم يتزحزحا، كلاهما متصلّب على حصانه، غير آبه للبلبلة التي تتركها الزوارق النهريّة خلفها في المياه المخضوضرة.

مكتبة الرمحي أحمد @ktabpdf تيليجرام

6

كان المقصف هو المكان الذي يعلن لنا بيدرو فيه كلّ مرّة، بعد توزيع البريد، خبر طرد تلميذ. هكذا، كان المذنب يتناول فطوراً أخيراً معنا، جاهداً للظهور في مظهر لائق، سواء كان يكابر أو على العكس، يحبس دموعه. كانت تساورني مشاعر من القلق والحزن كلّما واجه أحدنا تلك المحنة. كنت أنظر إليه وكأنّه محكوم بالإعدام، متمنّياً لو يعفو عنه بيدرو في اللحظة الأخيرة.

تأثّرت كثيراً عند طرد فيليب يوتلاند، مع أنّ ذلك الرفيق كان، على غرار بوردون ووراينغراين، أكبر سنّاً منّي بكثير. عند دخولي الصفّ الثالث التكميليّ، كان هو يعيد الصفّ الثاني الثانويّ بعدما رسب فيه. كان مديرنا عيّنه «مؤهّلاً» لـ «المزهريّة الجميلة».

طبقاً للتقليد، أعلن له بيدرو الحكم الصادر بحقّه في

المقصف. اختار يوتلاند أخذ المسألة بخفّة، فقضى الغداء بكامله يمازح رفاقه حول الطاولة.

في بداية العصر، قادنا «مؤهّلونا» صعوداً في مشية عسكريّة من فناء الكونفدراليّة إلى باحة القصر. كان بيدرو وجميع الأساتذة واقفين عند سلالم المدخل، ينتظرون حتّى يستتبّ الصمت. عندها، لفظ مديرنا الجملة التقليديّة بصوت رزين، مقطّعاً الكلمات:

- رفيقكم فيليب يوتلاند طُرد من المدرسة.

كان يقف هو نفسه والأساتذة الآخرون وقفة تأهّب.

- يوتلاند فيليب، أرجو منك الخروج من الصفّ والتقدّم إلى هنا...

فارق يوتلاند رفاقه من الصفّ الثاني الثانويّ وصعد أدراج المدخل بمشية رياضيّة. كان يرتدي سترة البليزر المزيّنة بشعار المدرسة التي كنّا ملزمين بارتدائها كلّ مساء لتناول العشاء.

- يوتلاند فيليب، تأهّب أمام رفاقك...

كان واقفاً بلا حراك في أعلى الأدراج، كأنّما على منصّة الإعدام، وعلى شفتيه ابتسامة خفرة، وكأنّه يعتذر.

- يوتلاند فيليب، لست جديراً بالبقاء بيننا. إنّني أقصيك من فالفير...

لكن قبل أن ينزل الأدراج، مدّ يوتلاند يده لبيدرو وجميع الأساتذة بطيبة جليّة إلى حدّ أنّ أيّاً منهم لم يرفض مصافحته.

بعد سنوات من ذلك، قرابة الساعة السابعة مساءً، عند خروجي من ملعب نادي رايسينغ في باريس، كنت أراقب فيليب يوتلاند من بعيد، دون أن أجرؤ على الاقتراب والتحدث إليه. أتراه سيذكر فالفير بعد ذلك الزمن؟ لم أكن بحاجة إلى التكلّم معه. كنت أستشفّ حالاته النفسيّة...

مسنداً ذراعيه إلى المقود، وذقنه على ظهر يده، بقي مطرقاً لوقت طويل في سيّارته المكشوفة القديمة التي لم يشأ يوماً التخلّي عنها. كان من الأسهل عليه أن يبتر قسماً من جسده على أن ينفصل عن تلك السيّارة، فهي مرتبطة بحقبة كاملة من حياته.

كيف يا ترى يقضي تلك الأمسية الصيفيّة؟ كان يذهب كلّ يوم منذ الصباح إلى حافّة حوض السباحة في نادي

رايسينغ. يجلس إلى البار ليتناول شطيرة «بامبانيا»[1] وكوباً من عصير الطماطم، ثمّ يتابع على شاشة التلفزيون المرحلة الراهنة من دورة فرنسا لسباق الدرّاجات. ثمّ يعود إلى حافّة حوض السباحة.

لم يكلّم أحداً منذ بداية الشهر، وكان مرتاحاً لذلك. وفي مرّتين أو ثلاث مرّات، تهرّب في نادي رايسينغ من خيالات أشخاص يعرفهم. كانت تلك الوحشة تدهشه، هو الذي لطالما أحبّ الناس.

الوقت الوحيد من النهار الذي يعتريه فيه قلق عابر، كان قرابة الساعة السابعة مساء. كانت فكرة قضاء أمسية وحيداً وتناول العشاء مختلياً بنفسه ترهبه قليلاً، غير أن ذلك الوجل يتبدّد مع عبوره غابة بولونيا. كان المساء رقيقاً لطيفاً، والغابة تحرّك فيه ذكريات كثيرة. هناك، في مطعم «بري كاتلان»، حضر بعض حفلات الأعراس. تزوّج جميع أصدقائه في نهاية المطاف، سنة بعد سنة.

على مسافة، من ناحية نويّي[2]، كانت صالة البولينغ

(1) Pambania أو Pan-bagnat شطيرة من اختصاص منطقة نيس بجنوب فرنسا، بالتونة والخضروات وزيت الزيتون.

(2) Neuilly بلدة راقية في منطقة إيل دو فرانس، تقع شمال غرب باريس، وهي من أغنى المناطق في فرنسا.

في «حديقة التأقلم»[1] تلقى رواجاً كبيراً في الفترة الغابرة التي كان فيها يوتلاند يتخلّف عن دروس معهد الإعداد لامتحانات البكالوريا، بعد طرده من مدرسة فالفير. كان يقضي عصر كلّ أيّامه تقريباً في صالة البولينغ. هناك كان يمكن ملاقاة أفراد «شلّة» حوض موليتور للسباحة، أو حوض لا مويت، وكان يُقّرر المكان الذي ستجري فيه الحفلة الساهرة المقبلة.

ما الذي تسبّب له بالطرد من فالفير؟ الواقع أنّه جلب إلى المدرسة حقيبة مليئة بسراويل جينز وأسطوانات من الموسيقى الأميركيّة، راح يبيعها بنصف ثمنها للتلاميذ الآخرين. كان صديق له من شلّة حوض موليتور للسباحة يزوّده بهذه البضائع المستقدمة مباشرةً من محلّ «بي. إكس.»[2]، المتجر الذي لم يكن يدخله سوى عناصر القوّات الأميركيّة المتمركزة في أوروبا، دون سواهم.

---

(1) Jardin d'acclimatation حديقة ملاهٍ وتسلية عند مشارف غابة بولونيا.

(2) P.X. Post Exchange متاجر في قواعد القوّات الأميركيّة مخصّصة للأميركيّين، وتبيع ملابس وأدوات كهربائيّة وتجهيزات رياضيّة وغيرها من رموز نمط العيش الأميركيّ.

بي. إكس. خطر له أنّ هذين الحرفين المحاطين بهيبة عظيمة، ذلك المتْجر المتعذّر على البلوغ والذي لطالما حلم به الفتيان بعمر فيليب يوتلاند، لن يوحي اليوم بأيّ شيء لشابّ في العشرين. باتت العلامة بي. إكس. مرميّة في عليّة المستلزمات البالية، حيث لحقت بالسّوار المسطّح الرائج في ذلك الحين، والذي طلب هو بإصرارٍ أن يُحفر على لوحته اسم «جان فيليب». فالاسم المزدوج له وقع أكثر أناقة.

عند بوّابة لا مويت، انعطف يساراً وولج جادّة سوشيه. كان يتبع تلك الجادّة كلّ يوم حتّى بوّابة أرجنتوي، ثمّ من جديد عبر جادّة سوشيه إلى بوّابة ما مويت، ومنها يسلك جادّة لان وصولاً إلى بوّابة مايّو، وهناك ينعطف عائداً أدراجه هذه المرّة في اتّجاه بوّابة أوتويْ، على أمل أن يكون في نهاية ذلك التجوال من غير وجهة. قرّر أين يتناول العشاء، لكنّه كان لا يزال حائراً وواصل طوافه لبعض الوقت، متباطئاً في شوارع الدائرة السادسة عشرة.

في سنّ الثامنة عشرة، كان هو سلطان ذلك الحيّ. واقفاً أمام مرآة غرفته في الشقّة في شارع أوسفالدو كروز، كان

مكتبة الرمحي أحمد

يقوّم للمرّة الأخيرة عقدة ربطة عنقه، أو يلصق خصلة شعره الأماميّة على جبينه، أو يردّها في بعض الأحيان إلى الخلف، بلمسة طفيفة من مستحضر للشعر. كان يرتدي في غالب الأحيان سترة وبنطالاً رماديّين، وكانت السترة مزيّنة بشعار نادي الكوت دازور للسيّارات واليخوت الذي كان والده من أعضائه. أمّا الحذاءان، فكانا خفّين إيطاليّين من الجلد الطريّ، يدسّ تحت رباط كلّ منهما قطعة نقديّة، كما كان رائجاً في ذلك الحين. حتّى أنّ البعض كان يستخدم لهذا الغرض لويسيّات ذهبيّة[1].

حول المرآة، كان هناك بطاقات دعوات لأمسيات سبت، محشورة داخل الإطار. وعلى تلك البطاقات البيضاء كانت مطبوعة أسماء عائلات عريقة، أو أسماء مزدوجة متراصّة من أرقى الأسر البورجوازيّة. كان الأهل يدعون أصدقاء بناتهم إلى سهرات كانوا يشيرون إليها باسم «رالي»[2]. وفي مساء كلّ يوم سبت، كان فيليب

(1) اللّويسيّات Louis d'or: قطع نقديّة ذهبيّة قديمة بدأت فرنسا تصدرها عام 1640 في عهد الملك لويس الثالث عشر، واستمرّ استخدامها حتى 1792.

(2) سهرات ولقاءات تنظّمها العائلات الميسورة لأبنائها وبناتها في سنّ الزواج.

يوتلاند يختار بين حوالى عشر من تلك السهرات، يختار منها اثنتين أو ثلاثاً، وهو على يقين بأنّ حضوره سوف يضفي عليها رونقاً خاصّاً. الواقع أنّ سهرة مع فيليب يوتلاند كانت أكثر نجاحاً وحماسة من أيّ سهرة أخرى. وهو كان بالتالي من المدعوّين الذين يواجهون أكبر قدر من الطلب إلى مئات السهرات المماثلة.

سهرات حارتَي أوتوي وباسّي، تقيمها طبقة من البورجوازيين وصغار النبلاء المتهندمين المتأنّقين الذين يرتادون شواطئ بول وأركاشون[1]. ثمّ سهرات باهتة أكثر في حيّ المدرسة العسكريّة، حيث يستنفد الوالد، وهو ضابط أو موظّف في الدولة، ميزانيّته حتّى تتمكّن ابنته من دعوة صديقاتها الراقيات من تلميذات ثانويّة فيكتور دوروي. كانت أجواء تلك السهرات رسميّة بعض الشيء، فيكون الوالدان حاضرين، وتقدّم للمدعوّين أقداح من شراب البرتقال. وفي الدائرة السابعة عشرة، سهرات يختلط فيها التكلّف بالمرح، تقيمها بورجوازيّة من أصحاب المناصب في القضاء، ترتاد كابور صيفاً

(1) La Baule و Arcachon ، مدينتان تعتبران من أبرز المنتجعات الفرنسيّة على ساحل المحيط الأطلسي.

وشاموني شتاءً[1]. وأيضاً سهرات أكثر تألّقاً في لا مْويت وعلى جادّة فوش، يخالط فيها أبناء المصارف البروتستانتيّة والكاثوليكيّة واليهوديّة ممثّلي أرقى عائلات الأرستقراطيّة الفرنسيّة وبعض الأسماء ذات الوقع الغريب على الأذن، توحي بتشيلي أو الأرجنتين. لكنّ السهرات الأحبّ إلى قلب يوتلاند، والتي لم تكن تلقى استحسان الأهل الآخرين لما يفوح حولها من رائحة فضائح ولطابعها «الحديث النعمة»، كانت تلك التي يقيمها فتىً وشقيقتاه، أولاد محامٍ مختصّ بالأعمال متزوّج من عارضة أزياء سابقة، في واحدة من تلك الشقق المسوّرة بالشرفات في أولى مباني جادّة سوشيه.

تشكّلت نواة في جادّة سوشيه، شلّة من حوالى عشرة فتيان وفتيات يملكون بمعظمهم سيّارات رياضيّة، وكانوا، على غرار يوتلاند، من تلامذة مدرسة فالفير. ابن محامي الأعمال نفسه تلقّى هديّة عند بلوغه الثامنة عشرة سيّارة أستون مارتن، فيما يوتلاند كان يكتفي بسيّارة أم

(1) Cabourg كابور بلدة في منطقة النورماندي شمالَ غربِ فرنسا، هي منتجع صيفيّ مهمّ على ضفاف بحر المانش. Chamonix شاموني بلدة فرنسية في جبال الألب قريبة من الحدود بين فرنسا وسويسرا وايطاليا.

جي حمراء مكشوفة، وكان ثالثٌ يقود سيّارة ناش خضراء فاتحة، وهلمّ جرّاً...

كانت ربّة المنزل، عارضة الأزياء السابقة، تشارك أحياناً في سهرات ابنتها، وكأنّها من عمرها. ومن أبهى ذكريات فيليب يوتلاند تلك الليلة من يونيو حين كان الجميع يرقصون على السطيحة، وباشرت فيها والدة أحد أصدقائه «مغازلته». لا بدّ أنّها اليوم سيّدة مسنّة، لكن حينذاك، كان الواحد يخالها في الثلاثين، بالنّمش الذي كان يكسو وجهها وكتفيها. في تلك الليلة، وصلت المغازلة بينهما الى مرحلة «متقدّمة» جدّاً، حسب تعبير اندثر منذ ذلك الحين.

تلك السهرات، قامت منها المئات والمئات. كانوا يرقصون، أو يختلون في إحدى زوايا السطيحة للعب البوكر، أو يلجأون أزواجاً إلى غرفة، مثلما فعل يوتلاند مع إحدى ابنتَي العائلة. كانوا يحلمون على أنغام مقطوعة لمايلز ديفيس، أو يسرحون وهم يتأمّلون أغصان الأشجار تتمايل في غابة بولونيا. تلك المرحلة السعيدة من حياة فيليب يوتلاند قطعتها الخدمة العسكريّة.

أُرسل إلى الجزائر قبل شهرين من اتّفاقيّات إيفيان[1]. ثمّ مكث بعض الوقت في مستشفى فال دو غراس[2]، وإثر تدخّل صديق لوالده، أتمّ خدمته العسكريّة سائقاً لضابط في البحريّة، رجل وسيم كان مقرّباً سابقاً من الماريشال دو لاتر[3]. كان يوتلاند يقوم بنزهات طويلة في الغابة برفقة ذلك الضابط.

كان عاد للتوّ إلى الحياة المدنيّة حين توفّي والده. استجمعت والدته شجاعتها وتولّت إدارة مختبرات الأدوية «موريس يوتلاند». وبما أنّ فيليب كان في سنّ تخوّله العمل، كُلِّف بإدارة «العلاقات العامّة» في المؤسّسة العائليّة... لم يكن أداؤه لامعاً في ذلك المنصب، لكنّ الجميع غضّوا الطرف إكراماً لذكرى المرحوم الدكتور موريس يوتلاند. بعد بضع سنوات، تقاعدت والدته وانتقلت إلى جنوب البلاد، بعدما تنازلت عن مختبرات

(1) اتّفاقيّات إيفيان وقّعت عام 1962 بين فرنسا والحكومة الجزائريّة المؤقّتة نصّت على وقف إطلاق نار وتنظيم استفتاء لتقرير المصير، وأفضت إلى استقلال الجزائر.

(2) Val-de-Grâce مستشفى عسكري في باريس.

(3) Maréchal de Lattre (1889–1952) جنرال في الجيش الفرنسي خاض الحربين العالميّين.

يوتلاند لمجموعة أجنبيّة، ما حقّق لها ولابنها مكاسب ماليّة كبرى. ومنذ ذلك الحين، قام فيليب الذي كان اطّلع قليلاً على عمل البورصة، بإدارة ثروتهما بتراخ.

وصل إلى تقاطع جادّة سوشيه وجادّة آنغر. تجاوزته سيّارة، ومدّ السائق رأسه من النافذة المفتوحة، رأساً قرمزيّاً أشبه بسحنة كلب بولدوغ، لينهال بالشتائم على يوتلاند الذي أجابه بابتسامة شاردة. لو حصل ذلك في ما مضى، لطارده واعترضه بسيّارته، لكنّه تخطّى زمن ذلك السلوك الطائش. توقّف تحت أشجار جادّة آنغر وأدار زرّ المذياع. كان مذيع يعلّق بصوت معدنيّ على المرحلة الأخيرة من دورة فرنسا لسباق الدرّاجات. الأشجار، والمقعد الخشبيّ، والكشك الخشبيّ الأخضر الصغير، وأحد المباني إلى اليمين، كلّ ذلك أعاده عشرين عاماً إلى الوراء.

هناك، في جادّة آنغر، زار في ما مضى دانماركيّة جميلة وشهيرة، كان اسمها آنيت ستروبرغ. كان مصوّر في مجلّة «باري ماتش» يكبره بسنوات، استلطفه وعرّفه على أوساط أقلّ بورجوازيّة من معشره حتّى ذلك الحين.

هكذا تعرّف في مطعم «لا بيل فيرّونيار» أو مطعم «بار ديه تيارتر» على بعض العارضات اللواتي كانت صورهنّ تتصدّر المجلّات، والممثّلات الشابّات الطامحات للنجوميّة. غير أنّ اللّقاء الذي أثّر فيه أكثر من سواه هو لقاؤه بآنيت ستروبرغ.

عاد والتقى بآنيت مرّة ثانية في الشتاء التالي، في حانة ليليّة في ميجيف[1]. اقترب منها وبادرها بالكلام، وشاءت الصدفة أن يومض فلاش مصوّر في تلك اللحظة. صدرت الصورة على صفحة كاملة من إحدى المجلّات، وعليها التعليق التالي: «نجوم السينما ومشاهير باريس يلتقون بعد التزلّج». كان فيليب يوتلاند بالفعل في الصورة، نجماً جالساً برفقة آنيت ستروبرغ وعشرة نجوم آخرين. وكان يبتسم. تناقل الجميع الصورة في السهرات، ما زاد من هيبة يوتلاند. هكذا، في التاسعة عشرة، بلغ القمّة، فكان محطّ أنظار الدائرة السادسة عشرة، وصُوِّر في ميجيف إلى جانب آنيت ستروبرغ.

(1) Megève منطقة في مقاطعة سافوا العليا جنوب شرق فرنسا، هي منتجع للتزلّج معروف في العالم.

بعد إنهاء خدمته العسكريّة، شعر بشكل يكاد يكون غير ملحوظ أنّه شاخ. ففي السهرات التي كان يواظب على المشاركة فيها، كانت أعداد مَن هم بعمره تتراجع بشكل متزايد، إذ يستأثر بهم الواحد تلو الآخر العمل أو الزواج أو حياة البالغين. وجد يوتلاند نفسه محاطاً بفتيان يعتبرون أنّ الكاليبسو والتشاتشا اللتين كان يرقصهما في السادسة عشرة من عمره، عفا عليهما الزمن، وباتتا في فئة المونويه[1]، ويجهلون ما كانت متاجر بي. إكس. كان يتفادى أن يعرض عليهم الصورة في مطعم ليسكيناد، التي اصفرّت خلال خمس سنوات مثل صور صيف 1939 تلك التي يظهر فيها روّاد الحياة الليليّة في جوان ليه بان يرقصون رقصة الشامبرلين[2].

لكنّ الاستهتار والمرح كانا يطغيان على طباعه، ما دفعه إلى تعلّم الرقصات الجديدة والاحتفاظ بدوره في إحياء السهرات.

---

(1) Menuet رقصة بثلاثة أوقات كانت شائعة في البلاط الفرنسيّ في القرن السابع عشر، وأعطت اسمها لمعزوفات موسيقيّة من وحيها.

(2) La chamberlaine رقصة يحمل الراقص فيها مظلّة، فيعلّقها بذراع راقص آخر يُلزم بالتخلّي له عن فتاته، ويعلّق المظلّة بدوره بذراع راقص آخر، إلخ.

كانت في الثامنة عشرة، والتقيا خلال إحدى السهرات. كانت تتحدّر من عائلة من الصناعيّين البلجيكيّين. كان آل كارتون دو بورغراف يملكون شقّتين في باريس وبروكسل، وقصراً في الأردين[1]، وفيلّا في كنوك لو زوت[2]. بدت ابنتهما مغرمة متيّمة بفيليب يوتلاند، وبعد بضعة أشهر، وضعه الوالدان أمام خيار: إمّا أن يخطبها، أو لا يعود يراها.

جرت المراسم في بروكسل. وفي المساء، أقامت عائلة كارتون دو بورغراف حفل استقبال في شقّتها في جادّة لويز. دعا يوتلاند جميع أصدقائه من باريس. ارتبكت عائلة حمويه المقبلين حيال السلوك الغريب الذي بدر عن أولئك الشبّان الفرنسيّين قرابة منتصف الليل. فقامت إحدى ابنتَي محامي الأعمال من جادّة سوشيه بعرض تعرٍّ بعدما أسرفت في تناول الشمبانيا، فيما راح مدعوّ آخر يشرب بانتظام نخب ملكة بلجيكا إليزابيت، فيفرغ الكأس تلو الكأس ويرميها من أعلى الشرفة.

---

(1) Les Ardennes منطقة جبليّة فرنسيّة.

(2) Knokke-le-Zoute: أحد أشهر المنتجعات الصيفيّة الأوروبية، يقع في بلجيكا على مسافة بضعة كيلومترات من الحدود الهولنديّة.

قرّرت العائلة أن يقضي الخطيبان عطلة رصينة في الفيلّا في كنوك لو زوت، ودعا آل كارتون دو بورغراف والدة فيليب يوتلاند للانضمام إليهم في شهر أغسطس. كان يوتلاند في البداية يلعب كرة المضرب مع خطيبته وأصدقائها. أكان ذلك بسبب أجواء الفيلّا «كاستيل بورغراف»، ذلك البناء الضخم المشيّد على طراز حقبة تيودور[1]، حيث كانت حماته المقبلة تحدّثه عند تناول الشاي عن جميع معارفها: عن أميرة ريتي التي تكلّمها بلا كلفة، والبارون جان لامبير[2]، ذلك الفتى الذي ترعبه أشعّة الشمس؟ أم شبيبة ذلك المكان المرفّهة، بل المرفّهة بشكل فادح، والمولعة بسباقات الكارتينغ؟[3] أم تلك المجموعة من الرجال الناضجي السنّ بزيّ أصحاب يخوت، الذين كانوا يتنادون على أرصفة المقاهي المحاذية للبحر، جاهدين لافتعال خمول في حركاتهم تشبّهاً بأهل

(1) حقبة تمتد بين 1485 و1603 في انكلترا وبلاد ويلز، تزامنت مع حكم أسرة تيودور في انكلترا، وشهدت ازدهاراً كبيراً جعل من إنكلترا قوّة كبرى.

(2) ليليان أميرة ريتي، الزوجة الثانية لملك بلجيكا ليوبولد الثالث، والبارون جان لامبير ينتمي إلى عائلة من كبار المصرفيّين البلجيكيّين.

(3) Karting : سباقات بالكارت Kart، وهي سيّارة سباق صغيرة بمقعد واحد.

سان تروبيه[1]؟ أكان ذلك بباعثٍ من السماء المكفهرّة؟ أم الريح؟ أم المطر؟ مهما يكن، فإنّ فيليب يوتلاند لم يعد قادراً على احتمال الوضع. وبعد عشرة أيّام، هرب من كنوك لو زوت مستقلّاً أوّل قطار، بعدما ترك رسالة اعتذار إلى الفتاة التي كانت لوقتٍ خطيبته.

بدأ المساء يهبط على جادّة آنغر، وصمّم أخيراً على الانطلاق بسيّارته. تبع جادّة سوشيه في اتّجاه بوّابة أوتوي. كانت ذكرى خطوبته التي فسخها تحزّ في نفسه.

شعر حينذاك بقدر من الارتياح واسترجع عاداته. لكن في السهرات التي كان يواظب عليها بإصرار، كانوا يجعلونه يشعر بأنّه شاخ. بالطبع، كانوا لا يزالون يكنّون له المودّة. فهو بات بمثابة تميمة.

أجل، الزمن تبدّل كثيراً. بدءاً بمظهر فيليب يوتلاند الذي كان يتباين مع مظهر أقرانه الأصغر سنّاً. كان يوتلاند يبقي شعره قصيراً، ولم يتخلّ عن السترات التي كانت رائجة حين كان في عامه الثامن عشر. وكان يبدي

---

(1) Saint Tropez بلدة ساحلية في جنوب شرق فرنسا هي مقصد للأثرياء والمشاهير الأوروبيين والأميركيين وقبلة للسيّاح.

ميلاً إلى البذلات الرمليّة اللّون، والأحذية ذات نعال الكريب، ويحتفظ ببشرة ملوّحة على مدار السنة. هكذا بقي مطابقاً لمواصفات النموذج الذي كان فتيان جيله يتّبعونه: الأميركيّون الرياضيّون في مطلع الخمسينيّات.

كان الوقت يمضي. ولا بدّ لفيليب يوتلاند من شغل أوقات فراغه. كان يخصّص حيزاً وافياً من حياته لكرة المضرب والرياضات الشتويّة، وأخذ يكتسب عادات عانس، فيقضي شهراً في السنة عند والدته في كان.

كما كان أصدقاؤه القدامى يدعونه لقضاء العطلة عندهم، لأنّهم كانوا واثقين من أنّ يوتلاند سيكون ضيفاً طيّب المعشر. وكان أولادهم يحبّونه كثيراً. معهم كان يستعيد أكثر ممّا مع أهلهم حماسته الماضية، في زمن الرحلات في اليخوت والجولات التي تنتهي في مطعم ليسكيناد.

كان شعور بالكآبة ينسلّ إليه شيئاً فشيئاً. بدأ ذلك حين شارف على عامه الخامس والثلاثين. ومنذ ذلك الحين، أصبح يحبّ البقاء وحيداً «للتأمّل» كما كان يقول، وهو أمر لم يسبق أن حصل له إطلاقاً...

عند بوّابة أوتوي، عاد وسلك جادّة سوشيه في الاتّجاه المعاكس، حتّى بوّابة لا مويت. توقّف في مطلع جادّة هنري مارتان. كانت ساعته تشير إلى الثامنة والنصف، ولا يعلم بعد أين سيتناول العشاء.

لا همّ. فلديه متّسع من الوقت. كان يتبع جادّة هنري مارتان، وانعطف يساراً في جادّة فيكتور. هوغو. على مسافة إلى الأسفل، عند الساحة، ترجّل من سيّارته وأغلق الباب خلفه بهدوء، وذهب متمهّلاً للجلوس على رصيف مقهى «سكوسّا».

هناك كان ينتهي به المطاف كلّ مساء، في الساعة ذاتها، وكأنّه انزلق من غير أن يعي الأمر إلى قطب غامض. ثمّة أماكن تجتذب النفوس التائهة، وصخور لا تتزحزح حين تهبّ عليها العواصف. كان مقهى سكوسّا بالنسبة لفيليب يوتلاند بمثابة آخر بقايا شبابه، النقطة الوحيدة الصامدة وسط الفوضى المحيطة.

كانوا في ما مضى يتواعدون على الالتقاء على رصيف سكوسّا. أمسيات صيفيّة على غرار تلك الأمسية، تنشأ فيها علاقات غزل، وسط خرير النافورة وحفيف أوراق

الأشجار وقرع جرس الكنيسة معلناً بداية العطلة...

طلب بوظة بالصودا. في الماضي، حين كان يهرب من دروس معهد الإعداد لامتحانات البكالوريا، كان يقصد مع أحد أصدقائه المكان الذي يعدّ ألذّ بوظة بالصودا على الإطلاق: مجمّع متاجر الليدو.

كان الليل أوشك على الهبوط تماماً. وفي ساحة فيكتور هوغو، تعبر بعض السيّارات المتفرّقة. ألقى نظرة حوله. كان الجالسون على رصيف المقهى قلائل. في العمق، إلى اليسار، لمح «ميكي بام بام»، ولم يسعه سوى أن يتأمّل شعره الأشقر البلاتينيّ يلتمع في أضواء النيون، والخصلة المنسدلة متكوّرة فوق جبينه، والتماوجات التي تجعله ينسدل متداخلاً حتّى عنقه. كان ميكي وفيّاً لتسريحة شبابه.

المأساة التي قلبت حياة ميكي كانت إغلاق حانة في الشانزيليزيه، عند زاوية الجادّة وشارع لينكولن. فيها كان يتربّع منذ أكثر من عشرين عاماً مثل ملك على عرشه، وهناك عرف فترته الذهبيّة خلال الحرب، حين كان الفتيان من جيل «السوينغ» يرتادون ذلك المكان، وكان

ميكي من أشهرهم. لقبه الشرفيّ يعود إلى تلك الفترة: «ميكي دو بام بام». وبعدما خسر معقله، هاجر بائساً إلى «سكوسّا».

كان يوتلاند يختلس النظر إلى ذلك الشابّ المسنّ الستّينيّ، يراقبه جالساً وحيداً إلى طاولته، مطأطئ الرأس تحت وزن شعره المصبوغ. أيّ أحلام كانت تراود ميكي دو بام بام في ذلك المساء؟ ولماذا يبقى البعض حتّى في شيخوختهم أسرى حقبة، سنة واحدة وحيدة من حياتهم، فيتحوّلون تدريجيّاً إلى نسخة مشوّهة ومترهّلة عمّا كانوا عليه في أوج عنفوانهم؟

وهو نفسه، فيليب يوتلاند، ألن يصبح بعد بضع سنوات شبيهاً بميكي دو بام بام؟ ذلك الاحتمال بعث فيه قشعريرة، لكنّه لم يكن فقد طباعه المرحة، فتعجّب هو نفسه لكلّ تلك الخواطر الرصينة التي تجول في باله، وقرّر أن يمنح نفسه منذ ذلك المساء لقباً للمستقبل: «هاملت سكوسّا».

على مسافة بضع طاولات، كانت فتاة في حوالى العشرين جالسة برفقة رجل شائب الشعر، منتصب على

كرسيه مرفوع الرأس، محاطاً بهيبة هواة ركوب خيول السباق، وعلى طيّة سترته وسام. لا بدّ أنّه جدّها، فكّر يوتلاند. نهض الرجل وتوجّه إلى داخل المقهى، متّكئاً إلى عصا.

مكتبة الرمحي أحمد ٩٨

بقيت الفتاة وحيدة إلى الطاولة. كانت فتاة شقراء، رأسا خدّيها بارزان وجبينها تعترضه خصلة شعر. كانت تحتسي كوبها من شراب الرمّان بقشّة.

راح يوتلاند يتأمّلها مليّاً. كانت تشبه خطيبته السابقة البلجيكيّة.

ماذا لو اغتنم غياب الجدّ المؤقّت، فبادرها وحدّد لها موعداً، منحنياً صوبها كمن يدعو امرأة إلى الرقص؟

كان ينظر إليها وهي تشرب كوبها من شراب الرمّان. بلغ الثامنة والثلاثين في شهر يونيو، لكن لم يكن يسعه بعد الإقرار بصورة حاسمة بأنّ العالم ليس حفلة ساهرة أبديّة.

7

رفيقي دانيال ديسوتو طُرد هو أيضاً من المدرسة، فاضطررت إلى البحث عن شريك جديد في مقصورة عرض الأفلام.

عانى ديسوتو الموقف الصعب ذاته مثل يوتلاند من قبله: إعلان طرده في المقصف، صعود الأدراج عند مدخل القصر أمام جميع التلاميذ والأساتذة الصامتين، صوت بيدرو يبلّغه بجفاء بأنّه «غير جدير»... لكنّ ردّ فعله لم يكن كردّ فعل سلفه.

بعد بضعة أسابيع على طرده، زارنا وهو يقود سيّارة سبورت حمراء أوقفها في باحة القصر. كان ذلك في ساعة الفرصة، وتحلّقنا بإعجاب حول تلك السيّارة. شرح لنا ديسوتو أنّ والده الذي كان يناديه «دادي» بالإنكليزيّة، أهداه إيّاها بمناسبة عيد ميلاده. وإذ أبدينا دهشتنا لقيادته

السيّارة قبل بلوغ سنّ الحصول على رخصة القيادة، كشف لنا أنّ «دادي» قام بـ «ترتيبات» حتّى يحصل على الجنسيّة البلجيكيّة: يبدو أنّ «الناس يقودون بلا رخصة» في بلجيكا. كنّا نعلم جميعنا إلى أيّ حدّ كان «دادي» يدلّل ابنه، منذ أن عرض علينا ديسوتو صور المركب الشراعيّ الذي قدّمه له «دادي» في الصيف السابق.

لفتت حلقتنا انتباه السيّد جانشميت الذي طلب من ديسوتو أن يغادر على الفور. فهو طُرد بسبب سلوكه المستهتر ونزوات الطفل الغَنِج التي كانت تبدر عنه، ولم يكن المدير يرغب في رؤيته من جديد في فالفير. لم يحرّك ديسوتو ساكناً، بل فتح الباب ببطء وعلى شفتيه ابتسامة، وأخرج من علبة القفّازات حزمة من علب سجائر أميركيّة ومدّها لبيدرو قائلاً:

- تفضّل سيّدي المدير... هذا من قبل «دادي»...

ثمّ انطلق بأقصى سرعة.

*

بعد خمسة عشر عاماً، كنت أزور منتجعاً على الساحل

الأطلسي، حين التقيت به على الكورنيش البحريّ. عرفني على الفور. كان خسر خدّيه المكتنزين وباتت خصلة بيضاء تزيّن شعره.

اتّصل بي في اليوم التالي ليدعوني لتناول الغداء في النادي المحلّيّ لكرة المضرب.

كان الطقس جميلاً. تحت تعريشة نادي كرة المضرب الفسيحة، كانت طاولتان محجوزتين إلى جانب البار باسم «السيّد ديسوتو».

اقترب منّي رجل ستّينيّ بمشية رشيقة، مرتدياً ملابس كرة المضرب. مدّ لي يده مبتسماً. ابتسامة زواحف. أكان ذلك بسبب شكل شفتيه الملوّيتين؟

- هل تنتظر دانيال؟

- أجل.

- الدكتور ريوايون. أنا صديق لدانيال.

ضغط بيده على كتفي في حركة شبيهة بحركة رجل دين، ليحملني على الجلوس مجدّداً. لماذا شعرت على الفور بعدم الارتياح حيال ذلك الدكتور ريوايون؟ تلك أمور لا يمكن تفسيرها. كان يراقبني بعينين متغضّنتين مشقوقتين،

وعلى شفتيه المتلوّيتين تطفو ابتسامة. رحت أبحث عن جملة أقطع بها الصمت.

- هل تعرف دانيال منذ زمن طويل؟

- أجل، منذ زمن طويل. وحضرتك؟

لمست تحدّياً في ذلك السؤال، وكأنّني أشكّل تهديداً له، أو أنّه كان يرى فيّ خصماً.

لحسن الحظّ، انضمّ إلينا ديسوتو. كان يرتدي سروالاً قصيراً أبيض وسترة رياضيّة كحليّة. كنّا كلانا متهيّبين لذلك التلاقي.

- هل تعرّفت على الدكتور ريوايون؟ إنّه أقرب أصدقائي، قال لي باندفاع. أتعلم، إنّني مدين له بالكثير...

- لا دانيال، على الإطلاق، احتجّ الدكتور. صداقتك هي التي تشرّفني...

ثمّ التفت صوبي:

- دانيال متزوّج من امرأة رائعة. هل تعرفها؟

- سوف تحضر زوجتي حالاً، قال لي دانيال وهو يبتسم. هل تودّ تناول كأس قبل الغداء؟

وإذ تردّدت، التفت صوب النّادل.

- كأسَي أميريكانو، ميشال. وكوباً من شراب اللّوز للدكتور ريوايون.

كان اندفاع «ميشال» يشير إلى أنّ ديسوتو شخصيّة محترمة هناك، في نادي كرة المضرب. جلسنا على الكراسي الخشبيّة البيضاء، حول واحدة من الطاولتين المحجوزتين باسم السيّد ديسوتو.

- هل تعرف أنّك أمام رجل استثنائيّ، قال لي ديسوتو مشيراً إلى الدكتور. سوف أشرح لك...

هزّ ريوايون كتفيه بتواضع. اقتربت منّا مجموعة تضمّ امرأة شابّة شقراء وعدّة فتيان بلباس كرة المضرب.

- غونيلا، زوجتي، قال ديسوتو مقدّماً لي الشقراء الرائعة الجمال.

لم تكد تنظر إليّ، مكتفية بإشارة سريعة برأسها. ثمّ ابتسمت للدكتور ريوايون. نهض الأخير وقبّل يدها بالرقّة ذاتها التي أبداها قبل قليل حين ضغط على كتفي.

طلب دانيال ديسوتو سلطات بالخضار ونبيذاً ورديّاً لنا، وبيضة نيئة ومياه معدنيّة للدكتور ريوايون. بدا أنّه

يعرف عاداته بأدقّ تفاصيلها.

كانت زوجة ديسوتو سويديّة. وكانت تتكلّم الفرنسيّة بصوت خفيض وحازم لا يقبل الجدل. كان الفتيان الثلاثة أو الأربعة الذين يتناولون الغداء معنا يحيطونها بالاهتمام، لكن بدا جليّاً أنهّم يكنّون القدر ذاته من الإعجاب لدانيال ديسوتو أيضاً.

كان الدكتور ريوايون ينادي أولئك الفتيان بأسمائهم ويعاملهم بالحنان الخشن ذاته الذي يبديه قائد فرقة كشّافة عجوز يقسو على أشباله. لم يتحدّثوا خلال الغداء سوى عن ضربات إرسال وضربات خلفيّة سدّدها دانيال ديسوتو من هنا وهناك خلال الصبيحة، وكان الجميع يهنّئونه على نوعيّة ضرباته الساحقة. الانتقادات الوحيدة وسط هذا الثناء كانت تصدر عن الدكتور ريوايون، وكان ديسوتو ينصت له بخشوع. ما الدور الذي كان يلعبه ذلك الدكتور في حياة رفيقي القديم؟ كانت غونيلا ديسوتو تدخّن سيجارة بخمول، وأعلنت أنها تعتزم لعب كرة المضرب بعد الظهر. راح الفتيان يتشاجرون ليروا من الذي سيفوز بشرف أن يكون شريكها، باللهفة ذاتها

التي يمكن أن يتساءل بها رجال حاشية الملك الشمس إن كانوا من المحظيّين الذين سيُدعون إلى الزيارة المقبلة لقصر مارلي(١). اقترح عليهم ريوايون بصوت كاهن أكبر أن يُسحب الاسم بالقرعة.

كلّ من يعبر تحت التعريشة كان يحيّي دانيال ديسوتو وزوجته والدكتور ريوايون. أمّا الساقي خلف منضدة الشرب، فكان يحيطنا باهتمامه ويستبق أدنى رغباتنا. كان دانيال وغونيلا ديسوتو ملك نادي كرة المضرب ذاك وملكته، وجميع أعضاء النادي أتباعهما، والدكتور ريوايون مستشار الظلّ لهما. لا بدّ أنّ داني كان يتمتّع بـ «أوضاع مزدهرة» وفق العبارة الرائجة في نوادي كرة المضرب والغولف. وكنت أعتزّ برؤية صديقي متزوّجاً من امرأة جميلة للغاية، وقد أصبح رجلاً ذا شأن.

كنت أعرف جيّداً الأحجار الكريمة، ولفتتني على أصابع غونيلا ديسوتو زمرّدة من الأورال وماسة من أنقى الأصناف. رفعت رأسي والتقت عيناي بعيني

(1) Marly مارلي هو القصر الذي شيّده ملك فرنسا لويس الرابع عشر المعروف بلقب «الملك الشمس» لقضاء بعض الوقت فيه مع المقرّبين منه بعيداً عن بلاط قصر فرساي وحشوده.

الدكتور ريوايون. كانت نظرته غريبة، شبيهة بنظرة يلقيها محتال محترف إلى لاعب جديد يشتبه بأنّه يمسك هو أيضاً بأوراق مغشوشة.

- حَجَران رائعان، أليس كذلك؟ نصحت غونيلا بهما بسبب مزاياهما العلاجيّة، بادرني ريوايون.

- يعني؟

- هذا يعني أنّ الدكتور ريوايون قادر على إشفائك من أيّ آلام، قالت لي غونيلا بنبرة جافّة.

- صحيح يا صديقي، أكّد دانيال ديسوتو. وبإمكان الدكتور ريوايون أن ينوّمك في لحظة، هنا مباشرة... يكفي أن يمسّد جبينك... هيّا دكتور...

- لا تتصرّف برعونة دانيال.

انقبضت شفتا الدكتور المرتسمتان في خطّ متماوج. هالتني قسوة وجهه.

- عذراً دكتور... أردت فقط أن يرى صديقي ما أنت قادر على القيام به...

- الطبّ مسألة جادّة دانيال.

قال ذلك مستعيداً نبرته المتملّقة.

- الدكتور ريوايون على حقّ حبيبي، حسمت غونيلا.

بقيتُ طوال ساعات العصر جالساً تحت التعريشة. كان دانيال ديسوتو حجزَ الملعب المركزيّ ليلعب كرة المضرب. وبين الحين والآخر، كان يطلّ عليّ للحظة، مبدياً عصبيّة راحت تتزايد مرّة تلو المرّة، وهو يردّد أنّه «ليس بأفضل حالاته»، رغم أنّ معجبيه الشبّان كانوا يغدقون عليه بالتشجيع بلا توقّف. بدت غونيلا قلقة وشرحت لي بصوتها الخفيض أنّ دانيال لا يستكين وأنّه بحاجة متواصلة إلى بذل مجهود. من حسن الحظّ أنّ الدكتور ريوايون يسهر عليه.

عند انتهاء المباراة، ألقى دانيال مضربه بحنق على أحد أعمدة التعريشة، وذهب للجلوس إلى منضدة الشرب، حارداً كطفل. لا بدّ أنّ المحيطين به كانوا معتادين على نوبات المزاجيّة تلك، إذ لم يحاول أيّ من المتملّقين له، ولا حتّى الدكتور ريوايون نفسه، مقاطعة خلوته المتجهّمة، فيما انسحبت غونيلا بعدما التقطت مضرب دانيال وهمست بضع كلمات في أذن الدكتور ريوايون الذي هزّ

رأسه وتوارى بدوره.

ربّتُّ على كتف دانيال. التفت وابتسم لي، ابتسامته تلك الطيّبة والحزينة بعض الشيء كما في أيّام المدرسة. ثمّ اقتادني إلى آخر التعريشة، حيث لم يكن هناك أحد. جلسنا على مقعد.

- ما أخبار «دادي»؟ سألته.

حسناً، كان «دادي» لا يزال صامداً. في الخامسة والسبعين، كان «دادي» يقاوم العمر بقوّة. أخبرني ديسوتو بالمناسبة أنّه كان هو وزوجته يقضيان عطلة هناك مع «دادي» و«مامي»، كما كان ينادي والدته. كانوا ينزلون جميعاً في فندق بيلفو، ذلك الفندق الذي كان دانيال منذ طفولته يقضي فيه كلّ سنة شهراً مع «دادي» و«مامي». كان يشعر وكأنّ فندق بيلفو بمثابة «منزل» لهم، على ما قال لي. وكان نادي كرة المضرب ميدانه هو: كان في الثالثة من العمر حين سجّله «دادي» فيه بعد الحصول على إذن خاصّ.

وبما أنّنا كنّا صديقين منذ وقت طويل جدّاً، أفرغ لي كلّ ما في جعبته: فبعد عام من التردّد والمماطلة، عرف فيه

دانيال الفقر والبؤس، حيث عمل لدى صديق لوالده تفهّم وضعه، وافق «دادي» أخيراً على أن يدَعه يتزوّج من غونيلا، بشرط أن تتخلّى غونيلا عن مهنتها كعارضة أزياء، وأن تعتنق الديانة اليهوديّة. اشترى لهما «دادي» شقّة فسيحة في شارع جان غوجون، وتكفّلت «مامي» بتصميم ديكورها. أجل، «دادي» هو الذي سلّفه المال ليشتري الحلي لغونيلا.

عهد إليه «دادي» بوظيفة صغيرة لا تتطلّب جهداً كبيراً في شركته المتخصّصة في تصدير الأفلام واستيرادها. ميزة عمله أنّه يسافر كثيراً ولا يفوّت أيّاً من مهرجانات كان، وهو ما كانت غونيلا تجده ممتعاً للغاية.

والدكتور ريوايون وسط كلّ ذلك؟ لمست بعض التحفّظ لدى دانيال. آه! الدكتور ريوايون كان أشبه بمستشار يرافقهما في جميع تنقّلاتهما. كان يسكن معهما في شارع جان غوجون. هو وغونيلا مدينان بالكثير للدكتور ريوايون. و«دادي»، ما رأيه في ذلك الدكتور؟ هذه المرّة، لم يجب دانيال. بل حوّل مجرى الحديث، معلناً لي أنّهما هو وغونيلا يرغبان في إنجاب طفل. وفي الشقّة في شارع جان

غوجون، باتت غرفة المولود جاهزة. غرفة شاسعة مطليّة باللّون الأزرق السماويّ. اعترف لي دانيال بأنّه يذهب أحياناً لينام فيها وحيداً. فكرة عجيبة، أليس كذلك؟

رافقني حتّى مدخل نادي كرة المضرب الذي كان يرسم حدود مملكته. بدا متأثّراً حين طلبت منه أن ينقل مودّتي وأطيب ذكرياتي إلى «دادي» و«مامي». عبرت الطريق الوطنيّ والتفتّ إليه. فرأيته يلوّح لي بذراعه، والغمّ بادٍ عليه، مثل وليّ عهد أبديّ ينتظر العرش، بخصلته البيضاء المنسدلة على جبينه، خصلة هي الإشارة الوحيدة إلى مرور السنين، غير أنّه يصعب تصديقها، تلك الخصلة البيضاء الناصعة إلى حدّ يبدو معه الشّعر مصبوغاً.

*

مكتبة الرمحي أحمد

أحسستُ بأحدهم يضغط برفقٍ على كتفي. التفتّ. كان هو الدكتور ريوايون.

- أودّ التحدّث إليك، قال لي بصوت كتيم.

كان يتأبّط محفظة رقيقة من الجلد البنيّ، يتباين لونها

مع بياض ملابسه الرياضيّة. هل يعقل أن يكون هناك بالصدفة؟ هل تعقّبنا أنا ودانيال عند خروجنا من النادي؟ أم أنّه وقف مترصّداً على حافة الطريق في انتظاري؟

- تعال من هذه الناحية لو سمحت...

وصلنا بعد مسافة قصيرة إلى ملعب غولف صغير، يفصله عن الطريق الوطنيّ سياج خشبيّ أبيض وجنبات من شجيرات الرباط. كانت امرأة شقراء منهمكة خلف مكتب الاستقبال في مبنى صغير من الطراز الريفيّ سقفه من القشّ.

- هل تودّ اللّعب دكتور؟

مدّت له مضرب غولف حتّى قبل أن يجيبها.

- لا، لا. نريد فقط تناول كوب.

دعاني بإشارة من يده للجلوس إلى إحدى الطاولات.

- قدحان من شراب اللّوز...

- حسناً دكتور.

وضع محفظته مسطّحة على الطاولة وأخذ يمسّد جلدها برؤوس أصابعه.

- أفضّل ألّا تقابل دانيال بعد الآن، قال لي بجفاف.

- لماذا؟

- لأنّني أعتقد أنّ هذا لا يفيده.

كانت عيناه تخترقانني بنظرة الأفعى تلك. أعتقد أنّه كان يريد أن يفزعني، لكنّني شعرت بالأحرى بالرغبة في الضحك.

- وكيف يمكن أن ألحق به الأذى؟ فأنا من أصدقاء طفولته...

- تفوّهت لتوّك بالكلمة الصحيحة.

لانت نبرته. ومن جديد، ذلك الصوت المعسول، والألفاظ الخارجة من أطراف أسنانه. كان يواصل مداعبة سطح محفظته، ممسّداً جلدها بيده ذهاباً وإياباً، والتمعت في ذهني صورة فرضت نفسها بوضوح حقيقةٍ جليّةٍ وقوّتها: تراءت لي تلك اليد تداعب برقّةٍ مؤخّرة غونيلا ديسوتو.

- هل أنّك تتّفق جيّداً مع زوجة دانيال؟ سألته بلا مواربة.

- أجل، كثيراً. لماذا؟

- هكذا...

- قلت قبل قليل كلمة أساسيّة، تابع ريوايون بعصبيّة.

كلمة طفولة... دانيال لا يزال طفلاً... وهنا تكمن المشكلة...

احتسى ببطءٍ جرعة من شراب اللوز، ثمّ حرّك شفتيه على طريقة ذوّاق يختبر نبيذاً جديداً.

- وتجاه الأطفال، ثمّة سلوك ينبغي اتّباعه... الأمر يتطلّب الكثير من السّطوة... وأنا هنا من أجل ذلك... والدا دانيال ضعيفان ومسنّان أكثر من أن يقوما بهذا الدور... أنا وحدي قادر على حل المشكلة... بالطبع، بموافقة تامّة من زوجته.

وفيما يقول ذلك، كان يداعب بسبّابته سحّاب المحفظة.

- إن كنت أفضّل ألّا تعود تقابل دانيال، فذلك لصالحه... كلّ ما يذكّره بالطفولة أو المدرسة لن يؤدّي سوى إلى تفاقم وضعه... يؤسفني أن أقول لك ذلك، لكنّ تأثيرك عليه سيكون مضرّاً... دعه وشأنه...

من المؤكّد أنّه لم يكن يستحسن ابتسامتي.

- الوضع أكثر جدّيّة ممّا تظنّ... والدا دانيال يتفهّمان ذلك جيّداً، وأعطياني مطلق الصلاحيّات... لديّ هنا كلّ الوثائق التي تثبت لك ما أقوله...

فتح سحّاب محفظته، شادّاً عليه بحركة بطيئة رقيقة كمن يفرّق بتلتَي زهرة.

- هل تودّ إلقاء نظرة على الوثائق؟

- لا داعي.

مددت رأسي صوبه، والابتسامة لم تفارق شفتيّ، ابتسامة لا بدّ أنّها كانت متوعّدة.

- أنا الوصيّ على دانيال... وصيّ رسميّ تماماً، تمتم ريوايون.

- وما رأي زوجته في المسألة برمّتها؟ سألته.

- إنها تؤيّدني بالكامل. وهي تساعدني في مهمّتي.

قال ذلك وقد نهض، ووقف متصلّباً أمامي في ملابس كرة المضرب، متأبّطاً محفظته الجلديّة البنيّة. من الجنبات كانت تصلني نسمات محمّلة بعطر جَنبات الرباط، عطر نفّاذ ذكّرني بمتاهة فالفير.

- عذراً سيّدي، قال لي، لكنّ السيّدة ديسوتو في انتظاري لجلسة تدليك.

8

كلّ سنة في شهر يونيو، كان عيد المدرسة يجمع في يوم أحد الأهل والأصدقاء. كنّا نسمّيه «عيد الرياضة»، وهاتان الكلمتان بحدّ ذاتهما كانتا تعبّران عن تلك الروح الخاصّة التي تتميّز بها مدرستنا، حيث كانت الرياضة فوق كلّ شيء. وكانت الشارة الزرقاء ذات المثلّث الذهبيّ المخيطة على ستراتنا تحمل كلمة «رياضة» مدوّنة عند قاعدة المثلّث، على هيئة شعار أو واجب ملزم.

كان كوفنوفيتزين يهلّل في أيّام الأحد تلك. ما زلت أذكره، شامخ الرأس، بقميص لاكوست وحذائين رياضيّين وبنطال أبيض، يشرف على مجرى الحفل، مثلما كان المركيز دي كويفاس[1] في زمنه يراقب عروض فرقته

(1) Marquis de Cuevas أو حسب اسمه الحقيقيّ Jorge Cuevas Bartholin (1885–1961) مصمّم عروض باليه أميركيّ من أصل تشيليّ، أسّس مدرسة للرقص وفرقة لرقص الباليه، وعمل مع أشهر الراقصين في حينه وفي مقدّمهم رودولف نورييف.

للباليه. وفي تلك المناسبة، كان يؤذن استثنائيّاً لكلبه شورا بالتجوّل من دون طوقه. أمّا نحن التلاميذ، فكنّا نتبارى في تحقيق الإنجازات الرياضيّة، بين سباقات المائة متر، وألعاب القوى، والتّسابق على اجتياز مضمار هيبير، ومباراة القفز بالزانة. وكان الحفل ينتهي عند المغيب بمباراة هوكي، يتولّى بيدرو نفسه تحكيمها.

كان القافزون بالزانة نجوم ذلك النهار بلا منازع. وكان أفضلهم يتلقّى كأساً يقدّمها له كوفنوفيتزين شخصيّاً. لكن في تلك السنة تحديداً، لم أكن أتابع مآثر رفاقي بقدر ما كنت أراقب مارتين، شقيقة إيفون.

كانت ممدّدة بثوب السباحة على العشب، عند حافّة حوض السباحة. وكان أبطال النهار يحيطون بها: كريستيان واينغراين وبوردون الأكبر سنّاً منّا والفائزان الأكبران في مباريات القفز بالزانة، ثمّ فيليب يوتلاند وماكفاولز وشاريل وغيرهم أيضاً... كان إيفون قدّم شقيقته للجميع، ثمّ وقف بجانبها، خجولاً ورصيناً، مثل مترجم أو مرافق فارس يحمل درعه. كان فخوراً بأن تكون مارتين محطّ الأنظار.

أنا أيضاً كنت أشعر بالاعتزاز، إذ أراقبهم يجهدون للفت انتباهها. كنت واثقاً من أنّه لم يكن هناك فتاة أخرى لها ذلك الشعر الكستنائيّ الأصهب، والعينان الفاتحتا اللون، والأنف الأخنس قليلاً عند طرفه، والساقان الممشوقتان، وتلك الرقّة في حركة صدرها حين تستدير وتشعل سيجارة من الولّاعة التي يمدّها لها واينغراين. كانت صديقتي منذ الطفولة.

كانا هي وشقيقها يسكنان القرية، في شارع الدكتور دوردين، بيت يكسو اللبلاب واجهته، وكان إيفون تلميذاً نصف داخليّ في المدرسة. كنّا نحسده لأنّه يعود كلّ مساء إلى منزله. كان والده يملك مشتلاً. وكانت الدفيئات خلف المنزل تحتضن في ما مضى ألعاب الغمّيضة التي كنّا نلعبها. فأنا سكنت تلك القرية طوال ثلاث سنوات ونصف، وعرفت إيفون وشقيقته في مدرسة جان دارك. في تلك الفترة، كنّا أنا وهي وإيفون في السنّ ذاتها، تسع سنوات أو عشر، لكن إخال أنّ مارتين كانت حينذاك بالعمر ذاته كما في ذلك النهار، على حافة حوض السباحة. فهي التي كانت تعدّ لنا وجبات العصر، وتصطحبنا في

نزهة في الغابة وصولاً إلى قرية ميتز، وهي التي كانت تقرّر ما إذا كنّا سنلعب الغمّيضة أو سنلهو بطيّارات الورق.

كنت أتفوّق على الآخرين بأمر واحد، هو أنّني عرفت مارتين قبلهم بزمن طويل.

راح واينغراين وبوردون يستعرضان على شرفها غطسات أخذت تزداد جرأة، فقام الأوّل بـ «قفزة الملاك»، فيما نفّذ الثاني قفزة بثني الساقين، بعدما مشى على يديه حتّى حافّة الحوض. واحتفاءً بعيد الرياضة، كنّا أسرفنا بعض الشيء في صبغ مياه ذلك الحوض بأزرق الميثيلين، وحين كان واينغراين وبوردون يعودان للجلوس بيننا، كانت بقع شبيهة بآثار حبر تسيل على ذراعَي كلّ منهما وساقيه.

انضمّ رجل أربعينيّ إلى مجموعتنا. أتراه كان تلميذاً سابقاً في مدرستنا أم مجرّد واحد من الأشخاص الذين التقى بهم يوتلاند وواينغراين خلال السهرات الكثيرة التي كانا يتألّقان فيها في باريس؟

هو أيضاً بدا مفتوناً بمارتين. لم يكن يحيد بنظره عنها. كان قدّم نفسه لها قبل ذلك، قائلاً بصوت هزيل: «دا

سيلفا». وبما أنّه ألمح إلى رحلة وشيكة إلى ساو باولو، استنتجتُ أنّه برازيليّ. كان يتكلّم الفرنسيّة بلا أدنى لكنة. لماذا كان واينغراين وبوردون ويوتلاند ينادونه بتودّد «بايبي»؟ أكان ذلك من وحي وجهه المستدير وشعره البنيّ المجعّد؟ أم بسبب لثغة تكاد لا تُلاحظ؟

- هل أنتِ... تلميذة في هذه المدرسة؟ سأل مارتين.

قهقه واينغراين بالضحك.

- هي؟ تلميذة في فالفير؟ مسكين عزيزي «بايبي»...

ثمّ أضاف ملتفتاً إلى مارتين:

- اعذريه... هو ليس معتاداً... في البرازيل...

- هل أنت حقّاً برازيليّ؟ سألته مارتين. كان اهتمامها المفاجئ بـ «بايبي دا سيلفا» ذاك يقلقنا، أنا وإيفون.

- سؤال في محلّه، قال واينغراين. فمنذ أن تعرّفت على «بايبي»، ولديّ شكوك في هذا الشأن.

- لا تسمعي كلامه آنستي، احتجّ «بايبي» بصوته الهزيل. إنّني برازيليّ، وإن كنت لطيفة معي، فسوف أُريكِ جواز سفري.

لم تحضر مباراة الهوكي، رغم أنّ واينغراين وبوردون

توسّلا إليها أن تبقى، مؤكّدين لها أن وجودها ضروريّ. لم تأخذ بحججهما. بل توجّهت مرتديةً فستانها الأزرق السماويّ صوب بوّابة المدرسة، بالمشية المتوانية ذاتها التي كانت تتسكّع بها أيّام الخميس، حين كنّا نذهب أنا وهي وإيفون عند العصر للمّ الكستناء في الغابة.

حاول واينغراين أن يمسك بذراعها، لكنّها أفلتت منه وهي تضحك.

- ألا تريدين أن ندّعي بأنّنا تزوّجنا للتو؟ سألها.

- لا... لا أريد الزواج منك.

- إذن مع من تودّين الزواج؟ سأل بوردون.

- مع الأكثر ثراءً، أجابت.

والأكثر ثراءً كان بالتأكيد واينغراين الذي كنّا نلقّبه «ابن بنك الحسومات». أو ماكفاولز الذي ابتكرت جدّته الأميركيّة مستحضرات التجميل «هارييت ستراوس».

- أتعلمين، جميعهم أثرياء، ردّ إيفون محبطاً.

- الأكثر ثراء يبقى على ما أعتقد «بايبي»، قال واينغراين. أليس كذلك يا «بايبي»؟

هزّ «بايبي» كتفيه.

- لا تنسي آنستي، عليّ أن أريك جواز سفري، قال «بايبي» وعلى وجهه ابتسامة مليئة بالإيحاءات.

- هذا ما أعوّل عليه...

ما كانت طبيعة النظرة التي رمقت بها «بايبي» دا سيلفا ذاك؟ هل كانت ساخرة؟ أو مهتمّة؟ أم الاثنين معاً؟

ابتعدت عن المجموعة من غير أن تودّعنا، وكأنّها سئمت رفقتنا. تركتنا هناك، واجتازت بوّابة المدرسة، ثمّ عبرت الجسر الصغير فوق نهر بيافر. أمّا نحن، فبقينا خلف البوّابة، نتابع بأنظارنا البقعة الغضّة التي يحدثها فستانها في عتمة الغسق.

*

اعتباراً من ذلك الحين، أخذوا يحضرون كلّ يوم سبت لاصطحابها في سيّارة لانسيا أو في سيّارة إنكليزيّة ضخمة يقودها دا سيلفا. كان دا سيلفا يمرّ قبل ذلك بالمدرسة لإحضار واينغراين وبوردون واثنين أو ثلاثة آخرين يجلسون محشورين على المقعد الخلفيّ. كان «بايبي»

يفرمل دفعة واحدة أمام المنزل في شارع الدكتور دوردين ويطلق بوق سيّارته عدّة مرّات. عندها تقبّلنا مارتين أنا وإيفون، وذهنها تائه في أمور أخرى. ثمّ تهرع إلى السيّارة، فينحدرون بأقصى سرعة على الجادّة المحاطة بأشجار الزيزفون، المؤدّية إلى الطريق الوطنيّ.

كنت أبقى في القرية مع إيفون. لم يعد لديه أيّ رغبة في الذهاب إلى باريس، مثلما كان يفعل عادةً بعد ظهر السبت برفقة شقيقته. في تلك الأيّام، كنت أنتظرهما في محطّة مونبارناس. نشاهد فيماً في السينما، أو تجرّنا مارتين خلفها في جولة على المتاجر. في الصيف، نتنزّه في غابة بولونيا، وفي وقت العشاء، نتناول شطائر على رصيف أحد المقاهي. ثمّ أرافقهما إلى مونبارناس حين يحين موعد القطار الأخير.

من دون مارتين، صارت ساعات العصر تبدو لنا فارغة، وكنّا نحسد واينغراين وبوردون ويوتلاند والآخرين من أعضاء الشلّة التي باتت هي نجمتها. كانوا يزدروننا، أنا وإيفون، بسبب سنّنا. فجميعهم في التاسعة عشرة أو العشرين، رغم أنّهم ما زالوا تلاميذ في الصفّين الأوّل والثاني الثانويّين.

و«بابيي» دا سيلفا؟ ما كان محلّه من الإعراب تحديداً بينهم؟

كانت تعود قرابة الساعة العاشرة من المساء، وأنا لا أزال برفقة إيفون في غرفته أو في الحديقة. كانت تتوخّى إثارة أقلّ قدر ممكن من الضجّة، لكنّنا كنّا نضبط حفيف خطاها الخفر. لم تشأ قطّ أن توضّح لنا بدقّةٍ كيف قضت نهارها. أحياناً كانت تكشف لنا أنّهم رافقوها إلى السينما أو إلى حفلة ساهرة. ثمّ تسألنا بدورها عنّا. كانت تبدو محرجة بعض الشيء لتركنا يوم السبت، وذات مساء، روت لنا، حرصاً منها على الأرجح على أن تثْبت لنا استقلاليّتها، أنّ واينغراين أراد أن يهديها ولّاعة ذهبيّة مكسوّة بطلاء أسود لمّاع، غير أنّها رفضت الهديّة. كما أنّها رفضت هديّة من ماكفاولز، «حقيبة هارييت ستراوس لمستحضرات التجميل» زرقاء من جلد التمساح.

يبدو أنّ واينغراين سألها من الذي سوف «يفوز بحظوتها». فأجابته أنّها «لن تمنح حظوتها لأحد».

حاولنا أنا وإيفون التقصّي أكثر حول الموضوع في المدرسة، فكنّا ننصت لأحاديث أعضاء الشلّة. لكن ما

إن نقترب منهم حتّى يخفضون أصواتهم ويطلقون قهقات ساخرة، وكأنّهم يعرفون عن مارتين أمراً لن يخطر حتّى ببالنا.

ذات يوم، خلال الفرصة الرئيسيّة في الحديقة، أعلن لنا واينغراين، أنا وإيفون، بنبرة مريرة أنّ مارتين «مشغوفة» بـ «بايبي» دا سيلفا.

*

بالفعل، بات «بايبي» يأتي وحيداً لاصطحابها السبت من شارع الدكتور دوردين. سأل إيفون شقيقته إن لم يكن بوسعنا كلينا مرافقتها، لكنّها رفضت بنبرة قاطعة. وإذ تنبّهت إلى أنّها آلمتنا، عادت وقالت:

- سوف أفاتحه بالأمر في المرّة المقبلة.

لا بدّ أنها لم تكلّمه في المسألة إطلاقاً، ولم نجرؤ من جانبنا على تذكيرها بوعدها.

كانت تترقّب سيّارة اللانسيا من نافذة غرفة إيفون. ولم تعد في ذلك الحين موجودة معنا في ذهنها. كانت تبدو أكبر سنّاً بفستانها الجديد وحذاءيها العاليَي الكعب. وكانت

تتبرّج.

لم يعد بحاجة إلى إطلاق بوقه. فما إن تتوقّف سيّارة اللانسيا أمام المنزل، حتّى تهرع مارتين منحدرة على الأدراج. في هذه الأثناء، يكون فتحَ الباب، فتندفع داخل السيّارة وتجلس بجانبه. عندها يقلع مطلقاً العنان لسيّارته، وتلك العجلة كانت تبدو لنا أنا وإيفون مريبة.

أخذ، أسبوعاً بعد أسبوع، يعيدها إلى المنزل في ساعة متأخّرة أكثر وأكثر. أوّلاً في الساعة العاشرة، ثمّ الحادية عشرة، ثمّ منتصف الليل. كنّا أنا وإيفون ننتظر عودتها.

وذات يوم سبت، انتظرنا حتّى الساعة الثانية من الصباح. كان والدا إيفون يغيبان عن المنزل السبت والأحد، وكانت عمّة عجوز تسكن جناحاً خلف المنزل تعدّ لنا الطعام وتسهر علينا. غير أنّها كانت تخلد إلى النوم في ساعة باكرة جدّاً.

بدأ القلق يساورنا، وأراد إيفون الاتّصال بواينغراين أو بوردون، لكنّنا لم نكن نملك عنوان أيّ من أفراد الشلّة أو رقم هاتفه. هل كان «بايبي» دا سيلفا ذاك مدرجاً في دليل الهاتف؟ هل كان يسكن باريس؟ حين كنّا نطرح السؤال

على مارتين، لم تكن تجيبنا قطّ، رغم أنّها من المفترض أن تعرف عنوانه.

سمعنا صوت محرّك يقترب ويزداد وضوحاً وسط الصمت. ظهرت سيّارة اللانسيا عند أسفل الجادّة المحاطة بأشجار الزيزفون. كان هيكلها الرماديّ يلتمع في ضوء القمر. أطفأ إيفون الضوء في غرفته حتّى لا يلمحانا عند النافذة. كانت سيّارة اللانسيا تصعد المنحدر متباطئة. توقّفت أمام المنزل، لكنّ المحرّك ظلّ يدور. صفْقة باب. أصداء قهقات. صوت دا سيلفا. خلف النافذة، كنّا أنا وإيفون نحبس أنفاسنا. انحنت مارتين نحو النافذة وقبّلت «بايبي». وقبل أن ينطلق، جعل محرّك السيّارة يهدر بقوّة كعادته. عادة غريبة. بقيت مارتين واقفة بلا حراك على حافّة الرصيف، في انتظار أن تنعطف السيّارة عند زاوية الجادّة.

صفقت باب المنزل خلفها، وبدا وقع خطاها في السلالم متثاقلاً أكثر من العادة. صوت جسد يسقط. وانفجرت بالضحك. هل كانت ثملة؟

دفعت باب غرفة إيفون. ارتسم خيالها داخل إطار

الباب، في ضوء الرواق.

- ماذا تفعلان كلاكما في الظلمة؟

أشعلت النور وتفحّصتنا الواحد تلو الآخر بفضول. ثمّ قهقهت بالضحك من جديد.

- كنّا ننتظرك، قال إيفون.

- هذه حقّاً فكرة ممتازة، أن تنتظراني.

كان خدّاها متورّدين قليلاً، وعيناها تلتمعان. كنت واثقاً من أنّنا إن لمسناها، فسيصعقنا تيّار كهربائيّ. شعرها، عيناها الفاتحتان، فمها الأحمر، بشرتها، كلّ ما فيها بدا مشعّاً.

- لديّ نبأ هامّ أعلنه لكما.

كنّا جالسَين أرضا، مسندين ظهرينا إلى سرير إيفون.

- لا تبقيا على هذا الشكل... وكأنّكما في جنازة.

- هل تمتّعت بسهرتك؟ سأل إيفون بجفاء.

- أجل، كثيراً. لكن لديّ أمر في غاية الأهمّيّة أعلنه لكما... لم لا ننزل إلى الصالون؟...

جرّتنا من ذراعينا وهي تضحك. كان عطرها يمتزج برائحة كحول طفيفة، تساءلتُ إن كانت رائحة كونياك

أو روم.

*

في الصالون، توجّهت إلى خزانة المشروبات وفتحتها.

- ما رأيكما لو نشرب شيئاً؟... موافقان؟

تناولت قارورة تحتوي على سائل أحمر عقيقيّ، وعليها لوحة فضيّة على شكل قلب مثبّتة بواسطة سلسلة صغيرة.

صبّت المشروب في الكؤوس.

- والآن، سندقّ الكؤوس!

كانت تلك أوّل مرّة نشرب فيها الكحول في ذلك الصالون، وكنّا أنا وإيفون نشعر ببعض الحرج، وكأنّنا تسلّلنا إلى هناك خلسة.

ارتمت في إحدى الكنبات.

- حسناً! قرّرت أن أتزوّج، قالت مارتين في همس.

حملق فيها إيفون بعينين جاحظتين. كانت نظرته تعكس الهلع.

- أنت؟ تتزوّجين؟

كانت يدها مطبقة على السلسلة الفضيّة التي تطوّق

الزجاجة. وضعتها في معصمها.

- إذن سوف تتخلّين عنّا؟

بدورها، نظرت إلى شقيقها بذهول. انزلقت السلسلة الفضيّة من معصمها.

- أتخلّى عنكما؟ ماذا تعني؟

- ومع من تنوين الزواج؟ سأل إيفون.

- مع «بايبي»... «بايبي» دا سيلفا...

ذلك اللّقب كان يثير لديّ رغبة في الضحك. ضحكة عصبيّة. «بايبي».

- البرازيليّ؟

- أجل... أتعلمان، إنّه لطيف للغاية... أنا واثقة من أنّكما سوف تنسجمان معه على أفضل وجه.

- لكن ربّما لست بحاجة إلى أن تتزوّجي، قال إيفون بصوت خجول.

خيّم الصمت لحظة. وددت أنا أيضاً أن أدلي بدلوي. كنت أبحث عن عبارات مناسبة لأقول لها إنّ الزواج غير مجدٍ في الحقيقة. لكنّني لم أجرؤ على التفوّه بكلمة.

- بلى... بلى... سوف أتزوّج...

كانت نبرتها جافّة، لا تقبل الجدل. كنّا جالسين أنا وإيفون متشنّجين في كنبتنا.

- لا أرى أيّ تغيير يمكن أن يحصل من جرّاء ذلك... قالت مارتين. سيستمرّ الوضع كما كان عليه من قبل... انظرا... أهداني خاتم خطوبة.

مدّت لنا يدها لنتأمّل خاتمها. كنت فتىً في تلك الفترة، لكن كان بوسعي تمييز الأحجار الكريمة. كانت تلك ألماسة بيضاء رائعة ضاربة إلى الزرقة، على خاتم من البلاتين.

مكتبة الرمحي أحمد @ktabpdf تيليجرام

انحنت نحونا.

- «بايبي» ثريّ جدّاً... لديه أملاك شاسعة في البرازيل... سأقول له إنّه لا يمكننا أن نفترق... ستأتيان للعيش معنا... في مطلق الأحوال، هو على استعداد للقيام بكلّ ما أريد...

لكنّ كلامها كان يخلو من القناعة. كان أمر ما يشارف على نهايته. ألقيت نظرة حولي. كنت أعرف كلّ قطعة أثاث، كلّ زاوية من ذلك الصالون. هناك كنّا نلعب بعد النزهات في الغابة، وهناك نحتفل بعيد ميلاد مارتين

وإيفون. احتفلنا فيه أيضاً مرّة أو مرّتين بعيد الميلاد. شجرة العيد أمام الواجهة الزجاجيّة الدائريّة. كان هناك أيضاً صورة في إطار جلديّ معروضة على الدرج، نظهر فيها أنا وإيفون في سروالين قصيرين، ومارتين متّكئة إلى شجرة، تقضم تفّاحة.

– ملياردير... «بايبي» ملياردير، أتعلمان ذلك؟... ردّدت مارتين. على كلّ حال، سأطلب منه أن يشتري لكما بيتاً في البرازيل.

لم تكن خلعت معطفها بعد. خطر لي أنّها آخر مرّة نجتمع فيها نحن الثلاثة في الصالون...

*

هيهات أنسى ذلك المبنى في شارع بيل فوي، في الجزء من الشارع الذي ينحدر حتّى مستديرة بوجو. اتّصل واينغراين بإيفون قرابة الساعة الخامسة من مساء يوم السبت ذاك، ليقول له «إنّهم» يحتفلون بخطوبة مارتين و«بايبي» دا سيلفا، وإنّهم يرغبون في حضورنا.

صعدنا في القطار، ثمّ في محطّة مونبارناس ركبنا المترو حتّى «بوّابة دوفين». كان المبنى إذن، حسبما شرح لنا واينغراين، عند زاوية شارع بيل فوي وطريق مسدود يحمل الاسم ذاته. واجهة رمليّة اللّون، بلا شرفات ولا إفريزات. نوافذ صغيرة مربّعة، بعضها على شكل كوّات دائريّة. كانت سيّارة اللانسيا مركونة في نهاية الطريق المسدود. إلى يمين سقيفة المدخل، لوحة من الرخام كتب عليها بأحرف بهتت ألوانها «شقق مفروشة».

كان الليل هبط. أكان ذلك في فبراير؟ أم في مارس؟ قطرات من المطر. كنّا أنا وإيفون خلعنا كنزتينا لأنّ الجوّ كان دافئاً.

رواق عريض يكسو أرضه بساط من المخمل الأحمر. من الجانب الأيسر، أبواب مزجّجة. كان واينغراين ينتظرنا في إطار أحدها. أشار لنا أن ندخل.

لم يكن من الممكن الجزم ما إذا كانت تلك قاعة انتظار أو مطعم فندق. جدران مكسوّة بقماش ذي مربّعات اسكتلنديّة. طاولات مستديرة وكراسٍ خشبيّة داكنة. كان بوردون وليباندري وفتى ثالث لا أعرفه متربّعين في الكنبة

الجلديّة لصق الجدار.

- اجلسا، قال لنا واينغراين.

جلسنا إلى إحدى الطاولات، وقد وُزّعت عليها فناجين وإبريق شاي وزجاجة وكؤوس شمبانيا.

- هل تودّان قليلاً من الشاي؟

ملأ فنجانين.

- مارتين قادمة قريباً. إنّها في الأعلى، عند «بايبي»...

- هو يسكن هنا؟ سأل إيفون بصوت خالٍ من أيّ تعبير.

- أجل، إنّه يستأجر غرفة مفروشة، أجاب واينغراين.

كان الآخرون يدخّنون بصمت. ولياندري غفا. كان النور ينبعث من مصباح ذي غطاءورديّ بالقرب منّا، ومن مقصورة للهاتف مغروزة داخل الجدار في عمق الصالة.

- إنّني مسرور حقّاً لوجودكما هنا، قال لنا واينغراين.

كان الآخرون يراقبوننا وعلى وجوههم ابتسامات غريبة.

- إذن تنوي مارتين أن تتزوّج «بايبي»، تابع واينغراين

متّخذاً نبرة واعظة مثل أستاذ يشرح نظريّة علميّة. أنا شخصيّاً، لست موافقاً. وأنت؟

- لا أدري، أجاب إيفون.

كان الجوّ حارّاً جدّاً في تلك القاعة، وكنت أتصبّب عرقاً. إيفون أيضاً.

- لكنّك أنت من أفراد عائلتها... بإمكانك التأثير عليها... أعتقد أنّه يجدر بك أن تكلّمها...

سكب لنفسه كوباً من الشمبانيا وأفرغه جرعة واحدة. علت الحمرة خدّيه. وفي عينيه التمعت شرارة مكر.

- أعرف «بايبي» منذ فترة طويلة... سترتكب خطأ جسيماً إن تزوّجت «بايبي»... وإيّاك...

كان يضغط على معصم إيفون.

- إيّاك أن تظنّ أنّ في الأمر أدنى قدر من الغيرة من جانبي...

التفت إلى الآخرين وكأنّه يطلب منهم أن يشهدوا لصالحه.

- ليس لديك أيّ سبب يجعلك تغار من هذا الشخص، قال بوردون.

- كلّ ما في الأمر أنّني شعرت بالخيبة، قال واينغراين مطلقاً تنهّدة. مارتين خذلتني... ظننتها أرقى ذوقاً...

- بإمكان مارتين أن تفعل ما يحلو لها، قال إيفون بصوت جافّ. هذا لا يعنيك.

كنت أتساءل لماذا كنّا لا نزال جالسين في ذلك الصالون. ويبدو أنّ الفكرة ذاتها خطرت في نفس الوقت لإيفون، إذ نهض.

- مهلاً، قال واينغراين. سأقول لهما أن ينزلا... لا يعلمان أنّكما هنا... إنّها مفاجأة.

توجّه إلى مقصورة الهاتف بمشية مترنّحة، دفع بكتفه الدرفتين الزجاجيّتين، ورفع السمّاعة ببطء. كان إيفون واقفاً.

خرج من المقصورة، واقترب من إيفون وربّت على كتفه.

- «بايبي» سينتزل حالاً... شقيقتك لن تتأخّر.

عدنا وجلسنا من جديد، وعيوننا مسمّرة على قفص المصعد، في أوّل الرواق، إلى اليسار.

- الحرّ هنا كالجحيم، قال واينغراين.

توجّه صوب إحدى النوافذ وفتحها. فانتشرت في القاعة رائحة مطر وأوراق أشجار بليلة، وتسلّلت ريح رفعت قليلاً غطاء طاولتنا الأبيض. كان المصعد يهبط وسط أنين حادّ ورتيب. فُتح الحاجز الحديديّ، وخرج دا سيلفا. دخل الصالون. بدا مندهشاً لرؤيتنا أنا وإيفون. غير أنّه لم يلقِ علينا التحيّة. كان يرتدي بذلة كحليّة صارمة.

- ومارتين؟ سأل واينغراين.

- بقيت في السرير، أجاب دا سيلفا بصوته الحادّ الغريب. أمّا أنا، فعليّ أن أذهب للعمل... يجب أن أحضر زبونة أميركيّة من محطّة ليون...

- هل ستتأخّر؟

- لا... يجب أن أقلّها إلى نوبّي... المزعج في الأمر أنّ عليّ قبل ذلك أن أقود سيّارة الدايملر إلى الكاراج... ثمّ أنّ الأميركيّة لا تريد أن أفارقها لحظة... لا يمكنها حتّى أن تغفو إن لم أكن أمسك يدها...

كان واينغراين يسترق النظر إلينا بفضول، وكأنّه يريد التثبّت من وطأة ذلك الكلام علينا. هل أنّ الألماسة التي

أهداها دا سيلفا لمارتين كخاتم خطوبة، كانت قبل ذلك ملكاً لتلك الأميركيّة؟

دخل دا سيلفا حجرة صغيرة بجانب مقصورة الهاتف، وعند خروجه، كان يضع قبّعة كحليّة ذات حافّة سوداء، قبّعة سائق خصوصيّ. والغريب أنّ تلك القبّعة كانت تعطيه وجهاً مختلفاً كليّاً عن ذاك الذي كنّا نعرفه. فارقه مظهره الطيّب الذي يذكّر بوجه طفل، وبات له البشرة البيضاء والمتورّمة لبعض السائقين الليليّين، وعينان شبه مغمضتين وشفتان رقيقتان، وخصوصا العليا التي كادت تختفي تماماً. كلّ ذلك كان يجعله يبدو خرعاً وقاسياً في آن.

- إلى اللّقاء أيّها الرفاق... لن يكون بوسعي مرافقة مارتين هذه الليلة. أعتمد عليكم...

الصوت أيضاً لم يعد هو نفسه. بات يلفظ الأحرف على الطريقة الفرنسيّة.

- هل ستذهب الليلة إلى نادي غايون[1]؟
- إن غفت الأميركيّة على وجه السرعة...
- إذن أريدك أن تضع لي رهاناً.

---

(1) Cercle Gaillon نادٍ خاصّ للعب البوكر.

مدّ له واينغراين رزمة من الأوراق الماليّة. عدّها دا سيلفا بعدما رطّب سبّابته بلسانه.

- آمل أن يحالفني الحظّ. إلى اللّقاء!

دار على عقبيه، على طريقة راقص صالونات مجتهد، وخرج من القاعة. بعد لحظة، سمعنا هدير محرك اللانسيا.

- والآن، علينا أن نتكلّم نحن الثلاثة، قال واينغراين منحنياً صوبنا. أعوّل عليكما لتحذير مارتين... هذا الشخص ليس صاحب مليارات، ولا برازيليّاً...

أطلق ضحكة عابرة ظلّت مخنوقة في حلقه.

- عرفته حين كان يعمل في صالة البولينغ عند بوّابة مايّو... والآن هو سائق... وغداً...

كان إيفون مطأطئ الرأس، وكأنّه لا يريد سماع أيّ من ذلك الكلام.

- يطلق على نفسه اسم دا سيلفا... لكنّ اسمه الحقيقي ريشار مولياد... مولياد... مو-لي-اد...

ذلك الاسم ذو الوقع السائل كالماء كان يبعث فيّ شعوراً بالغثيان. اسم يشبه البلبلة على سطح مستنقع تبتلع وُحوله جسدَ أحدهم.

مكتبة الرمحي أحمد

- ثمّ إنّه صاحب سوابق... هذا فعلاً مضرّ جدّاً لمارتين...

من جديد، تلك الضحكة المخنوقة. شعرت بالدوار وكأنّ الأرض تنزلق تحت قدميّ، وأخذ الصالون يترنّح. اشتدّ عليّ الإحساس بالغثيان. كانت الريح تهبّ من تحت غطاء الطاولة وترفعه، وأنا أبحث عن شيء ثابت أتشبّث به. وقعت عيناي على ثريّا كبيرة مطفأة، معلّقة فوق رؤوسنا تماماً، وبلّوراتها المتدلّية تلتمع بوهج رماديّ.

- لا حيلة باليد، حين تكون فتاة مغرمة... تمتم واينغراين.

9

في الخريف، كنّا نقضي عصر كلّ يوم اثنين ننجز أشغالاً يسمّيها السيّد جانشميت «صيانة الحديقة»، فيقوم جميع تلاميذ صفّنا بجرف الأوراق الميتة عن العشب، واقفين في خطّ واحد ونحن نسير إلى الوراء، خلف بيدرو. ثمّ نحمّل كُوَم الأوراق الميتة على عربات ندفعها ونفرغها في أرض خلاء بجانب حجرة تبديل الملابس.

وفي مساء يوم من مايو، ضبطني بيدرو أثناء الفرصة سارحاً في تأمّل أوراق شجرة الدلب الباسقة عند حافة بستان العشب.

– ما الذي تفكّر به بنيّ؟

– في الأوراق التي سيترتّب علينا جرفها في الخريف المقبل سيّدي.

قطّب وأجابني بوقار:

- إنّها كالتلاميذ. القدامى يرحلون، ويأتي الجدد. ثمّ يصبح الجدد قدماء، وهكذا دواليك... تماماً مثل الأوراق...

تساءلت يومها إن كان يحتفظ ببعض الآثار، كدفاتر علامات قديمة أو مواضيع إنشاء قديمة، لكلّ هذه الأوراق المتجدّدة سنة بعد سنة.

بالطبع، لا يزال العديد من «القدامى» أحياء في أسطورة المدرسة. ومنهم على سبيل المثال جوني، الذي بقي اسمه محفوراً على إحدى خزائن حجرة تبديل الملابس، تلك الحجرة العابقة برائحة الخشب المبلّل، التي كنّا نفرغ عجلاتنا قربها في الخريف... ردّد لنا بيدرو قصّة جوني مراراً وتكراراً، حتّى بدا لي أنّني عرفته كما لو كان رفيق صفّ لي.

كلّما تذكّرت جوني، تراءى لي في شقّة جدّته في جادّة الجنرال بالفورييه. في غياب تلك الجدّة، كان ثمّة من يهتمّ بانتظام بتنظيف المنزل، إذ لم يكن هناك أثر غبار على الأثاث، والأرضيّة الخشبيّة كانت تلمع إلى حدٍّ أنّ جوني كان يهتاب ويمشي على رؤوس قدميه.

حين يشارف العصر على نهايته، كانت الشمس ترسم في وسط البساط مربّعاً كبيراً أصفر بلون الرمل. وكان النور يترقرق على رفوف المكتبة والجدران ويسدل عليها طبقة رقيقة من الشاش، مثل الأغطية التي تكسو قطع الأثاث في المنازل المهجورة. جالساً على الأريكة، كان جوني يمدّد ساقه، فيصيب حذاء قدمه اليمنى قلب بقعة النور على البساط. كان يتأمّل بلا حراكٍ انعكاس الشمس على جلد حذائه الأسود، فيتراءى له بعد لحظات قليلة أنّ ذلك الحذاء لم يعد متّصلاً بجسده. حذاء متروك إلى الأبد في وسط مربّع من النور. كان الليل يهبط متمهّلاً. كانت الكهرباء مقطوعة عن الشقّة وكلّما عمّت العتمة أرجاءها، شعر بقلق يزداد وطأة. لماذا بقي في باريس وحيداً؟ أجل، لماذا؟ لعلّ ذلك كان الخدر والشلل اللّذين يسيطران على الواحد في الكوابيس، لحظة الفرار من خطر داهم أو الصعود في قطار...

رغم ذلك، كان الطقس جميلاً في ذلك الصيف في باريس، وجوني بلغ الثانية والعشرين. كان اسمه الحقيقي كورت، لكنّ الجميع يناديه جوني منذ وقت طويل، بسبب

الشبه بينه وبين جوني فايسمولر، الرياضيّ ونجم السينما الذي كان هو معجباً به. أكثر ما كان جوني يبرع فيه كان التزلّج، وقد تعلّم أدقّ تقنيّاته تحت إشراف مدرّبين من سان أنتون[1]، حين كانا لا يزالان هو وجدّته يعيشان في النمسا. كان يريد أن يحترف التزلّج.

خال نفسه يمشي على خطى فايسمولر يوم عُرض عليه القيام بدور صغير في فيلم عن الجبال. وبعد التصوير بوقت قصير، غادر النمسا مع جدّته عند اجتياح البلاد وضمّها إلى ألمانيا النازيّة. في فرنسا، التحق بمدرسة فالفير. وبقي فيها حتّى إعلان الحرب.

عندها بات في كلّ مساء، قرابة الساعة الثامنة والنصف، يغادر شقّة جدّته الخالية ويستقلّ المترو حتّى باسّي. هناك، يصل الوافد إلى باسّي الى محطّة صغيرة تفضي إلى منتجع للعلاج بالمياه المعدنيّة، أو المحطّة الأخيرة لخطّ قطار أسلاك. ينحدر جوني على الأدراج، فيصل إلى أحد المباني في الأسفل، قرب ساحة ألبوني، في تلك المنطقة من باسّي التي تتدرّج صعوداً ونزولاً، مذكّرة بمونتي كارلو.

(1) San Anton في النمسا تعتبر من أشهر محطّات التزلّج في العالم.

في أعلى أحد تلك المباني، كانت تقطن امرأة تكبره بخمسة عشر عاماً، امرأة تدعى آرلين دالوين، تعرّف عليها على رصيف مقهى في جادّة دوليسّير في شهر أبريل من ذلك العام.

روت له أنّها متزوّجة من ضابط طيّار لم تردها أيّ أخبار عنه منذ اندلاع الحرب. كانت تعتقد أنّه في سوريا أو في لندن. عند حافّة المنضدة الليليّة، كانت معروضة في الصدارة صورة في إطار جلديّ أحمر عقيقيّ، لرجل أسمر وسيم لها شاربان رقيقان، يرتدي بذلة طيّار. لكنّ تلك الصورة كانت تبدو وكأنّها مستخرجة من فيلم سينمائيّ. ولماذا كان اسمها هي وحدها «آرليت دالوين» محفوراً على لوحة نحاسيّة عند باب الشقّة؟

عهدت إليه بمفتاح لشقّتها، وحين كان يدخل الصالون في المساء، يلقاها ممدّدة على الأريكة، عارية في مبذل. كانت تستمع إلى أسطوانة. كانت شقراء، عيناها خضراوان وبشرتها في غاية النعومة. وبالرغم من أنّها كانت تكبر جوني بخمسة عشر عاماً، إلّا أنها كانت تبدو بسنّه، وكانت كأنّها محاطة بهالة من الضبابيّة والأحلام.

غير أنّها كانت صاحبة طباع قويّة.

كانت تضرب له موعداً قرابة التاسعة مساء. لم تكن متفرّغة خلال النهار، وكان عليه أن يغادر الشقّة باكراً في الصباح. كان يودّ لو يعرف كيف تقضي وقتها، غير أنّها كانت تتملّص من الإجابة على أسئلته. ذات مساء، وصل قبلها ببضع لحظات، فراح يفتّش عشوائيّاً في أحد الجوارير، حيث عثر على إيصال من الصندوق البلديّ للتسليف في شارع بيار شارون. هكذا علم أنّها رهنت خاتماً وقرطين ومشْبكاً، واشتمّ لأوّل مرّة رائحة غرق طفيفة في تلك الشقّة، شبيهة قليلاً بالرائحة في شقّة جدّته. أكانت تلك الرائحة المخدّرة المنبعثة من قطع الأثاث والسرير وجهاز تشغيل الأسطوانات والرفوف الفارغة وصورة الطيّار المزعوم المحاطة بالجلد الأحمر العقيقيّ؟

هو أيضاً كان يواجه وضعاً صعباً. فلم يكن غادر باريس منذ سنتين، منذ شهر مايو ١٩٤٠ ذاك، حين رافق جدّته إلى سان نازير. استقلّت حينذاك آخر سفينة أبحرت إلى الولايات المتّحدة، وهي تسعى لإقناعه بالرحيل معها. كان جوازا سفرهما صالحين. قال لها إنّه يفضّل البقاء

في فرنسا، وإنّه لا يواجه أيّ خطر. وقبل أن يحين وقت الصعود على متن السفينة، جلسا معاً على أحد مقاعد السّاحة الصغيرة قرب الرصيف.

في باريس، حاول العثور مجدّداً على رفاق سابقين من مدرسة فالفير، من غير أن يفلح. فراح يحوم حول استديوهات السينما، طالباً العمل في أدوار صغرى، لكنّ ذلك كان يتطلّب بطاقة مهنيّة، وكانت تلك البطاقة محظورة على اليهود، فما بالك باليهود الأجانب مثله؟ قصد نادي رايسينغ ليرى إن كانوا بحاجة إلى أستاذ رياضة، لكن بلا جدوى. كان ينوي قضاء الشتاء في محطّة تزلّج، علّه يحصل هناك على وظيف مدرّب. لكن كيف يا ترى يصل إلى المنطقة الحرّة؟

قرأ بالصدفة إعلاناً صغيراً: كانوا يبحثون عن عارضي أزياء لقبّعات «موريتون»[1]. حصل على الوظيفة. كانت جلسات التصوير تجري في استديو في جادّة دوليسّير، وكان خارجاً من مكان عمله ذاك حين التقى بآرليت دالوين. كانوا يصوّرونه مواجهةً وجانبيّاً ومن زاوية ثلاثة

(1) Chapeaux Morreton مصنع فرنسيّ للقبّعات عرف شهرة دوليّة.

أرباع، معتمراً في كلّ مرّة قبّعة «موريتون» مختلفة شكلاً أو لوناً. كان مثل هذا العمل يتطلّب «إهاباً يشدّ النظر» كما كان المصوّرون يقولون، لأنّ القبّعة تبرز كلّ عيب في الوجه. فلا بدّ أن يكون الأنف مستقيماً، والذقن مرتسماً في خطّ متناغم، وقوسا الحاجبين متناسقين تماماً. وكلّها أوصاف كان يتحلّى بها. استمرّ الأمر شهراً، وبعد ذلك صرفوه من العمل.

عمد عندها إلى بيع بعض قطع الأثاث من الشقّة التي سكنها مع جدّته في شارع الجنرال بالفورييه. كان يمرّ بأوقات من الكآبة والهمّ. لا مجال في تلك المدينة للقيام بأيّ شيء مُجدٍ. إنّها فخّ يطبق عليه. كان يجدر به في الحقيقة الرحيل إلى أميركا.

قرّر في الآونة الأولى اتّباع نظام رياضيّ صارم، مثلما اعتاد أن يفعل، حرصاً منه على إبقاء معنويّاته عالية. فكان يقصد في كلّ صباحٍ حوض دوليني للسباحة، أو يذهب إلى جوانفيل[1]، إلى الجسر الخشبيّ في مسبح بيريترو. كان

(1) Joinville بلدة في مقاطعة مارن العليا شمال شرق فرنسا، يعبرها نهر المارن، وقد أقيمت عليه مسابح، منها مسبح بيريترو.

يسبح الكرول وسباحة الفراشة على مدى ساعة. لكن سرعان ما شعر بالعزلة بين هؤلاء الرجال والنساء غير الآبهين، الذين كانوا يتشمّسون أو يعبرون نهر المارن في قوارب بدوّاسات، حتّى أنّه عدل عن كلا حوض دولينيي وجوانفيل.

كان يبقى مستلقياً واهناً في الشقّة في جادّة الجنرال بالفورييه، وفي الثامنة، يذهب لملاقاة آرليت دالوين.

لماذا كان في بعض الليالي يؤخّر لحظة خروجه؟ كان يفضّل لو يبقى وحيداً في الشقّة الخالية، بدرَفها المغلقة. كانت جدّته تلومه برفق في الماضي على شرود ذهنه وقلّة كلامه، آخذةً عليه أنّه لا «يحسن العيش» ولا يعتني بنفسه، وأنه على سبيل المثال يخرج دائماً دون معطفه تحت المطر أو الثلج، «مكشوفاً» كما كانت تقول. فات الأوان الآن ليصلح عاداته تلك. ثمّ في أحد الأيّام، لم يقوَ على الخروج من شقّة جادّة الجنرال بالفورييه. وفي مساء اليوم التالي، ذهب إلى آرليت دالوين مشعّث الشعر وبلا حلاقة، فقالت له إنّها قلقت عليه، وإنّه لا يحقّ لفتىً وسيم ومميّز مثله أن يهمل نفسه.

كان الحرّ شديداً والليل صافياً، فكانا يتركان النوافذ مشرّعة. يصفّان وسادات الأريكة المخمليّة في وسط الشرفة الصغيرة، ويسهران ممدّدين عليها حتّى وقت متأخّر جدّاً من الليل. في الطابق الأخير من مبنى مجاور، على شرفة مماثلة لشرفتهما، كان هناك أشخاص تتناهى قهقاتهم إليهما.

كان مشروع الرياضات الشتويّة لا يزال يراود جوني. لكنّ آرليت قلّما كانت معتادة على الجبال. ذهبت مرّة إلى سيستريير[1]، واحتفظت بذكرى طيّبة عن ذلك المكان. لِمَ لا يعودان إلى هناك معاً؟ أمّا جوني، فكانت سويسرا لا تزال في باله.

في مرّة أخرى، كان الجوّ في المساء لطيفاً، وقرّر ألّا ينزل عند محطّة باسّي كعادته، بل أن يواصل طريقه إلى محطّة التروكاديرو. من هناك سوف يكمل مشياً عبر الحدائق ثمّ رصيف باسّي، وصولاً عند آرليت.

كان بلغ أعلى أدراج المترو حين رأى حاجزاً أقامه شرطيّون رابضون على الرصيف. طلبوا منه أوراقه. لم

(1) Sestrières مدينة في منطقة أوفيرن بوسط فرنسا.

يكن يحمل أيّ أوراق. دفعوه داخل شاحنة الموقوفين المصفوفة على مقربة، وفيها حتّى ذلك الحين حوالى عشرة خيالات محشورة.

كانت تلك واحدة من حملات الاعتقالات الجماعيّة التي كانت تجري منذ بضعة أشهر، وتسبق بانتظامِ القوافلَ التي كانت تتّجه شرقاً.

10

كلّ أسبوعين، خلال حصّة الفروض المسائيّة، كان أحد أساتذتنا يعلن لنا «فئاتنا». كان بيدرو يحدّدها بنفسه خلال اجتماع لهيئة التعليم. كانت الفئة «أ» تعني: عمل ممتاز. والفئة «ب»: عمل مقبول. والفئة «س» كانت مخصّصة لمن يرتكبون أخطاء تمتّ بصلة إلى قواعد السلوك، وكانت تؤدّي إلى حرمان التلميذ من الخروج في عطلة نهاية الأسبوع.

في صباح يوم السبت، كنذا نتجمّع خلف القصر، حيث ترتفع شجرة أرز من لبنان في وسط مساحة مكسوّة بالعشب، متروكة بلا زراعة. كان بيدرو ينادي تلاميذ الفئة «س»، فيأتي المساكين الواحد تلو الآخر ويتجمّعون في الصفّ عند طرف ذلك البستان. تلاميذ الفئة «س» هؤلاء يمضون السبت والأحد في المدرسة، حيث يقضون

مكتبة الرمحي أحمد

وقتهم يعملون في صيانة البساتين ويسيرون بمشية عسكريّة على طول الممرّات.

أمّا تلاميذ الفئتين «أ» و«ب»، فكانوا ينتظرون وصول أهلهم. لكن الواقع أنّنا كنّا نصعد بمعظمنا في حافلتي «شوسّون»[1] المتوقّفتين منذ الساعة التاسعة والنصف صباحاً في باحة القصر. وبعدما يجلس الجميع على المقاعد، تنطلق الحافلتان وتنحدران ببطء الواحدة خلف الأخرى في الممرّ. وعند عبور البوّابة، تسلكان الطريق الوطنيّة. عندها، يأخذ التلاميذ كباراً وصغاراً يردّدون بصوت واحد أناشيد عسكريّة أو أغاني بذيئة.

قلّما كنّا أنا ورفيقي في الصفّ كريستيان بورتييه نشارك في تلك الأغاني، وربّما كان هذا هو ما قرّبنا أحدنا من الآخر. كنّا نجلس دائماً جنباً إلى جنب في الحافلة. قضينا عدّة أشهر من غير أن نفترق أيّام الخروج من المدرسة السبت والأحد.

كانت والدة كريستيان تأتي لملاقاتنا عند بوّابة سان

---

(1) Chausson «شركة مصانع شوسّون» كانت شركة فرنسية لإنتاج السيّارات والحافلات زوّدت فرنسا بحافلات النقل العام قبل أن تتراجع أعمالهم ويتوقّف نشاطها عام 2000.

كلو، في موقف الحافلات، ولا تزال صورة السيّدة بورتييه، كلود بورتييه، ماثلة بمنتهى الوضوح في ذاكرتي. أراها تنتظرنا خلف مقود سيّارتها الرينو المكشوفة، وبين شفتيها سيجارة.

كانت تدخّن سجائر «رويال». تُخرج بحركة ظريفة من حقيبة يدها علبة السجائر الحمراء. طقّة الحقيبة حين تغلقها من جديد والعطر الذي كان يهفّ منها. ورائحة سجائر «رويال»، رائحة التبغ الأشقر الفرنسي المريرة والباعثة على الغثيان قليلاً... كانت امرأة قصيرة القامة، شعرها كستنائيّ فاتح اللّون وعيناها رماديّتان، وكان لها، بنتوء وجنتيها وجبينها المشاكس وأنفها القصير، وجهُ هرّ. كانت تشبه ممثّلة السينما إيفيت لوبون[1]. حتّى أنّ كريستيان أوهمني في بداية صداقتنا أنّه فعلاً ابن إيفيت لوبون، وحين التقيت بوالدته لأوّل مرّة، أشار إليها بحركة احتفاليّة معلناً:

- أقدّم لك إيفيت لوبون.

كانت تلك حتماً دعابة تقليديّة أو وسيلة وجدها

(1) Yvette Lebon (1910–2014) ممثّلة فرنسيّة.

كريسيان لإبراز والدته. لا بدّ أنّها كلّمت ابنها عن ذلك الشبه في سن مبكرة، في عمر لم يكن من الممكن فيه لكريستيان أن يعرف من هي إيفيت لوبون. لا بل ربّما لقّنته بنفسها الجملة: «أقدّم لك إيفيت لوبون»، فكان يردّد الدرس من غير أن يفهم ما يقول أمام أصدقاء السيّدة بورتييه الذين يستلطفونه. أجل، يمكنني أن أتصوّر كرسيتيان، برأسه الضخم وصوته الخفيض، صوت طفل نضج قبل أوانه، في دور الوصيف لوالدته.

في أيّام السبت تلك حين كانت الحافلة تقلّنا من مدرسة فالفير إلى باريس، كنّا نصل قرابة الظهر إلى بوّابة سان كلو، ومن هناك، تصطحبنا السيّدة بورتييه أنا وكريستيان لتناول الغداء في مطعم في الساحة. كان هناك رواق عريض محاط بدرابزين نحاسيّ، يفضي إلى قاعة في الأسفل. كنّا نجلس إلى إحدى طاولات الرواق، السيّدة بورتييه وابنها من طرف، وأنا قبالتهما.

كانت السيّدة بورتييه تأكل كالعصفور. تطلب بيضة مسلوقة وحبّة ليمون هنديّ... فينظر إليها كريستيان بصرامة ويقول لها:

- كلود! يجدر بك أن تأكلي قليلاً...

أجل، كان يناديها باسمها، وفوجئت في بادئ الأمر لسماع فتى الخامسة عشرة ذاك يؤنّب والدته بمودّة:

- كلود! إنّها السيجارة الخامسة... أعطيني العلبة حالاً أرجوكِ...

كان ينتزع السيجارة من بين شفتيها، ويطفئها ويصادر علبة الروايال، فتذعن السيّدة بورتييه مطأطئة الرأس وتبتسم.

- كلود، أرى أنّكِ هزلتِ أكثر من قبل... هذا ليس سلوكاً سديداً...

كانت والدته تقاوم نظرته، وبعد قليل، ينفجران بالضحك، مثل طفلين يلهوان لمعرفة من يصمد أكثر من الآخر. كانا يزايدان قليلاً في عرضهما أمامي.

مرّة كلّ أسبوعين، لم تكن السيّدة بورتييه تحضر السبت لاصطحابنا عند بوّابة سان كلو. وفي اليوم السابق، كانت ترسل برقيّة إلى فالفير لتعلن لنا ذلك. كانت بكلّ بساطة تستغرق في النوم، بعد قضاء الليلة السابقة في لعب البوكر. في أيّام السبت تلك، اعتدنا أن نوقظها قرابة الساعة الثالثة

عصراً، جالبين لها فطورها.

لم يرد قطُّ ذكر أيّ «سيّد بورتييه»، وكنت أتساءل إن كان كريستيان له والد. أخيراً، بعد عودتنا إلى المدرسة في مساء يوم أحد، أفشى لي بسرّه، خافضاً صوته حتّى لا نوقظ رفاقنا في غرفة المهجع. كنّا متّكئين إلى حافّة النافذة، والعشب في الأسفل يلتمع في ضوء القمر، باعثاً تماوجات خضراء شاحبة. لا، لم تكن والدته يوماً متزوّجة، وهي احتفظت باسم عائلتها: بورتييه. أمّا هو، كريستيان، فكان طفلاً مولوداً خارج إطار الزواج. والده؟ يونانيّ التقت به كلود في باريس في زمن الاحتلال. انتقل للإقامة في البرازيل، ولم يقابله كريستيان سوى مرّتين أو ثلاث مرّات طوال حياته.

كان بودّي معرفة المزيد عن ذلك اليونانيّ الغامض، لكنّني لم أجرؤ على طرح أسئلة على السيّدة بورتييه.

كانت كلود تأخذ كريستيان بعد الظهر في جولة على المتاجر، وكنت أرافقهما. ذات مساء، ذهبنا لجلب هديّة السيّدة بورتييه لابنها بمناسبة عيد ميلاده الخامس عشر: طقم قطنيّ. كنّا حينها في شهر نوفمبر أو ديسمبر، وكان

الليل بدأ يهبط. قادتنا السيّدة بورتييه عبر شقّة مترهّلة في شارع كوليزيه، وكأنّها تعرف المكان عن ظهر قلب. قاعة فسيحة جدّاً، ومصابيح مكاتب مثبّتة على طاولات طويلة، وقصاصات قماش، وموقد، وخزانة ذات مرايا، وكنبة جلديّة. استقبلَنا الخيّاط، رجل في حوالى الستّين ذو خدّين مكتنزين وسالفين كثّين، فقبّل يد السيّدة بورتييه، لكنْ في بادرة تنمّ عن ألفة.

كان كريستيان منفعلاً جدّاً لقياس أوّل بذلة يقتنيها. أشعل الخيّاط أنبوب نيون عند أعلى إحدى مرايا الخزانة التي فتح بابيها الآخرين. وقف رفيقي مستقيماً في «طقمه القاتم» أمام صورته المنعكسة في المرايا من جميع الزوايا، وعيناه ترفّان وقد أبهره نور النيون الأبيض الملتمع.

– هل يعجبك أيّها الشابّ؟

كان الخيّاط يجعله يدور على نفسه، دافعاً رفيقي من كتفه، ويتفحّص ثنايا البنطال.

– وأنتِ عزيزتي، هل أنّك راضية على طقم ابنك الأول؟

– راضية جدّاً، أجابت السيّدة بورتييه. طالما أنّه ليس

هناك صدرة...

- لا بدّ أن تشرحي لي في أحد الأيّام لماذا لا تحبّين الصدرات.

- إنّه أمر لا يمكن شرحه... لطالما استسخفت الرجال الذين يرتدون صدرات أو يطلقون لحاهم على شكل طوق...

أمسكت بمعصمي.

- إن أردت ذات يوم أن تعجب نساء مثلي، إليك نصيحة: لا ترتدِ أبداً صدرة... ولا تطْلق لحيتك على شكل طوق...

- لا تستمع إلى والدتي، قال لي كريستيان. لديها أفكار غريبة أحياناً...

كان الخيّاط تراجع ووقف يتأمّل طقم كريستيان بنظرة كأنّها تداعبه.

- هذا الفتى يكاد يكون بمقاسات والده تماماً... أتعلم، عثرت على بطاقة قديمة أعددتها لوالدك...

عقدت السيّدة بورتييه حاجبيها قليلاً.

- كمْ أنّ ذاكرتك قويّة، عزيزي إلستون!...

كان كريستيان يتقدّم في طقمه.

- هل يمكنك إعطائي البطاقة؟ ذكرى من والدي...

لكنّ كلامه كان يخلو من القناعة. كان متوجّهاً إلى طرف القاعة الآخر، حيث مقصورة تبديل الملابس، بمشية محترسة مثل بهلوان على حبله. ربّما كان يخشى أن تنغرز شوكة في قدمه.

أشعلت السيّدة بورتييه سيجارة، جالسة على الكنبة.

- أذكر أنّكِ حضرت ذات مساء في وقت متأخر جدّاً مع والده لأخذ بذلة. وكان هناك قصف في تلك الليلة... لكنّنا لم ننزل إلى القبو...

- كلّ ذلك بات من عصر آخر، قالت السيّدة بورتييه، نافضةً رماد سيجارتها على الأرض.

- نقّبْت بين كلّ تلك الأوراق القديمة لأرى منذ كم من الوقت نحن متعارفان...

هزّت السيّدة بورتييه كتفيها. انضمّ كريستيان إلينا.

- عمّ كنتم تتحدّثون؟ سأل.

- عن الماضي، أجابت السيّدة بورتييه. هل فرحت بطقمك؟

- شكراً كلود...

انحنى وقبّل والدته على جبينها.

- يجدر بك أن ترتديه هذا المساء، اقترحت السيّدة بورتييه.

- إن أردت ذلك كلود...

بدّل ملابسه في مكانه، أمامنا، فخلع بنطاله من المخمل المضلّع وكنزته، وارتدى «الطقم القاتم».

أمسكت السيّدة بورتييه بذراع ابنها ودفعته معها خارج القاعة. كنّا أنا والخيّاط نمشي خلفهما.

- إلى اللّقاء، يا صديقتي العزيزة... وشكراً من جديد لأنّك فكّرت بي لخياطة هذه البذلة...

كان لا يزال يتأمّل ذلك «الطقم القاتم» الذي يرتديه رفيقي والذي كان يلتمع بوهج جنائزيّ في نور السلالم الأصفر.

مدّت له السيّدة بورتييه يدها.

- إلستون... هل تجد أنّني هرمت؟

- هرمتِ؟ لا، إطلاقاً، أنت لم تتقدّمي في السنّ...

كان كريستيان يخفض رأسه محرجاً.

- هل أنت واثق؟ الآن وقد أصبَحَ في سنّ ارتداء بذلات، لن يعود بوسعي أن أخدع أحداً...

- ... أوّلاً، لن يخطر ببال أحد أنّ ذلك الشاب الوسيم ابنك. لم تتقدّمي في السنّ أبداً يا صديقتي العزيزة...

قال تلك الكلمات الأخيرة مشدّداً على كلّ لقطة منها. انطفأ النور الآليّ في الأدراج. أعادة إلستون إشعاله. كان يتبعنا بنظره، متّكئاً إلى الدرابزين، فيما نحن ننزل الأدراج.

*

بعدما بات لرفيقي ذلك «الطقم القاتم»، صرت أخجل قليلاً من مظهري بسترتي الصوفيّة القديمة ذات الأزرار الذهبيّة وبنطالي الأعلى من كاحليّ الذي كان يجعلني أبدو، في الخامسة عشرة، أصغر سنّاً ممّا كنت. قدّمت لي والدة كريستيان ربطة عنق من الحرير. كنت أضعها كلّما خرجنا معاً، وكانت تمنحني قليلاً من الثقة بنفسي.

في ليالي الصيف، كانت تصطحبنا لتناول العشاء على

ضفاف نهر السين. أكان ذلك في رواي؟ أو شاتو؟ أو بوجيفال[1]؟ حاولْت أحياناً كثيرة العثور على ذلك النزل، من دون جدوى. فالمناطق المحيطة بباريس تبدّلت كثيراً... إلى الأسفل، ممرّ عريض من الألواح الخشبيّة، تحيط به حجرات ومقفزا غطس ومزلقة وقوارب بدوّاسات متوقّفة في صفّ أمام الجسر العائم. كان يردنا صوت كتيم منتظم، صوت شلّالات. ربّما مضخّات مارلي[2]. سطيحة تكسو الحصى أرضيّـها. وبين أشجار الصفصاف على ضفاف السين، تعبر المراكب النهريّة، فأتابع بعينيّ النور الأخضر في مقدّم أحدها. وحين ننتهي من تناول العشاء على السطيحة، كان رجل جسيم شعره رماديّ يأتي ويجلس إلى طاولتنا. كان هو صاحب النزل، ويدعى جندرون. هو أيضاً كان يرتدي سترة، لكنّها أكثر أناقة بكثير من سترتي، وكنزة قبطان زورق. جالساً بجانب السيّدة بورتييه، كان يبدو أكبر منها بعشر سنوات. كان يقدّم لنا دائماً أنا

(1) Rueil و Chatou و Bougival بلدات في جوار باريس.

(2) نظام من المضخّات والأقنية أقيم بين 1681 و1682 في عهد الملك لويس الرابع عشر لسحب المياه من نهر السين إلى قصري فرساي ومارلي، واستبدل في 1968 بمضخات كهربائية.

وكريستيان سجائر أميركيّة ويخاطب السيّدة بورتييه باسم «كلودي».

كانت أصداء حديثهما تختلط بجوّ تلك الأمسيات الدافئ، وصخب المراكب بالدوّاسات المرتطمة بالجسر الخشبيّ، والرائحة المتصاعدة من مياه السين... كان جندرون قبل الحرب يدير مرآباً يعمل فيه أيضاً شخص يدعى بانيون، غالباً ما كان اسمه يرد في أحاديثهما. كان صديقاً للسيّدة بورتييه، إذ كانت تناديه «إيدي». ترى ما الذي حصل لإيدي بانيون ذاك حتّى يتحدّثا عنه بصوت منخفض؟ كلّ ذلك كان يعود إلى ما قبل ولادة كريستيان. هل عرف جندرون اليونانيَّ، والدَ كريستيان؟ لم يكن رفيقي يستمع إليهما، بل ينسلّ في اللّيل الصافي حتّى الجسر العائم ويستقلّ مركباً بدوّاسات. أنا من جهتي، كنت أبقى جالساً إلى الطاولة برفقة جندرون وكلودي. كنت أحاول أن أفهم.

قرابة منتصف اللّيل، كنّا نعبر الممرّ العريض الذي يرسم القمر على ألواحه الخشبيّة ظلال المزلقة ومقفزَي الغطس. في تلك اللحظة، يمكن للواحد أن يخال نفسه

في مكان ما في رأس أنتيب[1]. كنّا نذهب لجلب كريستيان الذي كان يلعب كرة الطاولة مع الساقي.

ثمّ يرافقنا جندرون حتّى السيّارة. ويربّت على عنق كريستيان.

- إذن، هل تعمل جيّداً؟

فيبدو رفيقي، على الرغم من «طقمه القاتم»، أشبه بصبيّ صغير بجانب ذلك الرجل الجسيم.

- ماذا تريد أن تصبح في الحياة؟

لم يكن كريستيان يجيب، مهابة من ذلك الرجل.

- هل تسمح لي بإسداء نصيحة لك؟ محامٍ.

ثمّ يلتفت صوبي:

- ألا تجدها مهنة جيّدة، المحاماة؟

كان يدسّ في جيب سترة كلّ منّا علبتي سجائر أميركيّة.

- ما رأيكِ كلودي؟... ابنٌ محامٍ...

- أجل... لم لا؟

كنّا نصعد في السيّارة المكشوفة. ويجلس كريستيان خلف المقود، رغم أنّه لم يكن بعمر يسمح له بالحصول

---

(1) Antibes مدينة على ساحل الكوت دازور، جنوب شرق فرنسا.

على رخصة قيادة. وتجلس السيّدة بورتييه بجانبه، وأنا على المقعد الخلفيّ.

- لا يجدر بك أن تدَعيه يقود، كلودي...

- أعلم ذلك...

كانت تهزّ رأسها في إشارة عجز. وينطلق كريستيان بأقصى سرعة. يقود وصولاً إلى الطريق العامّ الغربيّ. كان الليل صافياً صامتاً، والطريق العامّ مقفراً. يشعل المذياع. وأنحني أنا من النافذة، فيلفح الهواء وجهي. يملأني إحساس بالدوار والسعادة.

قبل نفق سان كلو مباشرة، كان يترك المقود لكلودي.

*

كانت السيّدة بورتييه تسكن مبنى عند زاوية جادّة بول دومير وشارع لا تور، ندخله من ردهة مزجّجة. لا أحتفظ بذكرى واضحة جدّاً عن شقّتها، باستثناء غرفة الجلوس التي كانت تصلح صالوناً وغرفة طعام، يقسمها حاجز من الحديد المعشّق، وغرفة النوم المكسوّة بالساتان

الرماديّ حيث كنّا نحمل لها الفطور في الأيّام التي تلي سهرات البوكر.

في أوّل يوم سبت اصطحباني فيه عصراً إلى منزلهما، شربنا عصير البرتقال في الصالون. بدا كريستيان متململاً فاقد الصبر، وكأنّه أعدّ مفاجأة أو مقلباً، وينتظر الوقت المناسب للكشف عن كلّ شيء.

كانت السيّدة بورتييه تبتسم. رحت أفكّر في جملة أقطع بها الصمت.

- لديكما شقّة جميلة جدّاً.

- جميلة جدّاً، ردّد كريستيان.

ثمّ التفت إلى والدته:

- هل نخبره، كلود؟

- أجل، أخبره.

- حسناً يا صديقي، قال كريستيان، مقرّباً وجهه من وجهي، أنا لا أسكن شقّة والدتي...

أشعلَت سيجارة واختلطت رائحة سجائر رويال الباعثة على الغثيان بعطرها.

- العام الماضي، قرّرنا أنا وكلود بالتوافق فيما بيننا...

مكتبة الرمحي أحمد

توقّف للحظة. كانت السيّدة بورتييه تسير نحو الطرف الآخر من الصالون وترفع سمّاعة الهاتف.

- قرّرنا ألّا يزعج أحدنا الآخر... لذلك استأجرَت لي كلود غرفة في هذا المبنى، في الطابق الأرضيّ.

كنت أستمع إلى كريستيان، لكنّني كنت أودّ لو أسمع أيضاً ما تقوله هي على الهاتف.

- ألا تجد أنّه حلّ ممتاز؟ سألني كريستيان. هكذا يكون لكلّ منّا حياته...

من تراها كانت تكلّم خافضة صوتها إلى حدّ بات أشبه بهمس؟ أغلقت الخطّ.

- سنتركك كلود، قال كريستيان. سآخذه لأريه شقّتي أنا. هل تودّين أن نلتقي هذا المساء؟

- لا أدري بعد ما إذا سأكون متفرّغة، أجابت السيّدة بورتييه. اتّصل بي حوالى الساعة السادسة.

- كلود وصلت لي الهاتف في غرفتي، قال لي كريستيان مبتهجاً.

كان هناك على الباب بطاقة زيارة معلّقة، باسم «كريستيان بورتييه». كانت الغرفة الشبيهة بحجمها

بحجرة سفينة، تطلّ على جادّة بول دومير عبر نافذة تُفتح بسحب نصفها السفليّ إلى الأعلى. على سرير كريستيان، غطاء اسكتلنديّ النقشة. ولصق الجدار الرمليّ اللّون، كنبة من القماش ذاته. ورفّ طويل عليه مجسّمات طائرات وكرة أرضيّة. وعلى الجدار الآخر، صورة لإيفيت لوبون. أم تراها كانت السيّدة بورتييه؟ تنبّه كريستيان لنظرتي.

- تتساءل أيّ منهما هي، أليس كذلك؟ كلود أم إيفيت؟

كان كاتفاً ذراعيه مثل أستاذ طرح للتوّ سؤالاً مستعصياً على تلميذ.

- إنّها كلود يا صاحبي.

عرض لي باعتزاز المذياع العاجيّ اللون المدمج بالمنضدة الليليّة. ثمّ الحمّام الضيّق الملبّس بالفسيفساء الكحليّة، وفيه مغطس دائريّ صغير عالي الحافّة.

- هل لديك مانع أن نستمع إلى برنامج؟ سألني.

أدار زرّ المذياع. انبعث صوت مذيع معلناً: «إلى الذين يحبّون الجاز». كان بوق يعزف نغمة بطيئة ساكنة مثل خطّ يرسمه طائر بحريّ يحلّق فوق شاطئ مقفر عند المغيب.

- هل تسمع؟ إنّه سوني بيرمان[1]...

كنّا جالسين جنباً بجنب على حافّة السرير. كان كريستيان أخرج من الخزانة زجاجة ويسكي ملأ منها نصف كوب فرشاة أسنانه. وكنّا نحتسي منه الواحد تلو الآخر، ونحن نستمع إلى الموسيقى، فيما تلامسنا ظلال المارّة، يعكسها على الجدار أحد مصابيح الجادّة.

*

غالباً ما كنّا نبقى وحيدين في مساءات أيّام السبت تلك، وعندها تنتاول العشاء مثل شخصين بالغين في مطعم فارغ في ساحة ألبوني، بفضل الخمسين فرنكاً التي كانت السيّدة بورتييه تعطيها لابنها مصروف جيب.

- إنّني أدوّن كلّ ذلك على دفتر حسابات، قال لي. وسوف أسدّد كلّ قرش لكلود حين أبلغ الواحدة والعشرين.

بعد ذلك، كنّا نستقلّ المترو لحضور جلسة الساعة

(1) Sonny Berman (1925–1947) عازف بوق أميركي.

العاشرة في صالة سينما في أوتوي. شرح لي كريستيان أنّ مدير ذلك السينما صديق لوالدته. كان رفيقي يتقدّم أمام الموظّفة على الصندوق، فتناولنا في الحال تذكرتين مجّانيّتين.

كنّا نعود مشياً عبر شارع شاردون لاغاش وشارع لا فونتان، أنا مرتدياً معطفي الصوفيّ وكريستيان في معطف من وبر الجمل فوق طقمه القاتم. تلك الملابس كانت تجعله يظهر أكبر سنّاً بعشر سنوات، لكن يبدو أنّه لم يكن يكتفي بذلك القدر. فهو اشترى نظّارتين إطارهما عظميّ، كان يضعهما حين نخرج مع والدته، فيبدو شكله غريباً. لو استطاع، لترك شاربيه ينموان وصبغ شعره باللّون الرماديّ.

حين نصل إلى ردهة المبنى المطليّة بالأخضر الفاتح، كان يعرض عليّ خافضاً صوته:

- ما رأيك لو نذهب لإلقاء التحيّة للحظة على كلود؟...

عند الخروج من المصعد، كان يمشي على رؤوس أصابعه حتّى باب الشقّة، وهناك نقف بلا حراك أمام ذلك الباب. كان الضوء الآليّ في السلالم ينطفئ من غير أن يرى

أيّ منّا من المناسب إشعاله من جديد. أصداء أصوات أو قهقهات، ترد كتيمة. ترى ما عدد المدعوّين؟ بين الحين والآخر، كنت أميّز صوت السيّدة بورتييه، غير أنّه يكون مختلفاً عمّا هو في وضح النهار، صوت أجشّ. ضحكتها أيضاً كانت زاعقة ومتقطّعة أكثر من العادة.

بعد لحظة، يمسك بذراعي ويقودني في الظلمة.

نعود من جديد إلى وسط الردهة التي كانت جدرانها تلتمع في النور الحادّ المنبعث من المصابيح المعلّقة عليها.

- سأرافقك إلى المترو...

كانت المحطّة على مقربة، في ساحة التروكاديرو. غالباً ما كنّا نلتفّ حول الساحة لكسب بعض الوقت معاً، ونتبع جادّة كليبير وصولاً إلى محطّة بواسيَر.

- لا تزال كلود تلهو وتمرح، يقول لي كريستيان. أو ربّما تلعب البوكر...

كان يفتعل نبرة من يجد الأمر طريفاً.

- ستستيقظ غداً صباحاً متوعّكة تحت تأثير الكحول...

عند مفارقته، كنت ألاحظ ملامحه المتشنّجة ونظرته الحزينة. الأرجح أنّ فكرة العودة وحيداً إلى جادّة بول

دومير، في غرفته «المستقلّة»، لم تكن تبعث فيه الكثير من الاندفاع. وكلود التي كانت «تلهو وتمرح»... لعلّه كان بودّه في تلك اللحظة أن يخبرني أمراً كان يكتمه، لكنّه كان يتشنّج. وقبل أن أنزل الأدراج، يلوّح لي بذراعه ويرفع إصبعيه إلى جبينه في تحيّة عسكريّة مبهمة.

أدركت بعد وقت طويل أنّه على عكس أولئك الكهول الذين يجهدون لشدّ بطونهم والمشي بخطى رشيقة ليبدوا أكثر شباباً، لم يكن هناك خلف إطار النظّارتين العظميّ والطقم القاتم والمعطف من وبر الجمل، سوى طفل جزع.

*

أولئك الرجال الكهول الذين لا تزال قامتهم رشيقة، أو على الأقلّ يعتمّدون الظهور على ذلك الشكل فيراقبون مشيتهم، شاهدت بعضاً من صنفهم مع السيّدة بورتييه. قدمت عدّة مرّات لزيارتنا في المدرسة برفقة أحدهم، ولم يكن مرّةً هو الرّجل ذاته. كانت تختار دائماً الحضور فيما نكون في الحديقة المكسوّة بالعشب، أثناء الفرصة السابقة

لحصّة الفروض المسائيّة.

قدّمت لنا رجلاً يدعى «السيّد وايلر»، شعره فضّيّ وجفناه متراخيان. طرح بعض الأسئلة الودود على كريستيان حول دروسه. كان ينبعث منه عطر بالمسك والأعشاب، وكان يدعك قفّازين بين أصابعه الطويلة النحيفة. أخبرني كريستيان بعد تلك الزيارة أنّ وايلر ذاك كان بائع ألماس بالغ الثراء تعرّفت والدته عليه قبل وقت قصير. كان هناك أيضاً رجل آخر، أشقر ذو شاربين ومشية رياضيّة، يدعى مركيز مكانٍ ما لم أعد أذكره، كان يتكلّم بصوت جهوريّ مستخدماً كلمات من اللّهجة العامّيّة. وإن كانت السيّدة بورتييه تجلب وايلر معها في سيّارتها، فهي حين كانت تأتي إلى المدرسة مع «المركيز»، تحضر في سيّارته البويْك.

خيال رجل ثالث، وجهه ينمّ عن مكر وخداع، يرتدي معطفاً أسود... ذلك الرجل، دعوناه أنا وكريستيان «السُّرعوب»[1]. ترى أيّ من الثلاثة -أو ربّما هناك رابع- أجابه كريستيان على الهاتف ذات عصر حين كنّا وحيدين

(1) السُّرعُوب: حيوان يسمّى أيضاً ابن عِرْس.

في شقّة والدته، فقال له بلباقة سكرتير يقوم بمهامّه على أتمّ وجه: «الآنسة بورتييه غائبة لكنّني سأنقل لها الرسالة... الآنسة بورتييه لن تعود حتماً قبل الساعة السابعة مساءً... حسناً... سوف أقول ذلك للآنسة..».

ما زلت إلى اليوم أتساءل عن سبب تلك الزيارات إلى فالفير. ربّما كانت تريد أن توحي لهم بالثقة، فتعرّفهم جميعهم على ابنها الشابّ، التلميذ في مدرسة ذائعة الصيت في سين ايه واز؟ وماذا عن غرفة كريستيان «المستقلّة»؟ أفترض أنّها كانت ضروريّة حين كانت الآنسة بورتييه تستقبل أصدقاءها مساء السبت في شقّتها.

*

في مساء يوم سبت، دققت بابها. كان كريستيان حُرم من الخروج في نهاية ذلك الأسبوع بسبب علامة صفر حصل عليها في الرياضيّات، فكلّفني بنقل رسالة لوالدته، وحمّلني حقيبة صفيح صغيرة فيها ملابس ينبغي غسلها.

فتحت لي الباب. كانت حافية وملتفّة بمبذل حمّام

أبيض. بدت محرجة لرؤيتي.

- مرحباً... يا لها من مفاجأة...

بقيَتْ واقفة هناك، في فتحة الباب الموارب، وكأنّها تريد أن تقطع لي الطريق.

- من هناك كلود؟ سأل صوت رجل قادم من الصالون.

- لا شيء... صديق لابني...

وبعد لحظة تردّد:

- تفضّل...

كان جالساً على إحدى الوسادات الجلديّة الموضوعة أرضاً، حانياً صدره بشدّة إلى الأمام في وضع خيّال يتأهّب للقفز فوق حاجز. رفع رأسه وابتسم لي. لم يكن وايلر، ولا «المركيز»، ولا حتّى «السُّرعوب»، بل أسمر خمسينيّ، محتقن الوجه قليلاً وعيناه فاتحتا اللّون.

فتحت السيّدة بورتييه ظرف كريستيان. كنت لا أزال أحمل بيدي الحقيبة الصغيرة من الصفيح.

- تفضّل اجلس، قالت لي.

أخذت تقرأ الرسالة. قهقهت بضحكة عابرة.

- ابني يوصيني بعدم السهر حتّى ساعة متأخّرة، وبالتخفيف من التدخين وعدم لعب البوكر...

- ابنك على حقّ.

التفت صوبي.

- هل تودّ تناول فنجان من الشاي؟

أشار لي إلى طبق موضوع على الطاولة الخفيضة، وعليه فنجانين وإبريق شاي.

- لا، شكراً.

- أنت صديق لابنها؟

- أجل.

- وماذا يفعل هو الآن؟

- بقي في المدرسة... إنّه محروم من الخروج...

دسّت السيّدة بورتييه الرسالة في أحد جيبي مبذلها. اقتربَت وجلست على حافّة الأريكة شابكةً ساقيها. انزلق أحد جانبَي المبذل. كان بوسعنا رؤية ساقيها. تلك البشرة السمراء الكامدة بين نسيج المبذل الأبيض ومخمل الأريكة الحمراء كانت تخلب نظري.

- مسكين كريستيان...، قالت. لا بدّ أنّه سئمٌ وحده

هناك... هل كانوا يحرمونك أنت أيضاً يا لودو من الخروج حين كنت طفلاً؟

هزّ لودو كتفيه.

- لم أذهب إلى المدرسة قطّ... وجدتْ والدتي لنا أنا وشقيقي شخصاً علّمنا القراءة... وكذلك أستاذ رياضة...

أمّا أنا، فكنت أجد صعوبة في تحويل نظري عن ساقَي السيّدة بورتييه السمراوين المشوقتين.

- ما رأيك لو نقوم بزيارة لابنك؟ سألها. سوف يرفع ذلك من معنوياته...

هل سبق أن اصطحبته معها إلى المدرسة، مثلما فعلت مع وايلر أو «المركيز» أو «السُّرعوب»؟

- الوقت متأخّر جدّاً الآن، أجابت السيّدة بورتييه. والطقس بارد...

كنت أفكّر بكريستيان. بعد عصر كامل قضاه يعمل في البستان، سيحين وقت العشاء. سيتناول طعامه في زاوية المقصف المقفر، برفقة عشرين رفيقاً آخر محرومين مثله من الخروج. لن يُسمح لهم بالتكلّم في ما بينهم. ثمّ يصعدون

بصمت في الصفّ إلى المهجع.

نهض ومدّ لي علبة سجائر جلديّة.

- هل تدخّن؟

- لا، شكراً.

- قل لكريستيان إنّني سآتي لزيارته الثلاثاء، قالت لي السيّدة بورتييه.

- سأرافقك، كلود...

كانت تلك فعلاً طقوس. هل كان كريستيان، بطباعه الحريصة على أدقّ التفاصيل، يقيم جردة بجميع الرجال الذين اصطحبتهم والدته في زيارة إلى فالفير منذ التحق بتلك المدرسة كتلميذ داخليّ؟

لاحظت نظرتي وشدّت فجأة طرف مبذلها فوق ركبتيها.

- سوف تسأم من دون كريستيان في عطلة نهاية الأسبوع، قالت.

- أجل.

- يمكنك البقاء معنا إن شئت، عرض لودو.

كان يسند مرفقه إلى حافّة الموقد الرخاميّة. ذهلت

لوضعه الفاتن. كان ذلك الانطباع ناجماً عن قَصّة بذلته الأنيقة، وكذلك عن خمول عفويّ في جلسته، كاتفاً ذراعيه وشابكاً ساقيه، وجسده موارب قليلاً.

- بإمكاننا ربّما... بإمكاننا أن نلعب البريدج، نحن الأربعة، مع شقيقي...
- لا تقل حماقاتٍ يا لودو... هذا الفتى لا يلعب البريدج...
- هذا مؤسف...

رافقتني حتّى الباب، وإذ كنت على وشك الرحيل، كان وجهها قريباً من وجهي، وعطرها يثير مشاعري، إلى حدّ أنّني وددت تقبيلها. لماذا لم يكن يحقّ لي أن أقبّلها؟

- أتعلم، هذا الصديق لطيف للغاية... كريستيان يحبّه كثيراً... لودو سيعطيه دروساً في قيادة الطائرات... أنت أيضاً إن كنت ترغب في ذلك... كان طيّاراً بارعاً إبّان الحرب...

كانت تبتسم لي. في هذه الأثناء، وضع لودو أسطوانة على مشغّل الأسطوانات في الصالون.

- إلى اللّقاء... ولا تنسَ أن تقول لكريستيان إنّني آتية

لزيارته الثلاثاء...

تنبّهت وأنا أنزل الأدراج أنّني كنت لا أزال أحمل الحقيبة الصغيرة من الصفيح التي وضع فيها رفيقي ملابسه للغسيل.

هل كان ذلك سهواً أم بحثاً عن ذريعة للعودة إلى شقّة السيّدة بورتييه؟

*

كان الليل هبط. دخلت والحقيبة بيدي مطعم خدمة ذاتيّة في الجادّة، قبالة المبنى. كنت الزبون الوحيد هناك. اخترت قطعة حلوى وكوبَ لبنٍ وجلست إلى إحدى الطاولات الدائريّة قرب الزجاج.

بعد نصف ساعة، رأيت لودو يخرج من المبنى. جاء دوري أنا الآن للصعود مجدّداً إلى الشقّة بحجّة إعطاء الحقيبة للسيّدة بورتييه. وبعدها... لكن حين صرت على الرصيف، تردّدت، ثمّ في ردّ فعل آليّ، رحت أتبع لودو.

كان يمشي على مسافة حوالى عشرين متراً أمامي. فتح

باب سيّارة بنّيّة ضخمة مركونة عند زاوية شارع شيفير، وأخرج منها معطفاً من غير أن يرتديه، مكتفياً بإلقائه على كتفيه. وسلك شارع شيفير.

لفتتني عند عبوري لوحة مكتوب عليها «مُقعَد حرب»، موضوعة لصق زجاج السيّارة، في توازن هشّ بين ستفتين من محارم الورق وكدسة من أدلّة ميشلان. تلك اللوحة المتروكة هناك ذكّرتني بالأناقة المتراخية في وقفته، مسنداً مرفقه إلى الموقد.

أكمل طريقه في جادّة دوليسّير، مدّثراً بمعطفه الكحليّ مثل عباءة، وهو يلقي نظرات إلى تلك الأدراج الغامضة المحاذية لحافّات المباني من طرفي الجادّة. كان يعرج بصورة طفيفة. مُقعَد حرب. طيّار بارع، مثلما قالت لي السيّدة بورتييه. كنت أنا نكرة بجانب ذلك الرجل. فلماذا أتبعه؟ كان بودّي أن أكلّمه عن كلود، أن أطرح عليه بعض الأسئلة، لأنّ ثمّة ما كان يجمع بيننا: كلانا يعرف ذلك العطر المبهّر الذي يمتزج برائحة سجائر روايال، والساقين السمراوين تحت مبذل الحمّام.

توقّف عند أسفل الجادّة، حيث تبدأ حدائق

التروكاديرو. حذوت حذوه. وضعت الحقيبة أرضاً على الحصى. لا، لن أجد أبداً الشجاعة الكافية لمبادرته بالكلام. كان يدخّن. ألقى عقب سيجارته في الهواء بنقرة من سبّابته ورفع ذقنه، كأنّما ليتبع مسارَ نيزك.

وصلنا كلانا في ذلك الليل الشتائيّ إلى سفح تلّة، من حيث كان بوسعنا رؤية أضواء باريس، ونهر السين، وخيول جسر يينا. مرّ مركب نهريّ، وسرت انعكاسات كشّافاته على واجهات مباني الأرصفة وعبر الحدائق.

*

لم ألتقِ بكريستيان ولا بالسيّدة بورتييه بعد رحيلي من مدرسة فالفير.

وبعد عشرين عاماً، كنت أبحث في نيس عن فندق أو نزل عائليّ بإيجار زهيد لصديق قديم لوالدي كان يريد قضاء الشتاء في تلك المدينة. كنّا في شهر نوفمبر، وكان الوقت ليلاً. عند آخر شارع شكسبير، بعد تخطّي المباني بلون القشطة التي يحمل كلّ منها فوق سقيفة مدخله اسم

زهرة، وجدت لوحة معلّقة على بوّابة سياج، وعليها: «فيلّا سانت آن. شقق بغرفة واحدة مفروشة. مطبخ مع برّاد. حمّام. حديقة. تدخلها الشمس. تدفئة بالمازوت».

كان ممرّ مكسوّ بالحصى يقود إلى بوّابة أخرى مواربة. من أدراج المدخل ينبعث ضوء أصفر يلقي على الحديقة نوراً شاحباً، تاركاً في ظلمة شبه كاملة شريطاً صغيراً من العشب وأقفاص أرانب أو طيور بدا لي أنّني أسمع حفيف أجنحتها.

تسلّقت أدراج المدخل. خلف الباب الخارجيّ الزجاجيّ، صالون مكسوّ بورق الجدران. أثاث من الطراز الريفيّ. وطاولة مغطّاة بشرشف من الدنتيل. كان الضوء أصفر ذاوياً، حتّى لَيخاله الواحد انخفاضاً في التيّار الكهربائيّ. كانت امرأة جالسة إلى الطاولة، كاتفةً ذراعيها، أمام التلفاز.

دققت على النافذة، لكنّها لم تسمعني. دفعت الباب الخارجيّ. التفتت إليّ.

السيّدة بورتييه. نهضت وتوجّهت صوبي. وأطفأت التلفاز في طريقها.

- مساء الخير سيّدي...

- مساء الخير... هل ما زال لديك غرفة للإيجار؟

- بالطبع...

عرفتها على الفور. وجهها لم يتغيّر تقريباً، إلاّ أنّ الملامح غلظت، والشعر بات أقصر بكثير. والفم منقبض بشكل طفيف في تعبير مرير. وعيناها ما زالتا تحتفظان بذلك البريق الرماديّ أو الأزرق الشاحب جدّاً الذي كان يؤثّر فيّ.

- هل هي من أجل إقامة طويلة؟

- نعم. حوالى شهرين.

- إذن سأعرض عليك الغرفة مع الحمّام والمطبخ...

التفتنا حول البيت وتقدّمتني متسلّقة سلالم ضيّقة أدراجها مكسوّة بطبقة مشمّعة. رواق يضيؤه مصباح عارٍ معلّق على الجدار. ثمّ باب.

- تفضّل.

أشعلت الضوء. كانت الثريّا الخشبيّة على شكل دفّة سفينة ثبّتت عليها مصابيح تعلوها أغطية من الجلد الرقيق. الأرضيّة المشمّعة ذاتها كما على الأدراج. وورق

جدران يطغى عليه اللّون الأحمر العقيقيّ. وسرير ذو قضبان نحاسيّة.

- هنا، لديك ركن المطبخ.

كانت حجرة ضيّقة فيها فرن من طراز قديم وبرّاد صغير يبعث هديراً.

- دعني أريك الحمّام...

عبرنا الرواق من جديد. فتحت باباً. مغطس من الخزف الأبيض على قوائم.

- المرحاض في الجهة المقابلة.

- هل يمكنني إلقاء نظرة مرّة أخرى على الغرفة؟ سألتها.

- بالتأكيد.

كانت الستائر مغلقة. هي أيضا منقّشة برسوم، أوراق وأزهار باللون العقيقيّ مثل ورق الجدران. كانت رائحة عطنة تملأ الغرفة، وكأنّها لم تفتح منذ وقت.

- هل تطلّ النافذة على الطريق؟ سألت.

- لا، على الحديقة.

وبحركة كسلى، أزاحت الستائر.

- هل يمكنني معرفة قيمة الإيجار؟
- ألف ومائتا فرنك في الشهر.
بدت فجأة أكبر سنّاً بكثير، ربّما لأنّها لم تكن متبرّجة.
اقتربت منها.
- ألست السيّدة بورتييه؟
حملقت بعينين مشرّعتين، وكأنّني صوّبت مسدّساً إليها.
- لماذا؟ هل تعرفني؟
- أجل. منذ زمن بعيد... كنت صديقاً لكريستيان.
- آه... صديق لكريستيان... كنت صديقاً لكريستيان...
ردّدت تلك الجملة وكأنّها اطمأنّت.
- كنّا معاً في مدرسة فالفير... كنت تسكينين في جادّة بول دومير...
- جادّة بول دومير...
كانت تحدّق بي مليّاً.
- لا يمكنني التعرّف إليك... ما اسمك؟
- باتريك.
مكتبة الرمحي أحمد @ktabpdf تيليجرام

- باتريك... آه أجل... أجل، بالطبع أذكر الآن...

كانت تبتسم لي. جلسَت على حافّة السرير.

- أتعلم، لم يعد اسمي السيّدة بورتييه... الحياة مليئة بالتعقيدات...

وبالطرق المتعرّجة أيضاً. لم يكن من الممكن أن يخطر لي يوماً أنّني سأجد نفسي في غرفة فندق برفقة السيّدة بورتييه.

- إنّني متزوّجة الآن... مع عجوز يكبرني بعشرين عاماً...

كانت تمسّد هدب غطاء السرير.

- عرفت الكثير من التقلّبات...

- وكريستيان؟ سألتها.

- إنّه مقيم في كندا. لم تردني أخبار منه منذ زمن طويل... أعتقد أنّه لم يعد يريد أن يراني...

- لماذا؟

رفعت كتفيها.

- لا بدّ أنّ له مآخذ عليّ... الواقع أنّه لم يكن يجدر بي بالأساس إنجاب طفل... العجوز الذي تزوّجته لا

يعرف حتّى أنّ لديّ ابناً...

- ولماذا تزوّجت؟

كان من التطفّل أن أطرح عليها مثل ذلك السؤال، لكنّها كانت ستبوح لي بكلّ شيء هناك، في تلك الغرفة.

- تصوّر أنّني لم أعد أملك قرشاً واحداً...

ارتسمت على وجهها ابتسامة أضاءت نظرتها الحائرة بين الأزرق والرماديّ.

- زوجي منكّدٌ من الطراز الأوّل، وقد يعيش مائة عام... إنّني بمثابة خادمة له... هل يمكنك تصوّر ذلك؟ هل كنت تتخيّلني يوماً في هذا الدّور؟

لم أدر ما أجيبها.

- إذن تريد أن تستأجر غرفة؟

- لن أستأجرها لي، بل لصديق.

- وماذا تفعل في الحياة؟

باغتني سؤالها.

- أه... لا شيء... أكتب روايات بوليسيّة...

- لا يدهشني أن تكون تكتب... كنت فتى شارداً في أحلامه، أليس كذلك؟...

نهضَت.

- يجدر بك أن تكتب رواية عنّي... حياتي رواية نهايتها تعيسة...

قهقهت بضحكة عفويّة، تلك الضحكة التي كنت أحبّ أيّام جادّة بول دومير.

- أترى الغرفة؟ إنّها قبيحة، أليس كذلك؟ كلّ ما في هذا المنزل تعس... لا يملك زوجي ذرّة من الذوق الرفيع... وفضلاً عن ذلك، طباعه لا تحتمل... ككلّ العجزة...

جرّتني خلفها خارج الغرفة وأمسكت بذراعي لنزول الأدراج.

- هل تودّ رؤية ملجأي؟... إنّه المكان الوحيد الذي لا يأتي ليكدّرني فيه...

عند طرف الحديقة كان يرتفع جناح صغير مربّع يصلح ليكون مسكن حارس أو بوّاب. فتحتُ الباب.

- العجوز لا يملك المفتاح... أحيانا أقفل على نفسي هنا...

ثريّا. سرير من الطراز الإمبراطوريّ. قطع أثاث

مكدّسة بعضها فوق بعض. مرايا. مصابيح. حقائب. منضدة كتابة من الطراز النابليونيّ. وصور معلّقة على الجدران.

- هذا ما تمكّنت من إنقاذه من الغرق... كلّ هذا كان في جادّة بول دومير...

تظهر في إحدى الصور فتيّة، شقراء تعترض جبينها خصلة شعر، عيناها فاتحتان، وترتدي قميصاً داخليّاً من الساتان مزيّناً بالدنتيل المخرّمة. تسند رأسها على ظهر كنبة، وساقها اليمنى ممدودة على المسند الآخر، فيما ساقها اليسرى مثنيّة. وفي قدميها حذاءان أسودان بكعبين عاليين.

- ... كنت في الثامنة عشرة... كان مدير شركة شواطئ موناكو متيّماً بي... قدّمني إلى الأمير بيار...

صورة أصغر حجماً تظهر فيها ممتطية جواداً مع فارس آخر.

- هنا كنت مع بانيون، صديق من آنيير. كان يعمل لحساب الألمان... هو الذي حصل على إطلاق سراحنا، أنا ووالد كريستيان، حين اعتُقلنا...

وفيما كانت تكلّمني، لمّت وسادة السرير عن الأرض وسوّت الغطاء المخمليّ الأحمر فوق الشراشف المدعوكة.

- ضربَنا الألمان ضرباً مبرحاً... أتساءل أيّ مكائد كان يحيكها والد كريستيان... أمّا أنا، فكادوا يحطّمون أسناني كلّها...

رفعت لوحة كانت موضوعة في عرض المنضدة الليليّة.

- هل يمكنك مساعدتي؟ سنضعها في عمق الغرفة...

أسندت اللوحة لصق الجدار.

- إنّه مستودع مهملات حقيقيّ هنا... لديّ كوم من التذكارات... إن كان هذا يهمّك من أجل رواياتك البوليسيّة...

- هذا يهمّني كثيراً، أجبتها.

- إذن عليك أن تأتي في عصر أحد الأيّام وتنقّب في هذه الفوضى...

عبرنا الحديقة. كانت ارتدت سترة واقية من المطر حمراء قصيرة جدّاً تصل إلى خصرها، يتباين لونها مع سواد بنطالها. أشارت لي إلى الأقفاص في العتمة.

- أربّي حوالى عشرين طائراً... أزجي وقتي...

- أليس هذا متعباً؟
- آه لا... قمت بأمور متعبة أكثر من ذلك...

كانت أمسكت بذراعي من جديد وكنّا نسير على طول الممرّ المكسوّ بالحصى. احتفظت بمشيتها الرشيقة المنسابة بخفّة، كما في أيّام فالفير.

- كنت حتّى خيّالة في شبابي...
- خيّالة؟
- إن استأجر صاحبك الغرفة، فسيكون بوسعنا أن نلتقي أحياناً كثيرة...
- أودّ ذلك...

كنّا وصلنا إلى السياج. قرّبت وجهها منّي.

- هل تجد أنّني تقدّمت كثيراً في السنّ؟
- لا.

صحيح أنّ ذلك الوجه استعاد نضارته في نور الشارع الخافت. وفي مطلق الأحوال، فإنّ المشية الرشيقة والضحكة لم تتبدّلا.

- سأذهب لإعداد الحساء لزوجي... هو لا يكلّمني منذ أسبوع... فرض عليّ الحجْر... على كلّ حال، لا يمكننا أن نتكلّم معاً. إنّه أصمّ... ينام في الساعة

التاسعة...

- ما رأيك لو أدعوك للعشاء ذات مساء؟

هزّت رأسها برزانة.

- أجل، لكن عليّ إذن أن أعطيك رقم هاتف وعنواناً حيث يمكنك أن تترك لي رسالة... العجوز يراقبني باستمرار، أترى؟... وهو أيضاً يفتح رسائلي...

فتّشت في جيب سترتها ومدّت لي بطاقة زيارة.

- إنّه مصفّف شعري... كريستيان كان يكتب لي دائماً على هذا العنوان... مكتبة الرمحي أحمد

- يؤسفني ألّا نستطيع أن نلتقي نحن الثلاثة، قلت لها.

وضعت يدها على كتفي.

- أنت، يبدو لي أنّك تعيش فعلاً في عالم من الأحلام...

حين وصلتُ إلى الرصيف، التفتّ. كانت واقفة خلف السياج، مسندة جبينها إلى القضبان. وكانت تبتسم.

- لا تنسَ... شارع باستوريلّي... محلّ «كونديه لتصفيف الشعر»...

11

كانت الساعة التاسعة مساءً وكنت أعبر أمام إحدى قاعات الانتظار في محطّة غار دو نور.

وجه. الجبين مستند إلى زجاج حوض الأسماك ذاك، والنظرة مرتاعة تعبة. ذلك كان أنتَ، شاريل.

دققتُ على الزجاج. هو أيضاً عرفني. عشرون عاماً مضت، وقلّما تغيّرنا. على كلّ حال، شاريل لم يتغيّر. نهض وراح يتأمّلني وعيناه تطرفان، وكأنّني أنتزعته فجأةً من حلم. كان مظهر الفتى الأشقر الراقي ذاك الملازم له يتباين مع أشكال الأشخاص القلائل الذين لفظهم النهار هناك: مشرّد نائم، مسنداً رأسه على كتف امرأة عجوز متبرّجة بشكل صارخ، ترتدي معطفاً واقياً من المطر، وعربيّ ذو خدّين شاحبين غائرين، يرتدي بذلة جديدة من نقشة أمير ويلز، بنطالها يشدّ على كاحليه، كاشفاً عن حذاءين

رياضيّين من دون رباط. كان ثمّة رائحة بول منتشرة في قاعة الانتظار تلك ذات التلبيسات الخشبيّة الداكنة والأضواء الباهتة.

- كم هو غريب أن ألقاك هنا يا صديقي، قال لي شاريل.

بدا واضحاً أنّه يكابد نفسه ليبدو منشرحاً، مثل شخص ضُبط في مكان مريب يقوم بعمل مشبوه، فيسعى جاهداً لتحويل الشكوك عنه.

- لسنا ملزمين بالبقاء هنا...

أمسك بذراعي وقادني بحزم، مقلّباً عينيه يميناً ويساراً، بتلك النظرة الهلعة ذاتها كما من قبل، خلف الزجاج. ما الذي كان يخشاه؟ لقاء أكون شاهداً عليه؟

خرجنا من جانب المحطّة الأيسر، فوصلنا إلى طريق مسدود عريض. كانت تردنا وشوشات وأصداء أصوات قادمة من مجموعات من الظلال الواقفة بلا حراك في العتمة. كدنا نتعثّر بأجساد ممدّدة أرضاً على الرصيف، وسط حقائب وأكياس سفَر. كانت فتيات شابّات في سترات جلديّة قصيرة متّكئات إلى بوّابات الطريق المسدود

المفتوحة، إحداها تضع على عرض جبينها رباطاً أسود يخفي إحدى عينيها. ورائحة البول تلك الملازمة للمكان.

عبرنا شارع دانكيرك. كانت حركة السير لا تزال كثيفة في تلك الساعة أمام المحطّة، والمقاهي لا تزال كلّها مضاءة.

- هل تسكن هذا الحيّ؟ سألْت شاريل.

- ليس بالتحديد... سوف أشرح لك...

عند زاوية شارع كومبيين، ألصق جبينه بزجاج مقهى فسيح مقفر، أضواؤه خافتة أكثر من المقاهي الأخرى. بدا لي أنّه يبحث عن شخص. لكن لم يكن هناك أيّ شخص في القاعة الغارقة في نور أخضر شاحب. أمسكني بذراعي من جديد، وتوجّهنا إلى جادّة ماجنتا.

- لديّ شقّة عزوبيّة هنا... لي ولزوجتي... سوف أشرح لك...

كنّا عند أسفل عمارة بلون يميل إلى الرمليّ، على شكل مقدّم سفينة، مبنى شاهق من تلك المباني التي كانوا يشيّدونها قبل الحرب مباشرةً. باب مدخل من الزجاج غير المصقول. وإلى اليسار، صالة سينما. كانت تعرض

فيها عدّة أفلام، أحدها بعنوان «أرداف ساخنة».

انبثق حوالى عشرة رجال خارجين من السينما، فيما كنّا نهمّ بدخول المبنى. بذلات قاتمة مرصوصة، ومحفظات سوداء، وشعر قصير منتصب على رؤوسهم. دفعوني لدى مرورهم، حتّى أنّ أحدهم داس على قدمي بمداس غليظ حافّة نعله من الحديد، ثمّ واصلوا طريقهم متقدّمين في الصفّ، غير آبهين لما يحيط لهم، بحثاً على الأرجح عن مطعم يمكنهم فيه تناول طبق من الشوكروت[1] أو الواترزوي[2] بالسمك، قبل أن يستقلّوا القطار إلى روبيه[3].

- حيّ غريب، قلت لشاريل، فيما المصعد يرتقي بنا ببطء في العتمة، ملقياً على جدار كلّ من الطوابق ظلال شبكه الحديديّ.

كان باب الشقّة معزّزاً من الخارج بصفيحة عليها بقع من الصدأ. أفسح لي شاريل الطريق. عبرنا ردهة جدرانها

(1) Choucroute طبق فرنسيّ تقليديّ باللّحم والنقانق والملفوف المخلّل.
(2) Waterzoi طبق من أصل هولنديّ يعدّ بالدجاج أو السمك مع الخضار بالكريم.
(3) Roubaix مدينة في شمال فرنسا قرب الحدود مع بلجيكا.

مكسوّة بالمخمل الأحمر، حيث مصابيح جداريّة تتدلّى منها بلّورات، تلقي نوراً حادّاً باهراً. وعلى الأرض، موكيت بحمرة المخمل.

- من هنا يا صديقي...

كانت قاعة جدرانها عارية، أرضيّتها الخشبيّة تلتمع تحت نور الثريّا. لا أثاث، باستثناء كنبة جلديّة كانت فتاة سوداء في حوالى العشرين من العمر نائمة عليها، ملتفّة بغطاء ذي مربّعات اسكتلنديّة. نافذتان، إحداهما مفتوحة، تطلّ على فسحة ضيّقة بين المباني، من النوع الذي يطلق عليه اسم «المنْوَر».

- اجلس صديقي... لا تخف... إنَها حين تنام، تنام عميقاً...

أغلقَ النافذة. جلسنا على طرف الكنبة. كانت غافية، رأسها منقلب قليلاً إلى الخلف، وعنقها ممدود. على الأرضيّة الخشبيّة، كان كلب بحجم مهيب، وبره الطويل أسود ومجعّد، نائماً هو أيضاً.

- إنّها فاتنة، ألا تعتقد ذلك؟ قال شاريل مشيراً إلى الفتاة. لمحتها ذات مساء في شارع موبوج...

أجل، كانت ملامحها رهيفة مثل ملامح طفل، وعنقها رقيق.

- أحد الأسباب التي جعلتني أستأجر هذا المكان، قال شاريل ساهماً في أفكاره، أنّني أفضّل أن أجلب فتيات إلى هنا، بدلاً من شقّتنا في نويّي... عرفت فتاة أخذت معها جميع ملابس زوجتي...

كنت أنتظر أن يعطيني بعض التوضيحات. استدارت الفتاة على جنبها الآخر، وراحت تتمتم كلمات غير مفهومة في نومها. كنت أتأمّل عنقها بإعجاب.

- هذه الشقّة تناسبني أيضاً لأنّني كثيراً ما أسافر الى الشمال في سياق أعمالي... سوف أشرح لك...

لكنّه لم يكن يشرح لي شيئاً على الإطلاق. خيّم الصمت بيننا، قطعته ضحكة امرأة. ضحكة حادّة. كانت قادمة من الغرفة المجاورة. ثمّ صوت رجل. تحوّلت الضحكة شيئاً فشيئاً إلى قهقهات جشّاء.

كان أحدهم يصطدم بالباب. خمدت الضحكة. جلبة مصارعة أو مطاردة. لم يحرّك شاريل ساكناً وأشعل سيجارة. سمعت المرأة تضحك من جديد. وبعد وقت،

أنين تحوّل إلى تأوّهات راحت تطول أكثر وأكثر.

- حين تكلّمت عن الشمال، قال شاريل بصوت رتيب، كنت أقصد بلجيكا... لديّ شخص هناك يهتمّ بأعمالي... أنت تعلم أنّ والدي كان بلجيكيّاً... وأنا كذلك، بالمناسبة...

لا بدّ أنّه كان يريد تحويل انتباهي. راح الكلب ينبح، كأنّما ردّاً على الشكوى المطوّلة خلف الباب.

- لكنّك... لا تسكن هنا فعليّاً؟ سألته.

- لا، نسكن في نويّي، أنا وزوجتي. شارع لافيرم. على مقربة من المنزل الذي كان يسكنه والداي... هل تذكر شارع لافيرم؟...

- أجل.

- قضوا على كلّ ميادين الفروسيّة في الشارع...

بدا فجأة مهموماً.

- ثمّة أمور كثيرة تغيّرت يا صديقي، منذ أيّام فالفير...

- هل أنت متزوّج منذ وقت طويل؟

- منذ عشر سنوات. سترى، سوزان امرأة فاتنة.

لم أجرؤ أن أسأله إن كانت هي التي تطلق تلك

التأوّهات والشهقات خلف الباب. كان الأنين في تلك الأثناء ازداد حدّةً ثم خفت. صمت. لم نعد نسمع سوى نفس الفتاة السوداء السويّ بقربنا، ونباح الكلب الذي كان يتباعد أكثر وأكثر.

فُتح الباب وخرج رجل يرتدي سترة فاتحة اللون ذات مربّعات، وفي يده اليمنى خاتم ضخم منقوش. رجل أشقر، طويل القامة جسيم، له شاربان.

- أقدّم لك فرنسوا دوفيلتز... صديق لي... قال لي شاريل.

- لم أكن أعلم أنكما هنا، قال الرجل.

أشعل سيجاراً. شعرت بالإحراج. كنت أحدّق بخاتمه وأصابعه القصيرة والسمينة. اقترب من النافذة المطلّة على المَنْور ووقف أمام الزجاج الأسود المغشّى حيث تنعكس الثريّا. هناك، على مسافة ضئيلة من الزجاج، راح يتمرأى فيه. قوّم ببطءٍ ربطة عنقه.

- ماذا ستفعل آلان؟ هل ستبقى هنا؟

- أجل. سأبقى هنا، أجاب شاريل بصوت جافّ.

- أنا سأقوم بجولة في الحيّ لأرى إن كان بإمكاني

العثور على طرائد...

عن أيّ طرائد كان يتكلّم؟ أيّ صيد غريب يمكن القيام به في جوار محطّة غار دو نور؟

- هل تريدني أن أجلب لك طرائد، آلان؟

كان يبتسم في فتحة باب الردهة.

- لا شكراً، ليس هذا المساء، أجاب شاريل.

أومأ لنا الآخر بيده اليسرى، اليد ذات الخاتم المنقوش، وهو لا يزال يبتسم، ثمّ توارى.

صفق باب المدخل.

- شخص عجيب غريب، قال شاريل. سوف أشرح لك... هل تودّ فنجان قهوة؟

- لا، شكراً.

- بلى، بلى. قليل من القهوة. سيكون ذلك مفيداً للجميع... انتظرني... سأذهب قبل ذلك لإعداد حمّام لزوجتي...

انتقل إلى الغرفة المجاورة، تاركاً الباب مشقوقاً. انقلبت الفتاة السوداء على جنبها الأيسر، وانحنى رأسها والتصقت وجنتها بحافّة الكنبة. بعد قليل، سمعت

صوت المياه تسيل في مغطس.

نهضت وتوجّهت إلى النافذة. كانت أشكال بشريّة تترنّح عند مدخل حانة. هل هم عسكريّون في إجازة؟ كان آخرون يحثّون الخطى، حاملين بأيديهم حقائب، وسيّارات الأجرة القادمة مسرعة إلى المحطّة تكاد تدهسهم. ترى عن أيّ نوع من الصيد كان ذلك الرجل يتكلّم؟

هناك، في الطريق المسدود حيث رائحة البول، ذلك الذي وصلنا إليه أنا وشاريل لدى خروجنا من المحطّة، كانت الفتيات لا يزلن متّكئات إلى البوّابات الحديديّة، وكأنّهن يقمن بالحراسة. بقعة سترة فاتحة اللّون، ربّما سترة دوفيلتز ذاك.

- هل يمكنك قطع المياه، ألان؟ قالت امرأة في الغرفة المجاورة.

هل تكون زوجة شاريل؟ لم يسمعها وظلّت المياه تسيل في المغطس. كان بودّي مغادرة ذلك المكان خلسة، لكنّ ذلك لن يكون لطيفاً تجاه ألان.

جلست من جديد على الكنبة. كانت الفتاة السوداء تتململ في نومها، وأسندت قدمها العارية إلى ركبتي.

كان سوار ذو حلقات عريضة يطوّق كاحلها. كان الكلب نهض، وتوجّه إليّ مجرجراً نفسه.

*

- هل رأيت كم تغيّر شارع لافيرم؟ قال لي شاريل. لم يعد منزل والديّ موجوداً... ولا ميادين ركوب الخيل... ألا تشعرين بالبرد حبيبتي؟ إن أردت، يمكننا العودة إلى الصالون...

خلع سترته ووضعها برفق على كتفي زوجته. كنّا ننتهي من تناول العشاء على شرفة شقّتهما في نوييّ، في شارع لافيرم.

كانت سوزان شاريل سمراء عيناها زرقاوان. فتنتني نعومة وجهها، ووجنتاها البارزتان، وقامتها الهيفاء، وملامح الصدق على وجهها. كان ألان أخبرني أنها غالباً ما تركب الخيل، وهذا ما سحرني تماماً. لطالما كنت ميّالاً إلى النساء اللواتي يمارسن تلك الرياضة.

كنت أفكّر تحديداً بالخيول فيما سوزان تقدّم لنا القهوة،

والليل يهبط، ليل دافئ بالنسبة لمطلع أكتوبر. في زمن فالفير، كان ألان يدعوني إلى منزله في أيّام السبت التي نخرج فيها من المدرسة. كنت أنزل في محطّة «بون دو نويّي» للمترو، وأسلك شارع لونشان وصولاً إلى شارع لافيرم. كان والدا شاريل يسكنان دارة فخمة، شبيهة بقصر تريانون[1]، في وسط بستان من العشب المجزوز يحيط بها مثل علبة مخمليّة رخيمة. كان ألان يصطحبني لأخذ درس في الفروسيّة في الجهة المقابلة للمنزل. كنّا صديقين لابن مدير ميدان ركوب الخيل، وكنّا نساعدهما هو ووالده على القيام بجولة أخيرة قبل العشاء لتفقّد الأحصنة، أو كما كانا يقولان: جولة المربض المسائيّة... وفي صباح الأحد، كنّا نتبع الشارع في ساعة باكرة وصولاً إلى نهر السين. كان سديم أزرق يغلّف ضفاف النهر وجزيرة بوتو. على طول رصيف السين، حواجز خشبيّة بيضاء وأدراج حلزونيّة تؤدّي إلى الزوارق النهريّة والمراكب الشراعيّة وسفن الشحن الصغيرة الراسية هناك إلى الأبد، مساكن عائمة.

- هل تعرف ألان منذ وقت طويل؟ سألتني سوزان.

---

(1) Le Trianon قصر شيّده الملك لويس الرابع عشر عام 1687 على مقربة من قصر فرساي، وهو مصنّف في قائمة اليونسكو للتراث العالميّ.

- منذ حوالى عشرين عاماً، أليس كذلك باتريك؟...

تعارفنا في مصحّ المدرسة، إلى حيث نقلنا بسبب إنفلونزا شديدة. كانت نوافذ غرفتنا تطلّ على نهر بيافر، وفي الليل، تتناهى إلينا رقرقة شلّاله. كانت الممرّضة تدعى ميغ. كانت تزورنا بعد الظهر. كنّا كلانا مغرمين بها، وعازمين على البقاء في تلك الغرفة لأطول وقت ممكن. ميغ خاضت حرب الهند الصينيّة، حيث كانت، مع جنفيف فودواييه، من النساء المظلّيات النادرات.

- هل ما زال بوسعك تشغيل جهاز السينما؟ سألني شاريل.

تمكّنت بعد طرد دانيال ديسوتو من إقناع السيّد جانشميت بتكليف ألان بالعمل معي في عرض الأفلام. عشرون عاماً مضت... ورغم ذلك، شعرت، وأنا هناك، بأنّ شيئاً من تلك الحقبة لا يزال يطفو في الجوّ. كان شارعا لونشان ولافيرم مقفرين وصامتين. عند الزاوية، حلّ مقهى حديث محلّ «لو لوبي» ذي التلبيسات الخشبيّة الماهوغاني، لكنّني لما كنت فوجئت لو سمعت وقع حوافر يبتعد، وحفيف أوراق الأشجار في الغابة، ولو شممت

رائحة الظلّ والتبن المنبعثة من مرابض الخيل.

- كيف كان ألان قبل عشرين عاماً؟ سألتني سوزان شاريل وهي تبتسم.

- أشقر جدّاً وهزيل جدّاً. كنّا نلقّبه أراميس.

- وهو كان أتوس، قال شاريل. غارق أبداً في أحلامه...

ماذا حلّ بوالديه؟ كان والده، بشعره وشاربيه بصفرة الزعفران، يشبه نقيباً في جيش مستعمرات الهند البريطانية. هل تواريا مثل حديقتهما وقصرهما التريانون؟ لم أجرؤ على طرح السؤال عليه.

- هل تذكر حين اصطحبنا والدي إلى مسرح «لا كوميدي فرانسيز» لمشاهدة مسرحيّة «السيّدة وقاحة»؟ سألني ألان.

كانت سوزان شاريل أشعلت سيجارة، وراحت تتفرّس فيّ.

- هل تركبين الخيل، سوزان؟ سألتها لقطع الصمت بيننا.

- لا، لم أعد أفعل كثيراً.

- أتعلم أنّ سوزان كانت فتاة من الحيّ... قضت طفولتها بالكامل بالقرب من هنا، في شارع سانت جيمس...

- كان من الممكن أن أتعرّف عليكما قبل عشرين عاماً، قالت سوزان، لكنّني لما كنت لفتّ انتباهكما... كنت صغيرة جدّاً... أنا أصغر سنّاً من ألان بستّ سنوات...

- ربّما التقينا بسوزان في الشارع في تلك الفترة، قلت.

قهقه شاريل بالضحك.

- وماذا كان من الممكن أن نفعل معاً، ما رأيكما؟

- كنت عندها سأطلب منكما أن تلعبا معي لعبة الحجلة، أجابت سوزان.

فيما كنّا نتكلّم، اقتربا أحدهما من الآخر، وكنت ألمس في نظراتهما مودّة لي، إنّما أيضاً ما يشبه الجزع والإحراج، وكأنّهما يبحثان عن كلمات مناسبة ليطلبا منّي مساعدتهما أو ليبوحا لي بأمر ما.

*

مكتبة الرمحي أحمد @ktabpdf تيليجرام

في تلك الليلة الصيفيّة، قرّرت العودة من عند ألان وسوزان شاريل مشياً. كنت أسير هائماً، نادماً على عدم طرح أسئلة على ألان، غير أنّ إحساساً بالخدر كان يسيطر عليّ: تلك الأمسية بكاملها التي قضيتها معهما في عتمة الشرفة كانت مشبعة بعذوبة حلم. وخيّل لي من جديد أنّني أسمع على طول شوارع نويّي المقفرة وقع الحوافر وحفيف أوراق الأشجار، كما قبل عشرين عاماً. ميادين الفروسيّة...

وصلت إلى زاوية جادّة ريشار والاس، أمام ذلك المبنى الغريب من حقبة النهضة الذي يُدعى «قصر مدريد».

توقّفت سيّارة سوداء بجانبي عند حافّة الرصيف:

- باتريك...

مدّ ألان شاريل رأسه من النافذة المفتوحة من غير أن يطفئ المحرّك.

- باتريك، هل تذهب معنا إلى محطّة غار دو نور؟

جالسة بجانبه، كانت سوزان تحدّق فيّ بنظرة غريبة، وكأنّها لم تتعرّف إليّ.

- تعال معنا إلى غار دو نور!

أمّا هو، فكانت عيناه محملقتين متّسعتين. كانا يخيفانني.

- لا يمكنني ذلك، عليّ أن أعود...

- حقّاً؟ هل أنت واثق من أنّك لا تودّ المجيء معنا؟

- في مساء آخر...

- حسناً، في مساء آخر...

قال ذلك بجفاف، وهو يهزّ رأسه مثل طفل محبط حُرم من تناول سكاكر. انطلق دفعة واحدة ومضت السيّارة مسرعة على طول جادّة القومندان شاركو. عاودت المشي. وبعد لحظات، شعرت بقلبي ينقبض. كانت السيّارة متوقّفة على مسافة خمسين متراً منّي، وهيكلها الأسود يلتمع عاكساً نور القمر. خرج شاريل، تاركاً الباب مفتوحاً. كان يتوجّه صوبي.

- هل أنت واثق فعلاً من أنّك لا تريد أن تأتي إلى شقّة غار دو نور؟ سوف يسعدني ذلك كثيراً... سوزان أيضاً... أتعلم، إنّها تحبّك كثيراً...

كانت ظلال ابتسامة ترتسم على شفتيه.

- سوف نشعر أنّنا أقلّ وحدة، أتفهم...

كان يقف، غارزاً يديه في جيبي سترته، مثلما كان يقف

في ما مضى في سترته بالمدرسة. آنذاك، كان السيّد لافور، أستاذ الكيمياء، يؤنبه قائلاً إنّه «ينفش ريشه».

- بربّك أراميس، اشرح لي ما الذي تفعله في هذه الشقّة في غار دو نور؟

جهدت لقول ذلك بنبرة ممازحة.

- نلتقي... أصدقاء... أعني إن كان بوسعنا وصفهم بالأصدقاء... إنّها حلقة... سوف أشرح لك...

كان يبتسم. دفعني بمودّة من كتفي.

- بالطبع، لم تعد الأجواء كما في عهد ميدان الفروسيّة في شارع لافيرم... كان زمناً طيّباً، أليس كذلك يا صديقي؟... اتّصل بي بين الحين والآخر...

توجّه بمشية عصبيّة إلى سيّارته. صفق الباب. لوّح بذراعه من النافذة المفتوحة مودّعاً، فيما بقيت واقفاً على الرصيف، أقول لنفسي إنّني لم أكن لطيفاً مع صديق الشباب ذاك. في نهاية المطاف، إن كانا مصرّين فعلاً على أن أرافقهما هو وزوجته إلى محطّة غار دو نور، فلماذا لم أفعل؟

*

أيقظني جرس الهاتف ذات ليلة، قرابة الساعة الحادية عشرة.

- باتريك... معك ألان... هل أزعجك؟

- لا، لا تزعجني إطلاقاً، أجبته بصوت غير واضح.

- هل يمكنك موافاتنا أنا وسوزان؟ المسألة مهمّة فعلاً... إنّنا بحاجة لرؤيتك...

- أين أنتما؟

- غار دو نور.

- غار دو نور؟

أحسستُ بي منعدم الإرادة، على استعداد للاستسلام للتيّار، كأنّما في كابوس. من يدري؟ ربّما كان فعلاً كابوساً.

- إذن، ستأتي؟

- أجل، إنّني قادم.

- شكراً باتريك. نحن في شارع دانكيرك، قبالة المحطّة. في مطعم، بجانب فندق تيرمينوس نور. هل تسمعني؟

- أجل.

- اسم المطعم «آليسبيرانس». هل تسمعني؟

- أجل.

- تعال في الحال. المسألة عاجلة.

قال ذلك بصوت يكاد لا يسمع، قبل أن يقفل الخطّ.

دخلْتُ. آلم النور الناصع عينيّ وأحسست وكأنّني أختنق حين رأيت كلّ تلك الحشود من الناس الذين كانوا يأكلون هناك، محشورين في مجموعات متراصّة من عشرة أشخاص أو عشرين شخصاً، كما حول موائد نزل أو في وليمة. كان ندُل يسرعون متعرّجين في الفسحات الضيّقة المتاحة بين الطاولات، فيما عازف أكورديون تائه هناك يضغط على آلته بحركات تلقائيّة، باعثاً موسيقى تطغى عليها جلبة شكاوى ونداءات تتصاعد وتبقى عالقة في كلّ مرّة. شققت طريقاً لنفسي عبر الطاولات، ممعناً النظر في تلك الوجوه القرمزيّة، أولئك الأشخاص الجالسين حول موائد العشاء، معظمهم يقشّرون ثمارَ بحر، عاقدين فوَطاً بيضاء حول أعناقهم.

كان ألان وسوزان جالسين عند طرف طاولة طويلة خالية، في زاوية في عمق الصالة. كانت الطاولة لا تزال مكتظّة بالأطباق المتروكة عليها. جلست قرب ألان،

في مواجهة سوزان. كانت ترتدي معطفاً واقياً من المطر رجاليّاً، فضفاضاً جدّاً عليها، ياقته مرفوعة على عنقها.

- شكراً لمجيئك يا صديقي...

أحاط كتفي بذراعه، واستند إليها. رفعت سوزان إليّ نظرة هامدة، وشعرتُ بالقلق لرؤية وجهها شاحباً. أكان النور هو الذي يجعل ذلك الوجه يبدو شاحباً إلى هذا الحدّ، أم التباين مع سواد المقعد من القماش المشمّع؟

- ما رأيك بهذا المكان؟ سألني شاريل مفتعلاً نبرة مرحة. واحد من آخر المطاعم الباريسيّة الحقيقيّة المتبقّية...

كنت مضطرّاً إلى الانحناء صوبه لسماع صوته. يخال الواحد أنّ جميع أولئك الأشخاص الذين يتكلّمون بأعلى أصواتهم حولنا يحتفلون بزفاف.

- هل تودّ تناول شيء؟

كنت وضعت بجانبي الهديّة التي أودّ منذ بضعة أيّام تقديمها لسوزان شاريل، كتاب رائع حول الفروسيّة، اكتشفته في مكتبة في شارع كاستيليون. لكنّ تلك الهديّة بدت لي نشازاً هناك، في عمق ذلك المطعم، أمام وجه

سوزان الممتقع المتشنّج.

قبضت على معصمي وشدّت عليه بقوّة.

- عذراً... لست على ما يرام... على الإطلاق...

- هل تشعرين بتوعّك حبيبتي؟ سأل شاريل.

كانت شاحبة للغاية. انقلب رأسها إلى الأمام مثل دمية من الخرق، وفي ردّ فعل تلقائيّ، رفعت ساعدها، مسندة جبينها عليه.

- لا تقلق صديقي، طمأنني شاريل. ستكون بخير.

رفع سوزان من كتفيها، وجرّها نحو باب المراحيض. تبعتهما بنظري. كانا يمشيان ببطء، هي متمسّكة من ذراعها بعنق ألان حتّى لا تسقط أرضاً، ومعطفها الواقي من المطار يتهدّل مثل مبذل رثّ. كان الصخب ازداد، مالئاً القاعة. إلى طاولة مجاورة، نهض أحدهم رافعاً كأسه، رجل شعره قصير منتصب على رأسه، وجبينه يتصبّب عرقاً. خفضت رأسي. كان مفرش طاولتنا ملطّخاً ببقع من النبيذ، تركها الذين سبقونا إلى تناول العشاء، وفي الطبق المتروك أمامي، كان لا يزال هناك بقايا لسان بقر.

أطلّ ألان وسوزان من جديد. كان يمسكها من

خصرها، وهي تمشي بخطى أكثر ثباتاً. كان وجه سوزان استعاد بعض الألوان، غير أنّ حدقتي عينيها لا تزالان متّسعتين. حدقتا عينَي ألان أيضاً. كانت تبتسم، ابتسامة انتشاء.

- ألستِ أفضل حالاً بكثير سوزان؟ قال شاريل.

- آه أجل... أفضل بكثير...

- وما رأيكِ لو نعود إلى الشقّة؟ هل ترافقنا باتريك؟

في الخارج، اقترح علينا شاريل أن نقوم بجولة في الحيّ. كانت أمطرت، والجوّ دافئ. كانت سوزان تمشي بيننا، ممسكة كلّ واحد منّا بذراعه.

سلكنا جادّة دونان، جادّة هادئة محفوفة بالأشجار، بعيداً عن الحركة والجلبة المحيطتين بمحطّة غار دو نور. كانت حافلة فارغة تنتظر، وقد غفا سائقها خلف المقود. من مدخل صالة سينما تحت سقيفة مدخل مبنى، تعصف على دفعاتِ نغماتِ غيتار هاواي.

جلسنا على مقعد. ناولْتُ سوزان الكتاب.

- هذا لك... هديّة...

تأمّلتني بحدقتيها المتّسعتين، شادّةً بيدها على ياقة

معطفها الواقي من المطر. كانت ترتعش.

- شكراً... شكراً جزيلاً... هذا في غاية الرقّة...

وضعت الكتاب على ركبتيها.

راحت تقلّب الصفحات، وننظر نحن الثلاثة إلى الصور في العتمة. كان ألان وسوزان يحتفظان بابتسامتهما الغريبة، وكأنّهما تائهان في حلم.

بعد وقت، أسندت سوزان رأسها على كتفي. لن يودّا حتماً أن أفارقهما، وقلت لنفسي إنّنا سنقضي اللّيلة هناك، على ذلك المقعد. في الجانب الآخر من الجادّة المقفرة، كان رجلان ببذلتي عمل خرجا من شاحنة مطفأة الأضواء ومكسوّة بشادر، يفرغان أكياساً من الفحم بحركات سريعة متستّرة، وكأنّهما يقومان بذلك خلسة.

*

بعد فترة، مجرّد خبر قصير في صحيفة المساء:

«اللّيلة الماضية، أصيب صناعيّ من نويّي، ألان شاريل، ثلاثة وستّون عاماً، برصاصتين من مسدّس في شقّة

مفروشة، رقم 126 جادّة ماجنتا، حيث كان برفقة زوجته وبعض الأصدقاء. وحسب أقوال الشهود، كان ذلك حادثاً عرضيّاً. ونقل الجريح إلى مستشفى أوتيل ديو».

طُلب منّي الانتظار في رواق جدرانه خضراء فاتحة، وفي طرفه غرفة شاريل.

فُتح الباب. لم تكن الممرّضة، بل الفتاة السوداء، تلك التي كانت نائمة بجانبنا في المرّة الأولى التي اصطحبني فيها ألان إلى الشقّة في جادّة ماجنتا. كانت ترتدي «تايوراً» أنيقاً، ولم يسعني سوى أن أقول لنفسي إنّه كان لسوزان.

جلسَتْ بجانبي، ومدّت لي ظرفاً.

- طلب منّي ألان أن أعطيك هذا... لا يمكنه استقبالك اليوم... إنّه متعب جدّاً...

فتحْتُ الظرف وقرأت:

«عزيزي أتوس،

هنا، ليس لديّ ما أشغل به وقتي سوى التفكير في الفترة التي كانت الأمور فيها لا تزال على ما يرام بالنسبة لنا، عندما كنّا كلانا في مصحّ المدرسة، تعتني بنا ميغ الفاتنة وتدلّلنا...

يا له من منزلق، إن فكّرت في الأمر، ذاكِ الذي قادني شيئاً فشيئاً خلال عشرين عاماً من ذلك المصحّ إلى أوتيل ديو...

سوف أشرح لك

صديقك دوماً

أراميس».

خرجنا أنا والفتاة السوداء من المستشفى. كانت ربطت بجذع شجيرة الكلب الضخم المجعّد الفرو، الذي رأيته في الشقّة في جادّة ماجنتا. ساعدتها على حلّ عقدة الطوق.

- هل أنّه كلبك؟

- لا. إنّه لألان وسوزان، لكنّني أعتني به.

كانت تبتسم لي.

- ما الذي حصل؟ سألتها.

كانت متردّدة في الإجابة على سؤالي.

- كان لا بدّ أن يحصل أمر كهذا... إنّهما يجلبان أيّاً كان إلى الشقّة.

رفعت كتفيها. لم تكن تودّ أن تقول لي المزيد.

- هل تعرفينهما منذ وقت طويل؟ سألتها.

- لا... ليس منذ وقت طويل... أسديا لي خدمة... يدعانني أسكن في شقّتهما.

ربّما كانت مرتابة منّي. فبعد قصّة إطلاق النار تلك، سوف يُفتح تحقيق على الأرجح.

- وأنت؟ هل تعرفهما منذ وقت طويل؟

- ألان صديق طفولة.

كان الكلب يتقدّمنا بحوالى عشرة أمتار، ويستدير بين الحين والآخر ليتثبّت من أنّنا ما زلنا خلفه. لم نقل شيئا آخر، وكنّا نمشي جنباً بجنب. أجل، «تايور التويد» ذاك الذي كانت ترتديه، رأيته ذات يوم، كانت سوزان شاريل ترتديه.

إذ أوشكنا على الوصول إلى بوّابة سان دوني، أدركت فجأة أنّ الكلب الضخم المجعّد الفرو سيقودنا بمشيته المتثاقلة المتبالدة حتّى حيّ محطّة غار دو نور.

12

ما الذي كان يجعلنا أنا ومارك نيومان نذهب بانتظام لوضع زهرة على ضريح أوبركامبف؟

كان جدار قديم يرتفع خلف الموقع المحصّن، تخفيه جنبات من الغار الورديّ. كان نيومان يسبقني ويتسلّقه، ويقفز من الجانب الآخر. ثمّ يسندني من وسطي ليساعدني على النزول بدوري. كان البستان المسيّج يمتدّ في الأسفل، والجدار ذاته يرتفع من الجانب الآخر أكثر من مترين، أملس لا تتخلّله أيّ نتوءات.

كان الأمر أشبه بالهبوط إلى قعر بئر. في أيّام القيظ، كان ثمّة برودة تخيّم في تلك الحديقة الصغيرة المسوّرة حيث يرقد أوبركامبف في سبات أبديّ. وكان الموقع المحصّن يظلّل أحواض الغار الورديّ والجدار. في الأسفل، تتدلّى أغصان شجرة صفصاف متهدِّل، تكاد تحجب ضريح

أوبركامبف الذي كان اسمه بحدّ ذاته يوحي بمياه بئر، أو بالصفحة الرخاميّة السوداء المتماوجة لانعكاس القمر.

اكتشف نيومان ذلك البستان السرّيّ المسوّر، ولم نجرؤ على الاستفهام من بيدرو عمّا إذا كان جزءاً من أراضي فالفير. وفي كلّ من مغامراتنا، لم نكن ندري إن كنّا سنجد القوّة الكافية لتسلّق الجدار في الاتّجاه المعاكس.

كان نيومان يحملني على كتفيه، فأتمركز فوق أعلى الجدار، مدلّياً ساقيّ من جانبيه. ثمّ أشدّ مارك إليّ بكلّ قوّتي. وبانتفاضة بهلوانيّة، كان يعبر دفعة واحدة إلى الجانب الآخر من الجدار. تحت قوّة اندفاعته، كنت أكاد أنقلب وأسقط.

عند العودة من ضريح أوبركامبف، نكون مثل غطّاسَين، مخبولين قليلاً بعدما طفونا إلى السطح من جديد.

في ليالي الصيف، كنّا ننسلّ من غرفتنا في الجناح الأخضر، إلى فناء الكونفدراليّة الذي يتحتّم علينا الالتفاف حوله بأسرع ما أمكننا. وإلّا، لواجهنا خطر ملاقاة بيدرو أثناء قيامه بدوريّته، أو كوفنوفيتزين وكلبه شورا. كنّا

عندها سنحرم من الخروج في عطلة نهاية الأسبوع، عقاباً لنا على التسكّع بعد إطفاء الأضواء.

بعدما نتخطّى الحديقة الكبيرة المكسوّة بالعشب، نصبح في مأمن من الخطر. فنغوص في عمق عتمة المنتزه، متوجّهين صوب مضمار هيبير وملاعب كرة المضرب. كان درب يتصاعد في اتّجاه الغابة، وهناك في الأعلى، نتسلّق الجدار الذي يسيّج المدرسة. نعبر مرجاً يلتمع في طرفه نور فجر مبهم، فنصل أخيراً بمحاذاة ميدان الطيران الذي رصده نيومان في يوم كان فيه يتنزّه في تلك الناحية.

هل كان مدرجاً تابعاً لمطار فيلاكوبلي؟ كان نيومان يدّعي أنّه لم يكن كذلك. فهو تمكّن من الحصول على خارطة عسكريّة، وكنّا نتفحّصها بالعدسة المكبّرة: لم يكن ميدان الطيران مذكوراً عليها. حدّدنا موقعه بعلامة على الخارطة: في وسط الغابة تماماً.

نتمدّد على العشب، قرب سياج الاسلاك الشائكة. هناك، نرى ظلالاً تدخل الحظيرة، وعند خروجها، تدفع عجلات وتحمل حقائب. في الطرف الآخر من الميدان، سيّارة أو شاحنة تنتظر، فتحمَّل فيها كلّ تلك البضائع.

وبعد قليل، يتضاءل هدير المحرّك. كان هناك ضوء مشتعل عند واجهة الحظيرة، وأمام مدخلها، عدد من الأشخاص بملابس ميكانيكيّين، يلعبون الورق حول طاولة. أو يتناولون العشاء، بكلّ بساطة. همهمات أحاديثهم في الليل. أنغام موسيقى. ضحكة امرأة. وفي أغلب الأحيان، يوزّعون على المدرج إشارات ضوئيّة، كأنّما لتسهيل هبوط طائرة لم تأتِ يوماً.

- يجدر بنا أن نرى ماذا «يفبركون» في وضح النهار، قال لي نيومان.

لكن في النهار، يكون المكان برمّته مقفراً ومهجوراً. والأعشاب البريّة تغزو المدرج. وفي عمق الحظيرة التي ترتجّ فيها مع الريح صفيحة معدنيّة أسيء تثبيتها، يرقد هيكل طائرة فارمان[1] قديمة متداعية.

(1) Farman طائرة فرنسيّة بمحرّك واحد ثنائيّة السطح، صمّمها هنري فارمان عام 1909.

13

حسناً، أنا التقيت بنيومان من جديد. سقطت كرة مطّاطيّة خضراء فاتحة على كتفي. التفتّ. كانت فتاة صغيرة شقراء عمرها حوالى عشر سنوات تنظر إليّ بارتباك، وهي تتردّد في الاقتراب لاستعادة كرتها. حسمت أمرها أخيراً. كانت الكرة تدحرجت على الرمل على مسافة بضعة أمتار منّي. التقطتها بحركة خاطفة، وكأنّها تخشى أن أصادرها منها، وضمّتها إلى صدرها وولّت راكضة.

في مطلع عصر ذلك النهار، كنا لا نزال قلائل على الشاطئ. جلست الفتاة لاهثة قرب رجل في سروال سباحة كحليّ، كان يتشمّس، ممدّداً على بطنه، مسنداً ذقنه على قبضتيه المشدودتين. كان شعره قصيراً لصق رأسه، وبشرته ملوّحة جدّاً، تكاد تكون سوداء، فلم أتعرّف في الحال على رفيقي القديم من فالفير، مارك نيومان.

ابتسم لي. ثمّ نهض. في سنّ الخامسة عشرة، كان نيومان مع ماكفاولز من أفضل لاعبي الهوكي في المدرسة. توقّف أمامي خجِلاً.

كانت الفتاة تمسك بيده، وهي تضمّ الكرة إلى صدرها، وراحت تتفرّس فيّ بنظرة مرتابة.

- إدمون... هذا أنت؟

- نيومان!

قهقه بالضحك وعانقني.

- يا لها من مفاجأة! ماذا تفعل هنا؟

- وأنت؟

- أنا؟... أهتمّ بالفتاة...

بدت مطمئنّة تماماً لرؤية ذلك، وكانت تبتسم لي.

- كورين، أقدّم لك صديقاً قديماً... إدمون كلود...

مددت لها يدي، فمدّت لي بدورها يدها بتردّد.

- لديك كرة جميلة، قلت لها.

أحنت رأسها بهدوء، وذهلتُ لرقّتها.

- هل تقضي عطلة هنا؟ سألني نيومان.

- لا... أمثّل هذا المساء في المسرح... إنّني في جولة مع فرقة...

- أصبحت ممثّلاً؟
- إذا أمكن القول، أجبت بإحراج.
- هل ستبقى في هذه الناحية لبعض الوقت؟
- لا، للأسف. يجب أن أغادر بعد غد... مع جولة الفرقة...
- هذا مؤسف...
بدا خائب الأمل. وضع يده على كتف الفتاة.
- وأنت؟ هل ستبقى هنا لوقت طويل؟ سألته.
- آه أجل... ربّما إلى الأبد، قال نيومان.
- إلى الأبد؟
لا بدّ أنّه كان متردّداً في الكلام أمام الفتاة.
- كورين... اذهبي وارتدي فستانك، قال نيومان.
حين باتت الفتاة على مسافة كافية حتّى لا تسمعنا، اقترب نيومان منّي.
- اسمع، قال لي خافضاً صوته، لم يعد اسمي نيومان، بل «فالفير»... فالفير، مثل المدرسة تماماً. خطبت والدة الفتاة... نعيش في فيلّا مع خطيبتي، والفتاة، ووالدة خطيبتي، ورجل عجوز هو حمو والدة

خطيبتي... قد تبدو المسألة معقّدة...

كان لاهث الأنفاس.

- عائلة بورجوازيّة جدّاً من نانت... أتفهم، بالنسبة لي، هذا يمثّل أمراً مستقرّاً... لا داعي لأقول لك أنّني كنت تائهاً بالأحرى حتّى الآن...

كانت الفتاة تتقدّم صوبنا، مرتدية فستاناً أحمر بكشاكش. وكانت تحمل كرتها في شبكة. وعند كلّ خطوة، تنفض إحدى قدميها، فيتساقط رمل من صندلها.

- تسكّعت في كلّ مكان بائساً، همس لي نيومان متكلّماً بوتيرة متسارعة. خدمت حتّى ثلاث سنوات في الفيلق الأجنبيّ... سوف أشرح لك إذا سنح لنا الوقت... لكن تذكّر... اسمي فالفير... لا تخطئ...

ارتدى بنطالاً قطنيّاً أزرق سماويّاً وقميصاً من الكشمير الأبيض، بحركات لا تزال رشيقة كما في أيّام المدرسة. أذكر ذهولنا وذهول كوفنوفيتزين، حين كان نيومان يتشقلب على ذراعيه أو يتسلّق الحبل في ثوانٍ، رافعاً ساقيه أفقيّاً في زاوية قائمة مع صدره.

- لم تتغيّر، قلت له.

- ولا أنت.

حمل الفتاة بملء ذراعيه، ومدّ ساعديه بحركة رشيقة، فوضعها على كتفيه حيث جلست مدلّية ساقيها من جانبي عنقه. كانت تضحك وتضغط الكرة على رأس نيومان.

- هذه المرّة كورين، لن يعود الحصان جرياً... سيعود مشياً...

توجّهنا إلى باحة الكازينو.

- سنشرب كوباً، قال نيومان.

كان هناك صالون شاي في الجناح الأيسر من الكازينو، بين مجموعة من المتاجر. جلسنا إلى إحدى طاولات السطيحة المحاطة بأحواض أزهار حمراء. طلب نيومان قهوة «مركّزة». حذوت حذوه. كانت الفتاة تودّ تناول البوظة.

- كوني عاقلة، كورين...

طأطأت رأسها خائبة.

- حسناً... أوافق على البوظة... لكن بشرط أن تعديني بأنك لن تتناولي سكاكر بعد الظهر...

- أعدك...

- هل تقسمين لي؟

مدّت ذراعها لتقسم، فسقطت الكرة التي كانت تضمّها إلى صدرها أرضاً. التقطتُها ووضعتها برقّة على ركبتيها.

كانت الفتاة تأكل البوظة بصمت. فتح نيومان المظلّة المثبتة في وسط الطاولة حتّى نجلس في الظلّ.

- هكذا إذن، أصبحت ممثّلاً؟...

- أجل يا صديقي...

- مثّلتَ في الماضي في مسرحيّة في المدرسة... ما زلت أذكر... ما كان اسم المسرحيّة؟

- «نُوح»، لأندري أوباي[1]. لعبت أنا فيها دور كنّة نوح.

تملّكتنا أنا ونيومان نوبة ضحك. رفعت الفتاة رأسها وأخذت تضحك هي أيضاً من غير أن تدري السبب. أجل، حقّقت قدراً من النجاح في ذلك الدور، بسبب قميصي وتنّورتي القرويّة.

---

(1) *Noé* للكاتب المسرحي الفرنسي André Obey (1892–1975) أحد أبرز المسرحيّين الفرنسيّين في فترة ما بين الحربين وحتّى خمسينيّات القرن العشرين.

- كان بودّي مشاهدتك هذا المساء في المسرح، قال نيومان. لكنّنا سنلزم الفيلّا... إنّه عيد ميلاد العجوز...

- لا يهمّ. في مطلق الأحوال، دوري صغير جدّاً...

أمامنا، عند طرف باحة الكازينو، كان ملصق لمسرحيّتنا معلّقاً على عمود أبيض يرتسم على زرقة السماء مثل صاري مركب شراعيّ.

- هل هذه مسرحيّتك؟ سأل نيومان.

- أجل.

كان اسم المسرحيّة «الآنسة أنا» مكتوباً بأحرف حمراء تبعث إحساساً مرحاً صيفيّاً، متناغماً مع السماء والشاطئ وصفوف الخيم الممتدّة تحت الشمس. كان بوسعنا من مكاننا قراءة اسم نجمتنا، وربّما أيضاً اسم رفيقي القديم سيلفستر بيل بأحرف أصغر بمرّتين. أمّا اسمي أنا في أسفل الملصق، فلم يكن بالإمكان رؤيته إلّا بمعونة منظار بحريّ.

- وأنت؟ هل ستستقرّ هنا؟ سألْت نيومان.

- أجل، سأتزوّج وأحاول تأسيس شركة في المنطقة.

- شركة ماذا؟

- وكالة عقاريّة.

كانت الفتاة على وشك إنهاء البوظة، وكان نيومان يداعب شعرها الأشقر، شارداً في أفكاره وهو يكلّمني.

- تريد زوجتي المقبلة البقاء هنا. هذا بسبب كورين إلى حدّ ما... من الأفضل لطفلة أن تسكن على الساحل من أن تبقى في باريس... لو ترى مدرستها... إنّها على مسافة بضعة كيلومترات، في قصر مع منتزه... هل يمكنك أن تحزر لمن كان هذا القصر؟ لواينغراين، تلميذ قديم من فالفير...

لم أعرفه جيّداً، واينغراين ذاك، لكنّ اسمه كان جزءاً من أسطورة المدرسة، إلى جانب أسماء أخرى: يوتلاند، بوردون...

- الفيلّا التي نسكنها خلف الكازينو... في الجادّة الرئيسيّة... كان بودّي دعوتك لتناول كأس هذا المساء، لكنّ العجوز عكر المزاج على الدوام...

كان جالساً، مادّاً ساقيه على كرسي، وكاتفاً ذراعيه في وضع رياضيّ يستريح، غالباً ما كان يتّخذه أثناء الفرَص.

- لكن لماذا بدّلت اسمك؟ سألته خافضاً صوتي، بعدما غادرت الفتاة طاولتنا.
- لأنّني أبدأ حياتي من الصفر...
- إن أردت أن تتزوّج، فستضطرّ رغم كلّ شيء إلى الأفصاح لهم عن اسمك الحقيقيّ...
- لا، على الإطلاق... ستكون لي أوراق جديدة... إنّها مسألة في غاية البساطة يا صديقي.

حرّك كلّاً من قدميه، فسقط حذاءاه القطنيّان الأبيضان الواحد تلو الآخر.

- والفتاة؟ هل لديها والد؟

كانت تتأمّل واجهة محلّ لتصفيف الشعر على مسافة قريبة، متصلّبةً، في غاية الرزانة، والكرة بين بطنها ويديها المشبوكتين.

- لا، لا... الوالد رحل... لا أحد يعرف أين هو... وللصراحة، هذا أفضل... أنا الوالد الآن...

لم أجرؤ على طرح أسئلة عليه. كان نيومان منذ المدرسة يحيط نفسه بالغموض، وحين نحاول معرفة المزيد عنه، كعنوانه أو عمره بالضبط أو جنسيّته، يبتسم دون أن يجيب

أو يحوّل مجرى الحديث. وكلّما طرح عليه أحد الأساتذة أسئلة في الصفّ، تشنّج على الفور وأبقى على شفتيه منقبضتين. وفي نهاية المطاف، عزوْنا موقفه هذا إلى حياء مرضيّ، ولم يعد الأساتذة يطرحون عليه أيّ سؤال، ممّا كان يجنّبه حفظ دروسه.

تسلّحت بالجرأة.

- وماذا فعلت إلى الآن؟

- كلّ شيء، أجاب نيومان متنهّداً. عملت ثلاث سنوات في داكار، في شركة استيراد وتصدير. وسنتين في كاليفورنيا... وفتحت مطعماً فرنسيّاً... وقبل كلّ ذلك، أتممت خدمتي العسكريّة في تاهيتي... بقيت هناك فترة من الزمن... التقيت بأحد رفاقنا من الصفّ، في موريا... بورتييه... تذكره؟... كريستيان بورتييه...

كان يتكلّم بوتيرة سريعة محمومة، وكأنّه لم يبح بشيء لأحد منذ وقت طويل، أو أنّه يخشى أن يقاطعه وصول دخيل علينا قبل أن يفرغ ما في جعبته.

- في هذه الأثناء، انتسبت إلى الفيلق الأجنبيّ... بقيت

فيه ثلاث سنوات... ثمّ فررت...

- فررتَ؟

- ليس بالتمام... رتّبت لنفسي إفادات طبيّة... أُصبت هناك، ويمكنني حتّى تقاضي معاش إعاقة... ثمّ عملت لفترة طويلة سائقاً للسيّدة فات[1]...

ذلك الفتى ذو المظهر الودود والرياضيّ، كان في الواقع مغلّفاً بضبابيّة، من غير أن يتقصّد ذلك. فبمعزل عن مزاياه الرياضيّة، كلّ ما فيه كان غامضاً، مبهماً. في الماضي، في المدرسة، كان سيّد مسنّ يأتي لاصطحابه أيّام السبت حين كنّا نسرَّح من المدرسة، أو يزوره خلال الأسبوع. بشرته أشبه بطلاء من الخزف، وعيناه حاجظتان، وكان يحمل عصاً، ويتّكئ بقامته الهزيلة إلى ذراع نيومان. قدّمه لي مارك على أنّه والده.

كان يرتدي بذلة قطنيّة، يزيّن جيب صدرها بمحرمة حرير. كان يتكلّم بلكنة يصعب تحديدها. وكان نيومان يناديه بالفعل «أبي». لكن ذات يوم، أعلن الأستاذ لنيومان

(1) Madame Fath زوجة جاك فات (1912–1954) مصمّم أزياء باريسيّ يعتبر من الأكثر تأثيراً في عالم الأزياء في فترة ما بعد الحرب، إلى جانب أسماء مثل كريستيان ديور وبالنسياغا.

عند العصر أنّ «السيّد كوندرياتسيف ينتظره في الفناء». كان ذلك هو السيّد المسنّ. كان نيومان يراسله، وكان ذلك الاسم المدوّن على الظرف يثير فضولي: «كوندرياتسيف». طلبت منه توضيحات. فاكتفى بالابتسام لي...

- سوف يسرّني كثيراً أن تقف شاهداً في زفافي، قال لي نيومان.

- متى تنوي الزواج؟

- في نهاية الصيف. ريثما أجد شقّة في هذه الناحية. لم يعد بوسعنا الإقامة في الفيلّا مع العجوز ووالدة زوجتي المقبلة. أنا شخصيّاً، بودّي العثور على شقّة هناك...

قال ذلك وهو يشير لي بحركة متراخية إلى المباني الضخمة الحديثة عند أقصى طرف الخليج.

- وزوجتك المقبلة، أين تعرّفت عليها؟

- في باريس... حين غادرت الفيلق الأجنبيّ. لا داعي لأشرح لك أنّني لم أكن بأبهى حالاتي. ساعدتني كثيراً... سوف ترى... إنّها امرأة رائعة... في تلك الفترة، لم يعد بوسعي حتّى عبور الشارع وحدي...

مكتبة الرمحي أحمد ٩٨

كان يبدو عليه أنّه يتولّى مسؤوليّاته الأبويّة الجديدة بمنتهى الجدّ، فلا يحوّل نظره عن الفتاة. كانت لا تزال مستغرقة في تأمّل واجهات الكازينو.

حنى رأسه صوبي وأشار لي بذقنه في اتّجاه الشارع المحاذي لجانب الكازينو والمنحدر حتّى الشاطئ.

- انظر... قال لي خافضاً صوته. هاتان خطيبتي ووالدتها...

امرأتان سمراوان بقامتين متماثلتين. الأصغر سنّاً شعرها طويل، ترتدي مبذل بحرٍ أحمر يصل إلى منتصف فخذيها. والأخرى ملتفّة بوشاح بحر ألوانه تدرّجات من المغريّ الصدئ والأزرق الفاتح. كانتا تنسابان على مسافة أمتار قليلة منّا، لكنّه لم يكن بوسعهما رؤيتنا بسبب أحواض الأزهار والشجيرات التي كانت تحجبنا.

- غريب... قال نيومان. من بعيد، تخالهما كلتيهما بالعمر نفسه... إنّهما جميلتان، ألا تجد ذلك؟

كنت أتأمّل بإعجابٍ مشيتهما الرشيقة، رأسيهما الشامخين، سيقانهما المشوقة الملوّحة بالشمس. توقّفتا في وسط السدّ الرمليّ المقفر، خلعتا أحذيتهما بكعبٍ عالٍ،

ونزلتا متباطئتين الأدراج المؤدّية إلى الشاطئ، وكأنّهما تعرضان نفسيهما للأنظار لأطول وقت ممكن.

- أحياناً أخطئ بينهما، قال نيومان مطرقاً.

تركتا شيئاً غامضاً يطفو في أثرهما. ذبذبات. كنت مفتوناً بهما، ورحت أجول بنظري على أنحاء الشاطئ، علّني ألمحهما من جديد.

- سأقدّمك لهما بعد قليل... سوف ترى... الوالدة جميلة بقدر الابنة... لكلّ منهما وجنتان عاليتان وعينان بنفسجيّتان... ومشكلتي أنا، أنّني أحبّ الاثنتين بالقدر ذاته.

عادت الفتاة راكضة إلى طاولتنا.

- اين كنتِ؟ سألها نيومان.

- ذهبت لرؤية مجلّات «بوم دابي»[1] في المكتبة.

كانت تلهث. أخذ نيومان الكرة من بين يديها.

- سيحين قريباً موعد العودة إلى الشاطئ، قال.

- ليس الآن، أجابت الفتاة.

اقتربَت من نيومان وسألته:

---

(1) *Pomme d'Api* مجلّة فرنسيّة للأطفال.

- جيرار... هل يمكنك أن تشتري لي مجلّة «بوم دابي»؟ جيرار؟

كانت تخفض رأسها في خجل. علت الحمرة وجهها لتجرّؤها على طلب المجلّة.

- طيّب... موافق... بشرط ألّا تأكلي سكاكر هذا العصر... خذي هذا، اشتري ثلاثاً من تلك المجلّات... من يدري... لا بدّ من امتلاك مخزون للمستقبل.

نقّب في جيبه، فأخرج منه ورقة ماليّة مدعوكة مدّها لها.

- واشتري لي «بليزير دو فرانس»...

- ثلاث مجلّات «بوم دابي»؟ سألت الفتاة ذاهلة.

- أجل... ثلاث...

- شكراً جيرار...

ارتمت بين ذراعيه وقبّلته على خدّيه. ثمّ عبرت راكضةً باحة الكازينو.

- اسمك الآن جيرار؟ سألته.

- أجل. إن أقدمت على تبديل اسم شهرتك، فحريّ

بك أن تبدّل اسمك الأوّل أيضاً دفعة واحدة...

على الجادّة إلى يميننا، ظهر رجل وجهه محتقن وشعره الرماديّ القصير منتصب على رأسه. كان يسير بمشية خشنة منتظمة، مرتدياً سترة منزل بنّيّة وبنطالاً أزرق، ومنتعلاً خفّين داخليّين بمربّعات.

- انظر... ها هو العجوز، قال نيومان. إنّه يتلصّص علينا... كلّ عصر، يتثبّت ممّا إذا كنّا فعلاً على الشاطئ... ما زال صلباً في سنّه، صدّقني... ستّة وسبعون عاماً...

كان العجوز طويل القامة، مستقيم الظهر. كان في مظهره مسحة عسكريّة. جلس على أحد المقاعد الموزّعة على السدّ الرمليّ، مقابل الشاطئ.

- إنّه يراقب فرانسواز ووالدتها، قال نيومان. لا يمكن أن تتصوّر الإحساس، حين تلتفت خلفك، فترى هذا الرجل برأسه الشبيه برأس سجّان...

بدا مرتاعاً لتلك الفكرة. هناك، كان العجوز ينهض بين الحين والآخر، يتقدّم ويتّكئ إلى العارضة المحاذية للسدّ، ثمّ يعود ويجلس من جديد على مقعده.

- شخص قميء حقّاً... والدة فرانسواز مرغمة على تحمّل عمّها لأنه يعيلهنّ، هي وفرانسواز والصغيرة... رجل كدِر... فضلاً عن ذلك، عدّل اسمه ليوحي بأصول راقية... يزعم أنّه يدعى غرو دو لان... هو في الواقع سمسار عقارات سابق... بخل هذا الشخص يفوق التصوّر... والدة فرانسواز مرغمة على إقامة دفتر حسابات، عليها أن تدوّن فيه أدنى زرّ تشتريه... فرض عليّ أنا الحجْر... يتظاهر بأنّه لا يراني... لا يتقبّل أن أنام في الغرفة نفسها مع فرانسواز... ارتاب منّي منذ البداية بسبب هذا... انظر...

رفع في حركة مفاجئة كمّ قميصه الأيسر، كاشفاً عن وردة رياح[1] موشومة على ساعده.

- أترى... علماً أنّها ليست بذيئة...

- يجدر بك أن تتزوّج بأسرع وقت ممكن وتغادر مع زوجتك للإقامة في مكان آخر، قلت له.

---

(1) وردة الرياح: رسم جغرافيّ كان بمثابة بوصلة قبل اختراع الإبرة المغناطيسيّة، يحدّد جهات الأرض الأربع والاتّجاهات الوسيطة فيما بينها (حتّى 32 اتّجاهاً)، ويشير فيها إلى حركة الرّياح.

هناك، على مقعده، فتح العجوز صحيفة بعناية.

- إدمون... هل يمكنني أن أعهد إليك بسرّ؟

- بالطبع.

- اسمع... تريدان منّي أن أصفّي غرو دو لان...

- من؟

- فرانسواز ووالدتها. تريدان أن أتخلّص من العجوز...

كانت ملامحه مشدودة متوتّرة، وكانت تجعيدة كبيرة تعترض جبينه.

- المشكلة تكمن في تنفيذ ذلك بطريقة نظيفة... لعدم إثارة الشبهات...

السماء الزرقاء، والشاطئ، والخيم ذات الخطوط البرتقاليّة والبيضاء، وأحواض الأزهار أمام الكازينو، وذلك العجوز، هناك، على مقعده، يقرأ صحيفته في الشمس...

- مهما قلّبت المسألة في رأسي، لست أدري كيف أفعل لتصفية غرو دو لان... حاولت مرّتين... أوّل مرّة بسيّارتي... ذات ليلة، كان يقوم بجولة في الخارج، وأردت أن أدهسه... هكذا... مجرّد حادث...

كانت تلك حماقة...

كان يترقّب ردّ فعل منّي، رأياً، فيما أنا أهزّ رأسي من غير أن أجد ما أقوله.

- في المرّة الثانية، كنّا نتنزّه على صخور باتز سور مير، على مسافة بضعة كيلومترات من هنا... وقرّرت أن أدفعه في الهوّة... ثمّ في اللّحظة الأخيرة، لم أجد الشجاعة. ما رأيك أنت؟

- لا أدري، أجبته.

- في مطلق الأحوال، لا أواجه عواقب خطيرة... لديّ لصالحي على الأقلّ إفادتا فرانسواز ووالدتها... غالباً ما نناقش المسألة معاً... هما تعتقدان أنّ أفضل وسيلة هي أن نصطحبه مرّة أخرى في نزهة في باتز...

بقيت أتأمّل العجوز هناك، وقد ثنى جريدته من جديد، وأخرج غليوناً من جيبه وراح يحشوه ببطء. هل كان اسمه فعلاً غرو دو لان؟ وددت لو أهتف هذا الاسم بأعلى صوتي لأرى إن كان سيلتفت. عادت الفتاة متأبّطة مجلّاتها، وعلى شفتيها ابتسامة مشرقة، وجلست إلى طاولتنا.

كنت حائراً. خمسة عشر عاماً مضت، وذلك الضباب نفسه ما زال يلازم مارك نيومان. براعته في عدم الإجابة على الأسئلة المحدّدة. لكنّني كنت أذكر أيضاً نوباته المفاجئة، حيث كان يسترسل في الكلام بوتيرة سريعة، مثل سحب من البخار تنبعث من تحت غطاء ثقيل يطبق عليها. أجل، كيف السبيل لمعرفة الأمور بيقين معه؟ كوندرياتسيف.

راودتني خواطر مبهمة على سطيحة ذلك المقهى، تحت الشمس، فيما نسيم ناعم ينفخ المظلّات ذات الخطوط البرتقاليّة والبيضاء، ويجعل ملصق مسرحيّتنا يرتعش على صاري المركب الشراعيّ. قلت لنفسي إنّ المدرسة تركتنا عزّلاً تماماً في وجه الحياة.

كانت تعرض لنيومان رسوم «بوم دابي»، فيما هو يقلب صفحات المجلّة، منحنياً فوق كتفها. وبين الحين والآخر، ترفع رأسها صوب مارك، مبتسمة. بدا أنّها تحبّه كثيراً.

14

ليست هذه ليلة كسواها. صعدتُ في القطار الأخير، قطار الساعة الحادية عشرة وثلاث وأربعين دقيقة. وجدت شاريل في انتظاري على الرصيف. عبرنا الردهة حيث شبابيك شراء التذاكر مقفلة، ثمّ المستديرة أمام المحطّة التي كنت أدور حولها على الدرّاجة مع مارتين وإيفون.

سلكنا الطريق، على الرصيف المحاذي للحديقة العامّة. في الجانب الآخر، الريح الدافئة تداعب اللبلاب الذي يكسو نزْل «روبان ديه بوا»، حيث لا تزال الحانة مضاءة في هذه الساعة المتأخّرة. دخلها شاريل لشراء علبة سجائر، لكن لم يكن أحد في الداخل.

واصلنا السير. إلى اليسار، تحت السطيحة الإسمنتيّة في الطابق الأوّل، أبواب السينما البنيّة ذات الكوّات الدائريّة.

ثمّة جادّة محاطة بأشجار الزيزفون، ترتقي صوب شارع الدكتور دوردين حيث كان منزل مارتين وإيفون. محطّة الحافلات. بعد كلّ تلك السنوات، عاودتني جملة بوردان بالإيطاليّة:

- إلى الخميس المقبل، يا صديقيّ العزيزين...

حاجز السكّة الحديد. البلديّة. وأوبركامبف، مطرقاً في سترته الطويلة النحاسيّة. هو الآن الساكن الوحيد في القرية. نسمع رقرقة شلّال بيافر، تحت الجسر.

البوّابة مشقوقة. الممرّ العريض مفروش أمامنا، لكنّنا نتردّد. شيئاً فشيئاً، يتكشّف لنا في نور الليل القطبيّ المشفى، وسارية العلم، والأشجار.

ندخل معاً. لا نجرؤ على المضيّ أبعد من شجرة الدلب الباسقة.

العشب يلتمع بشعاع أخضر شاحب. هنا، في ذلك الموقع من الحديقة المكسوّة بالعشب، كنّا ننتظر صفّارة بيدرو، معلنةً بدء المباراة. كم كنّا صبْية طيّبين!

صفحتنا على فيسبوك .. مكتبة الرمحي أحمد

facebook.com/ktabpdf

@ktabpdf تيليجرام

مكتبة الرمحي أحمد ٩٨

صبيّة طيّبون

بهذه الرّواية وبأعمالٍ أخرى مسكونة ببحثٍ مشابهٍ فرض موديانو نفسه باعتباره روائيّ فردوس الطفولة المفقود. في أعماله الأخرى صوّر أثر هذا الفقدان عليه وعلى شقيقه الأوحد الذي رحل مبكراً. في الكتاب الحاليّ يتّسع المنظور ليشمل جيلاً كاملاً، جيل رفاقه في أيّام الدّرس، يعود إليهم بعد عشرين عاماً، ليصورّهم في عالم المدرسة الداخليّة، ثمّ يرينا ما آلوا إليه.

في بحثٍ مشبوبٍ وتعاطفٍ أثير، يرسم هذه المسارات المعتكرة في أغلبها، ويستعيدها بتكتّم من خلال حفنة شخصيّات وبضعة نماذج دالّة من زملائه وأساتذته. زملاء من جنسيّات وأصول شتّى، يجمعهم كلّهم كونهم مهجورين، شبه منسيّين من قبلِ آباءٍ أثرياء أو مدّعي ثراءٍ أو محتالين، مشبوهين عموماً، عهدوا بهم إلى المدرسة وغابوا عنهم. إليهم يعود الروائيّ في كتابة تتناوب فيها ذكريات أيّام الدرّس وتصوير أوضاعهم المتباينة والمتشابهة بعد عشرين عاماً، هبّ للبحث عنها ممارساً كتابة موضوعيّة كالعادة وفنّاً في «الرّيبورتاج» رفيعاً.

السعر 60 درهماً

9 789948 139607

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
TOURISM & CULTURE AUTHORITY

كلمة
KALIMA

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة
أطفال وناشئة